الإسلام يتحدّى

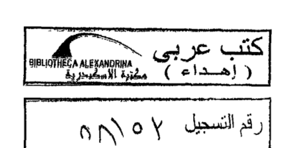
وحيد الدين خان

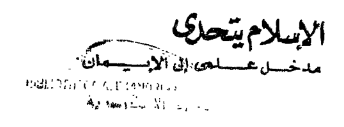
المختار الإسلامي

إهـــــــداء2002

أسرة المهندس / محمد عز الدين دياب

القاهرة





الإسلام يتحدى

مدخل علمي إلى الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

وحيد الدين خان

الإسلام يتحدّى

مدخل علمي إلى الإيمان

ترجمة

ظفر الإسلام خان

مراجعة وتقديم

دكتور عبد الصبور شاهين

الطبعة الرابعة

المختار الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة : ص. ب ١٧٠٧
هاتف ٩٣٦٤٩٦

1st Edition 1970
2nd Edition 1973
3rd Edition 1973
4rd Edition 1973

This is an Arabic translation of «Ilmé Jadeed Ka Challenge» by the Indian muslim thinker and reformer : Waheeduddin Khan (Editor, Weekly Aljamiat, Delhi-6, India) published in Urdu (1966) by Academy of Islamic Research & Publications, Nadwatul Ulema, Lucknow, India. It has been rendered to Arabic by Mr. Zafarul Islam Khan, revised by Prof. Dr. Abdussabur Shaheen of Cairo University and published by **Scientific Research House, P.O. Box 2857, Kuwait, & Al-Moghtar Al-Islami P.O. Box 1707. CAIRO.**

هذه ترجمة كتاب

« علم جديد كاجيلنج »

كتبه بالأردية الأستاذ وحيد الدين خان ونشره عام ١٩٦٦ « المجمع العلمى الاســلامى » التابع لندوة العلماء ، لكنو ، بالهند .

وتمت الترجمة باذن من المؤلف

الطبعة الأولى : دار البحوث العلمية ، بيروت ـ الكويت ١٩٧٠

الطبعة الثانية : دار البحوث العلمية ـ الكويت ١٩٧٣

الطبعة الثالثة : المختار الاسلامى ، القاهرة ١٩٧٣

الطبعة الرابعة : المختار الاسلامى ، القاهرة ١٩٧٣

« إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »

(فاطر : ٢٨)

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ
حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . »

(فصلت : ٥٣)

تقديم الطبعة الأولى

بقلم الدكتور عبد الصبور شاهين

ما أكثر ما يكتب عن الاسلام والمسلمين فى مطبوعات هذا العصر فى العربية ، وغير العربية ، وما أقل غناء أكثره .

قليل جدا من الكتابات الاسلامية هو الذى يعد اسهاما فى معالجة مشكلات عالمنا الاسلامى ، اسهاما جادا مخلصا من أجل عودته ، وتقدمه .

وكثير جدا ما نقرؤه من تلك الكتابات التقريرية ، أو الرثائية الوعظية ، التى تخطها أقلام ، ان كانت تتاجر بالدين ، فلا غرابة ، فى عالم يقوم على المتاجرة حتى بالقيم ، فأما اذا كانت معروفة بالعلم وبالذكاء ، فذلك هو داعى الحسرة والاشفاق فى أنفسنا على علمائنا الأذكياء .

أيمكن أن نتصور عالم الفكر الاسلامى مجرد أقاصيص تحكى للبهـــر ، أو مقالات يجتهد أصحابها فى تدبيج مقدماتها وسياقاتها ، لننتهى بعد قراءتها الى هز الرءوس ، ولوك عبارات الثناء والاعجاب ؟

هذا على حين يتشاغل كتاب الفلسفات المـــادية برسم تطلعات العصر ، وعلاج مشكلات التطبيق على مستوى عالمى ، حتى ليحس المرء بعد مطالعة بحث من هذه البحوث بحاجته الى أن ينزوى نفسيا فى ركن من أركان اليأس والقنوط ، لأنه غائب تماما عن المعركة الحاضرة !! .

تلك محنة الوجدان والعقل المسلم ، الذى ينشد لدى كتابه ومفكريه مستوى من المبادرة والجد والأخلاص ، ولونا من الكتابة المباشرة التى تعيش عصرها وأفكاره وتطلعاته ، فاذا هم لا يزيدون على مضغ حكايات الأولياء ، واجترار بضعة خيالات محلقة فى سماوات التية ، ومجابهة الواقع الصارخ الملح بما يميعه فى وعى الجماهير ، ثم يسرح بها بعيدا بعيـــدا ، فى أحلام المـــاضى وتصوراته .

ومن البله أن نظن أن أخبار السلف هدف ثقافى ، يقصد لذاته كمتعة عقلية ، دون أن يكون من وراء ذلك مشروع انهاض ، وخطة توعية من أجل صنع الحاضر ، والتأثير فى الأجيال القادمة ، حسب هؤلاء السلف انهم كانوا أمثلة مسهمة فى صنع عصرهم ، وتوجيه معاصريهم ، ثم مضوا ، عليهم من الله رضوان ، ومن الناس سلام .

وجاء من بعدهم خلف ، أصبح بعد حين سلفا ، بعد أن مضى الى الرفيق الأعلى ، مخلفا كذلك تركة من السلوك ، ومن الكفاح ، هى جزء من تاريخ امتنـــا .

وجاء جيلنا ليتوهم ، أو ليراد له أن يتوهم ، أنه مجرد وارث لأجيال سابقة ، عنبه أن يستغل تركتها فى خلق ملذاته ، فاذا ما جوبه بتحديات عصره لجأ الى المباهاة بتراثه ، المباهاة وحدها ، المتمثلة فى أكثر الكتابات المنشورة ، التى لا تمل أن تحكى وتحكى ، حكايات فى حكايات ، وتقف أحيانا مستعلية من فوق منبر ، لتمطر على الحضور وعظا فى وعظ ، دون أن تبلغ فى ظن الجماهير أن تهز وجدانا ، أو حتى تحرك قشة .

ان أخص صفات عصرنا هى أنه ينتج من الأفكار بقدر ما ينتج من الأشياء، وليس من الضرورى أن نتطلب من الأفكار المنتجة أن تكون نافعة دائما كالأشياء ، فان المجتمعات التى تصدر الينا أشياء الحضارة ترى فى الأفكار سلعة ينبغى أن تتغير كل يوم ، كما تتغير طرز الأشياء ، ولذلك يقف مثقفونا مبهورين أمام موجات الفكر الواردة من الخارج ، ماذا يأخذون ، وماذا يدعون ؟ بل قل : ماذا يقرءون ، وماذا يترجمون ؟ .. ولاشىء أكثر من هذا ... يكفيهم أن يستطيعوا ملاحقة الأفكار ، دون أن يكون عليهم أن يواجهوها ، أو ينقدوها ، فهم الى أن يصوغوا نقدا معينا لأحد الاتجاهات الجديدة نسبيا يكون الوقت قد فات ، وتقادم بمرور الزمن ما ينقدون ، وغطت عليه أفكار أخرى أشد لمعانا ، وأكثر جاذبية واشعاعا .

ومما لا شك فيه أن العالم الاسلامى هدف ثمين من أهداف — تصدير — الأفكار ، نظرا الى موقعه ، وخطورة موقفه بين الكتل المتصارعة ، أو بعبارة أخرى : مراكز الانتاج ، والهدف من وراء التصدير واحد لدى كل هذه المراكز : أن يبقى هذا العالم مفتقرا اليها ، على اختلافها ، وأن يحال بينه وبين أفكاره الأصيلة ، التى يمكن أن تغنيه عن الاستيراد ، وتحقق له الاكتفاء الذاتى .

ومن المعروف فى دوائر الاقتصاد أن الاحتكار اذا تحقق لمركز انتاجى فى سوق معينة فان من المتوقع أن يبدأ المنتج فى افساد السلعة ، بتقليل جودتها اعتمادا على الاحتكار المتاح له ، وطمعا فى ربح أوفر .

وسوق الأفكار أخطر أسواق المنتجات ، وأكثرها تقبلا للتزييف والافساد ، ومن ثم حفلت أسواقنا بما هو أشد فتكا من السموم ، وأعظم انتشارا من الهواء ، يتخلل كل خلية ، وينخر فى كل بناء .. أفكار ترتدى أثوابا ، أو تحمل شعارات أو ترفع مشاعل ، ليس الثوب فيها ، أو الشعار ، أو المشعل ، الا قناعا يستر الزيف الخطر .

وليس من الممكن أن نفهم موجات السيطرة الخارجية على مجتمعاتنا الا اذا لاحظنا مثلا تبعية الفتاة المسلمة فى كثير من بلاد الشرق العربى لكل ما يظهر فى أوروبا أو أمريكا من أزياء ، فما أن ترتدى الزى احدى (المانيكان) قصيرا بمقدار سنتيمتر واحد ، حتى تبادر فتياتنا الى تقصير أثوابهن بمقدار شبر واحد !!

ليس المهم ملاحظة أن تقصر الفتاة أو تطول ثوبها بحكم (الموضة) الشائعة ، فاذا لم تفعل عدت متخلفة ، وانما المهم ملاحظة هذه السيطرة التى توفرت لملوك الأزياء ، وأكثرهم صهيونيون ، على فتياتنا المثقفات بخاصة ، حتى كأنهن جميعا أعضاء فى جوقة موسيقية واحدة ، وأمامهن (مايسترو) كلما أشار باصبعه أو بعصاه تحرك العازفون والعازفات فى اتجاه العصا ، كالقطيع .

ودلالة هذه التبعية أخطر مما قد يبدو فى ظاهر الأمر ، لأن تأثيرها يشمل كل القيم التى يقدسها المجتمع فى شخص المرأة ، قيم الحيـاء ، والأنوثة الواعية ، والجسد غير المتعرض لذباب الأعين ، وقيم التماسك ، والالتزام فى تربيتها ، وقيم الجيل الناشىء على يديها ، وهو الذى ننشده لغد هذه الأرض ، ومستقبل هذا الدين ، وبكلمة واحدة ، وبلا مغالاة : نحن هكذا محكومون من عمق مجتمعنا لملوك الأزياء ، ودولة المانيكان .

ومع ذلك ، قد يقال : ان مسألة الزى أقل خطرا من غيرها ، فهى على أية حال مسألة غـلاف ... أما غيرها ، كقضية المعتقدات التى تزيف للأجيال الناشئة ، وجوهرها تحطيم لدينها ...

وقضية الروح المنهزمة أمام انتصارات العلم فى غير بلاد الاسـلام ، الروح التى تقف متضعضعة مبهورة أمـام منجزات الانسان الأوروبى أو الأمريكى .

وقضية الحرية الفكرية المعدومة فى فلسفة التربية ، حتى أصبح كل هم المدارس انتاج نماذج مصبوبة فى بوتقة التبعية والتقليد .. وقضايا أخرى كثيرة ، كلها أهم من قضية المينى جيب ، أو الميكروجيب .

وبرغم ذلك لا نكاد نلمح أدنى فاصـل بين هذه القضايا جميعا ، فالمصنع المنتج واحـد ، وهـدف التصدير واحد ، والمستهلك واحـد أيضا ، هو الانسان المسلم .

والمشكلة بالاضافة الى هذا كله أن أكثر كتابنا أصبحوا يرون فى قيـام هذه الحالات شيئا مألوفا غير جدير بالمناقشة ، اما زهدا فى الدنيا ، واما يأسا من الاصلاح ، وأما تعودا على المشاهدة اليومية ، كما يتعود المدمن تأثير المخدر . وكأنهم المعنيون بقول الشاعر :

من يهن يسهل الهـوان عليـه   مـا لجـرح بميت ايـلام

وأقول : (أكثر كتابنا) . لأن هنـاك (قلة) نصبت أقلامها للذود عن المستقبل ، والدفاع ضـد التيار المخرب ، متحملة فى ذلك عنت الفساد وسلطانه ، ومتحدية فى المجتمع مراكز استيراد الأفكار ، وعناصر اللامبالاة ، وهؤلاء القلة لا تكاد — والحمد لله — تخلو منهم أرض الاسلام ، يكتبون بكل لغة ، ويحاربون فى كل معركة ، ايمانا منهم بوحدة المقاتلين أمام الخطر الزاحف .

ومن هؤلاء القلة مؤلفنا هذا ، الذى يدخل اسمه لأول مرة حقل اللغة العربية ، بنشر ذلك الكتاب : **(الاسلام يتحدى)** ، وان كان لاسمه رنين مدو فى شبه القارة الهندية ، باعتباره ثالث اثنين ، يتولون قضية الاسلام المعاصر فى وجه الزحف الفكرى : أبو الأعلى المودودى ، وأبو الحسن الندوى ، ووحيد الدين خان .

والحق أن علماء باكستان والهند المسلمين قد أتيح لهم أن يتصلوا اتصالا مباشرا بمصادر المعرفة الحديثة ، حتى أصبحوا من أعلامها ، وهم فى هذا يضارعون أكثر علمائنا العرب اتصالا بثقافة الغرب ، مع فارق جوهرى ، فى رأينا ، وهو أن الأولين الذين نشير اليهم لم يغرقوا أنفسهم فى المعرفة

الأكاديمية ، لتستولى من بعد على عقولهم واقلامهم ، وليصبحوا مجرد ناشرين ، أو مفسرين ، أو حتى معلقين ، على ما يقدمون من فكر الغرب وعلومه .

لقد وقف هؤلاء عمالقة فى وجه التيار ، وانغمسوا فى مشكلات الجماهير ، وحاولوا أن يقدموا لهم تصوراتهم من أجل المستقبل ، ومن أجل تحريك الثورة الفكرية فى كيان الانسان المسلم ، فهم فى الحقيقة كتاب ثوريون ، ذوو أصالة ووعى وايمان .

وليس من السهل أن نقول : انهم جميعا يمثلون طريقة واحدة فى الأداء ، برغم أن هدفهم واحد ، فان لكل منهم أداءه الخاص ، وطريقته الفذة التى عرفته بها الجماهير المسلمة .

وحسبنا أن نقرأ هذا الكتاب الجديد ، لندرك أنه يمثل عقلا ، وثقافة ومنهجا، يختلف بها مؤلفه عن جميع من عرفنا من الكتاب المعاصرين .

ولعل من المناسب أن أورد هنا ما كتبه المؤلف فى صحيفته (الجمعيت الأسبوعية) فى عدد ٧ من فبراير ١٩٦٩ ، موضحا الدور الذى يحاول أن يقوم به ، قال :

« ان المشكلات التى يواجهها الاسلام فى هذا العصر ، منها ماهو علمى ، يوجه اليه بلغة العلم ومصطلحاته ، ولذلك كان لزاما أن نضع اجاباتنا فى مواجهة هذه الحملات المسعورة بنفس المصطلحات العقلية والعلمية التى يستخدمها المعارضون للدين . ولا زال هذا الميدان ، منذ أمد طويل مجالا لنشاطى واهتمامى ، حتى كان آخر ما كتبت : (الاسلام يتحدى) .

« والميدان الثانى لنشاطى هو ما نسميه بميدان بناء الأمة الاسلامية وتعميرها ، والعمل على نهضتها ، وعلينا فى هذا المجال أن نكشف العلل ، ونمحص الأسباب السياسية والاجتماعية التى أدت الى سوء أحوال المسلمين ، ثم وضع خريطة للمستقبل ، بعد الوقوف على أسباب النكسة التى أصابتنا ، وتقوية الشعور القومى لدى المسلمين (فى شبه القارة الهندية) ليربط بين مختلف أنشطتهم ، فيجعلها مجموعة معنوية متكاملة ، وحثهم على مواصلة الجهد لتكون منهم أمة قوية جامعة فى العالم .

« وبكلمة أخرى ، نحن نصبو الى بعث الأحلام التى رآها أسلافنا خلال كفاحهم وتحقيقها ، لاعلاء شأن الأمة المسلمة ، وهى الأحلام التى لم تتحقق ، لسبب أو لآخر .

« وهذه هى المهمة الفكرية التى تضطلع بها صحيفتنا (الجمعيت الأسبوعية) ، ويمكننا أن نقول بحق : ان هذه المهمة قد أصبحت أكبر ميزة خاصة لجريدتنا فى المجال الصحفى ، فى هذا العصر ، على حين أصبحت الصحافة الاسلامية علما على الرثاء ، بل ان آخر ما تستطيعه هذه الصحافة هو مجرد التعليقات السياسية على الأحداث العامة ، وتقديم بعض المعلومات الطريفة التى يتشوق اليها العامة من القراء . ففى هذا المناخ الصحفى تعتبر (الجمعيت الأسبوعية) الصحيفة الوحيدة التى تعمل على احياء وتقوية الشعور القومى لدى المسلمين ، باحثة عن مواطن الخطأ فى

كفاحهم الحضارى ، ونحن لا نجد كلمات نشكر الله بها ، على أنه ـ سبحانه ـ اختارنا بمشيئته لسد هذا الفراغ » .

فالرجل كما نرى صاحب دعوة ، يريد ابلاغها الى ضمير الأمة المسلمة بلاغا يحركها نحـو أهدافها ، ويوحدها أمام الأخطار ، وهى دعوة ذات شقين ، أحدهما يستنفد العمر كله ، ولكنه يعمل لتحقيق كليهما بوسائله المتاحة : أن يكتب كتبا ، وأن يسخر مجلة أسبوعية .

والواقع أن كتابه هذا يعتبر تحقيقا لحلم طالما راود كتاب العقيدة والمدافعين عنها ، فقـد كانت محاولات السابقين للبرهنة على وجود الله ، واثبـات الرسالة ، وما يتصل بهما من حقائق ميتافيزيقية ـ قد وقفت عند جهـود علمـاء الكلام ، باستخدام الاقيسة المنطقية ، التى بليت لطول مالاكتها الألسن ، واصبح مجرد التحدث بها داعية الى الملل منها ، بل ان لغتها لم تعد مفهومة للشباب الاسلامى ، الذى يعيش فى هذا العصر ظروفا تتغـير من يوم لآخر ، وتطالعه ثقافات ذات جدلية ماهرة ، ومناهج علمية تجريبية لم يعد العقل يقنع بدونها .

لقد أصبح كل شىء موضع شك . وبذلك سقطت القضايا القائمة على المسلمات المنطقية لأنه لاشىء فى العقل الحديث بمسلم منطقيا، الا وله نقيض منطقى يمكن أن يتحمله العقل . أما التجربة فهى الدليل الذى لا يدفع على قضيتها ، وما ينتج عن التجربة ليس مسلما منطقيا ، ولكنه حقيقة نسبية موضوعية ، وهذا شأن العلم . ومن هنا كان لابد من تغيير المناهج الكلامية ، لاشباع رغبات متجددة فى اليقين ، تريد أن تؤسس موقفها على أرض من المعرفة الجديدة التى اخترقت الآفاق ، وقاست أبعاد النجوم ، وتغلغلت فى أسرار المادة ، حتى حطمتها واستخرجت منها طاقات لا حدود لها .

واذا قيل : ان قضايا علم الكلام هى قضايا الغيب المطلق المحجوب الأسرار ، ولا يعقل أن يكون للتجربة دور فى معالجتها . تذكرنا فى رد هذا الرأى ما قاله عربى يعيش على فطرته ، وينطق على سجيته ، دون أن يكون قد الم بشىء من منطق أرسطو : « البعرة تدل على البعير ، واثر السير يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحـار ذات أمواج ، الا يدل ذلك كله على الله اللطيف الخبير » ؟؟ .

وكلمات هذا الأعرابى ألصق بالمنهج التجريبى ، القائم على الملاحظة ، وأقرب الى التأثير فى النفس ، واقـدر على اقناع العقل ، من اية صيغة قياسية ـ ما فى ذلك شك .

لقد أصبح سيئا للغاية أن ينطق رجل الدين أمام الناس ، أو أمام الطلاب بقضايا متقادمة ، قال بهـا الأولون ، دون أن يحاول مزج المعرفة التقليدية بالجديد ، واكثر ما تتجلى هذه المعرفة التقليدية فى علم التوحيد أو الكلام ، أو مباحث العقيدة ، على اختلاف المصطلحات ، حيث يصر بعض الأساتذة على حكاية النـزاع بين المعتزلة وأهل السنة ، والفرق بين الأشـاعرة والماتريدية ، ووجهـة نظر الخوارج والشيعة ، والخـلاف بين الجبرية وغيرهم ، وتناقض ما بين العقل والنقل أو تساندهما ، وكل ذلك دائر فى حلقة مفرغة ، بعيدة عن مجال تفكير الشباب المتحول ، لان هذا الكلام كله

قد أدى وظيفته على خير وجه ، حين كان جزءا من صراع عصره حول المفاهيم والقيم ، فلما مضى عصره أصبح جزءا من تاريخ الفكر ، لا أساسا من أسس النقاش الحى النابع من التجربة المعاشة .

ولذلك يعجز هذا الكلام عن اقناع ملحد حديث بخطئه ، لأن أسباب الحاده ليست من موضوعات الكلام ، فالجدل الحديث لا يتناقش حول الجوهر والعرض ، ولا حول القدم والحدوث ، وانما هو يتناقش حول حتمية المادة ، ووجود المادة الواقعية والمادة العقلية ، والعلاقة بين المادة والحركة ، حين ينتهى كل موجود مادى فى حقيقته الى حركة ، والاحتمالات الرياضية لتأثير الصدفة فى نشأة الكون ، وامتداده ، وحتمية التطور . وحقيقة الوجود فى ضوء الادراك الجديد لنسبية الظواهر الكونية ، وأهمها الزمان ، ذلك البعد الرابع الذى كشفه اينشتاين ، والتوقعات العلمية لوجود عوالم أخرى غير عالمنا ، فى سمائنا ، وفى السماوات الأخرى ، التى يدركها العلم ، أو يحدس بوجودها ، ويحاول معرفة شىء عنها ... الخ .

فاذا لم تكن هذه القضايا الجديدة هى محور النقاش فى قاعات الدرس الجامعى . الذى يصوغ عقول الشباب فمعنى ذلك أن جامعاتنا تعمل فى فراغ ايديولوجى ، وتخرج للمجتمع نماذج خربة ، واهنة ، أو مشوشة ، أو يائسة من جدوى العقيدة فى بناء المجتمع الجديد ، نماذج تحس فى أعماقها بالجفاف الروحى ، فهى لم تظفر بأرضية من الفكر الدينى تقف عليها مطمئنة فى مواجهة رياح التغيير العاصفة ، اما لانها محرومة من هذا اللون من الدراسة ، واما — وهو الأخطر — لأنها غير مقتنعة بما عرض عليها من موضوعاته . وينتهى الأمر بهذه النماذج الى أن تتبعثر فى الفراغ ، وتحس باللامبالاة تجاه مسائل العقيدة ، لأن أسلم الطرق الا تبالى ، فالهرب أسلم المسالك .

والغريب أن هذه الحال قد طفحت على سطح المجتمع منذ أوائل القرن التاسع عشر ، حين بدأ اللقاء والاصطدام بين ثقافتى الشرق والغرب يواجه مبعوثينا الى أوروبا ، على عهد محمد على — فى مصر ، وتعرضت أعمال روائية ، منذ ذلك العهد ، وحتى يومنا هذا ، لتصوير التمزق الفكرى ، الذى يعانيه هؤلاء المبعوثون ، من أمثال : تخليص الابريز — لرفاعة الطهطاوى ، وعلم الدين — لعلى مبارك ، وحديث عيسى بن هشام — لمحمد المويلحى ، وقنديل أم هاشم — ليحيى حقى ، وعصفور من الشرق — لتوفيق الحكيم ، ومليم الأكبر — لعادل كامل فانوس ،أى أن المشكلة ثائرة وملحة من قديم ، دارت حولها روايات قيمة . ومع ذلك لم يبحث لها المفكرون الدينيون عن حل ، ولم يعرضوا لها بمناقشة لاستكناه أسبابها ، على حين اكتفت الأعمال الروائية بالتقاطها وتصويرها . والخطر بهذه السلبية الى تفاقم ، والخراب الى استفحال ،والضحية دائما هو الانسان المسلم .

أليس غريبا أن يكون بعض عتاة الملاحدة فى مجتمعاتنا ممن يمتون الى أسر ذات اتصال بالدراسة الدينية ؟ !! وأن تنشر مجلة أسبوعية أن احدى المانيكان تمثل جامعة الأزهر الشريف ، ثم تأتى بصورتها فاذا هى ترتدى ما ترتديه بنات باريس[1] !! ودعك من أن تكون احداهن فتاة غلاف ، تنشر لها صورة عارية ، أشبه بصور السابحات الفاتنات ، وهى من بنات

---

(1) أنظر العدد الصادر من جريدة أخبار اليوم فى ٢٩ من نوفمبر ١٩٦٩ .

العلماء ؟(١) انهم جميعا ، واضرابهم ، نتاج هذا الانفصام بين الفكر الدينى وقضايا العصر ، بحيث لم يأخذ هذا الفكر شكل ثقافة حية تجمع بين المعرفة والسلوك ، أى أن هناك عجزا شائنا فى الثقافة المستخدمة للاقناع ، على حين استطاعت الثقافات الأخرى أن تحتازهم لمعسكرها ، لأنها صادفت فراغا فتمكنت ، بصرف النظر عن جدية الأشخاص أو هزليتهم وتفاهتهم ، وأحـد أسباب هذا الانفصام ايضا أن من يتولون سدانة الفكر الدينى لم ينهضوا لمواجهة تحـدى العصر ، ربما لأنهم فعلا غير فاهمين لرسالاتهم ، الا على انها استحضار لماض أثرى لا علاقة له بحاضر ، وربما لتوهمهم أنه لا تحدى أصـلا ، بل كل شيء هادىء على الجبهة ! ! والدنيا بخير والحمد لله ! ! .. فالمشكلة من هذه الوجهة أزمة فى الشعور الذى يؤدى حين يكون سويا الى الأرق المنتج ، والقلق الخلاق ، فأما حين لا يكون هناك شعور فان الدين يتحول عند بعض رجاله الى باب سخى للوجاهة والارتزاق ، وعند بعضهم الى سلبية قاتلة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولست أنكر أن محاولات جادة قام بها بعض العلماء القلقين على مصير الانسان ، فى الشرق والغرب ، من أجل البرهنة على وجود الله على أساس علمى ، ولكن قضيةالدين ليست هى قضية (وجود الله) فحسب . لا مراء فى أن الايمان بوجود الله سبحانه أساس ومنبع ، ولكنه يستتبع الايمان بقيم أخرى ومبادىء ، دعا اليها الرسل . وحثت عليها الأديان ، وأهمها ضرورة الايمان بوجود كائنات غير الانسان ، دل عليها الدين وسماها (الملائكة) الملهمين الخير ، وكائنات أخرى غير الانسان والملائكة دل عليهـا الدين ، وسماها الجن ، ومنهم (الشياطين) ــ النازغون بالشر ، وضرورة الايمان بالغيب ، وباليوم الآخر . وما يتصل به من جنة ونار ، وحساب ، وثواب وعقاب ، بل ما يسبق ذلك من قيامة ، هى فى حقيقتها دمار للدنيا ، وتحطم للكواكب والنجوم ، وضرورة التزام شريعة الله ، التى جاء بها الرسل ، وخاتمهم محمد صلى الله عليـه وسلم ، متى صح الايمـان بوجـود الله ، مالك الملك ، ومنزل التشريع بالحلال والحرام ، وفى كلمة واحـدة : ضرورة اقرار ما علم من الدين بالضرورة .

وهكذا نجدنا أمام كل مترابط ، لا يمكن انفصام أجزائه ، الا على طريقة بنى اسرائيل ، الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

ولقد وجـد فى المجتمع الاسلامى فعـلا هذا الصنف من الناس ، الذين يحدثونك بأنهم مؤمنون بالله ، وكفى ، ولا داعى لمطالبتهم بأكثر من هـذا ! ! وهم يواجهون من يدعوهم الى الالتزام بأوامر الله ونواهيه : بأن الهدف من هذه هو تزكية النفس ، وعدم ايذاء العباد ، فاذا تحقق هذا الهدف بوسيلة أخرى كالثقافة مثلا كان فى ذلك غنى عن الالتزام بالتكاليف ، لأن هذه هى روح الدين !! .. وغاب عنهم ، أو تجاهلوا ، ان العبادة فى حقيقتها ثمرة الايمان بالله ، وتأكيد لعبودية الانسان له ، وأن الله سبحانه قد اختار لعباده أن يخاطبوه ويقدسوه بكيفية معينة،لا خيار لهم فيها ، بصرف النظر عن تحقيق مصلحة معينة لهم من العبادة أو عدم تحقيقها : (وما خلقت الجن والانس

---

(١) أخبار اليوم ٢٥/من اكتوبر ١٩٦٦ .

الا ليعبدون) (١) فمصلحة الانسان العليا فى أن يرضى خالقه بانفاذ أمره ، والتزام طاعته .

فهذا صنف من الناس يجتزىء من الدين بما لا يقتضيه تكلفه : أن يقول : آمنت بالله ــ فحسب ، وهو يستعمل مسألة تسليمه بوجود الله ــ جل وعلا ــ ذريعة الى التحلل والانعتاق من سائر قضايا الدين ، والصدود عنها ، وهو أمر ينبغى أن يلحظ على أنه من صميم أزمة الدين فى أنفس المثقفين المعاصرين ، لأن الثقافات الالحادية قــد اتخذت لنفسها خطة لئيمة ، فحواها أن دعوة المسلم الى الكفر تلقى نفورا فى المجتمع الاسلامى ، ويكاد يكون من المحال احراز تقــدم فيه باعتناق هذه الدعوة ، ولذا ينبغى أن تكون الخطة ــ أولا ــ تجريد شخص المسلم من الالتزام بالتكاليف ، وتحطيم قيــم الدين الأساسية فى نفسه ، بدعوى العلمية والتقدم ، دون مساس بقضية الالهية مؤقتا ، لأنها ذات حساسية خاصة ، وبمرور الزمن ، ومع الف المسلم لهذا التجريد يسهل فى نهاية الأمر تحطيم فكرة الالهية أساسا فى عقله ووجدانه ــ واذا بقيت افتراضا ، فلا ضرر منها ، ولا خطر ، لأنها حينئذ لن تكون سوى بقايا دين ، كان موجودا ذات يوم بعيد .

وهكذا يحكم أعداء الاسلام مخططاتهم ، ويدبرون لتدمير الدين ومبادئه ، ابتداء من أبسط السنن والواجبات ، وانتهاء الى قضية القضايا : وجود الله ذاته .

فاذا افرد بعض العلماء مسألة وجود الخالق بالعلاج العلمى فقليل منهم ــ فيما أعلم ــ من تصدى لعلاج هذه القضايا جميعا ، وبخاصة هذا الكتاب: **(الاسلام يتحدى)** . وأحسب أنه من هذه الناحية سوف يصبح ــ متى بلغ عمق المجتمع ــ دستور الاقناع الدينى ، أو كما يعبر العنوان الفرعى الذى تخيرناه له : (مدخلا علميا الى الايمان) .

وقد كان المؤلف منطقيا مع عصره الى أبعد الحــدود ، فاذا كان أقطاب الالحاد فى الفلسفة الحديثة قد وضعوا لضحاياهم مدخلا علميا الى الكفر ، فلا مناص من أن يحاول هو بحسه الصادق ، ووعيه بحاجة المسلمين ــ وضع مدخل علمى الى الايمان ، يعتبر أساسا لعلم كلام ، أو علم توحيــد جديد . وهذا هو الاعتبار الذى كان من وراء الحماس المخلص ، بذله مترجم الكتاب الاستاذ ظفر الاسلام خان نجل المؤلف ، واقتضانى أن أعكف شهورا تبلغ سنوات على مراجعته ، وتحقيق نصوصه الدينية .

ولذلك سوف نجده يعرض (قضية معارضى الدين) بكل حيدة وأمانة ، حتى لا يتهم من أول لحظة بمخالفة المنهج العلمى ، ثم يبدأ فى مناقشتها معتمدا فى الأساس على الانتــاج الفكرى الغربى ، من باب (وشهد شـــاهد من أهلها)(٢) ، مرجئا مسألة استخدام الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية فى آراء الأعداء قبل الأصدقاء .

ولا يتبادرن الى ذهن القارىء أن المؤلف رجل دين متحمس ، يبشر بدعوة الاسلام بأسلوب جديد ، انه مفكر مصلح يعمل بالصحافة ، رئيسا لتحرير

---

(١) الذاريات/٥٦

(٢) يوسف/٢٦ .

مجلة (الجمعيت الأسبوعية) وما عرضته هنا هو نتيجة تأمل واهتمام مؤرق بمشكلات الشباب المسلم ، حتى أصدر كتابه هذا عام ١٩٦٦ ، ومازال وفيا لقضيته ، مجاهدا فى سبيلها .

ولئن كنا قد ألمحنا قبل بضعة أسطر الى بعض ملامح منهجه ، فان تنظيم هذا المنهج قد اقتضاه أن يضع قضاياه فى ترتيب منطقى :
فهو قد وضع كتابه علاجا للمشكلات العقيدية التى تواجه البشر ، ولما كان المتوارد على مسرح الأحداث ، مبدأ الدين ، ومبدأ الالحاد ، وكان هو من معسكر الدين — وجب عليه أن يدلف الى هدفه من خلال دعاوى الخصوم ، حتى لا يتهم بتجاهلها ، فعرض فكرة معارضى الدين وبين أسسها البيولوجية والنفسية والتاريخية . ومعنى ذلك أنه يعرض جوهر فلسفات ثلاثة : الداروينية ، والفرويدية ، والماركسية ، وهى المبادىء التى قادت فى مجموعها قطعانا من البشر فى وادى الالحاد ، وانكار وجود الله ، وتأليه المادة .

فاذا بدأ بمناقشة هذه المبادىء سلك نفس السبيل التى سلكتها . فاستقى أدلته من الطبيعة ، ومن البحوث النفسية ، والتاريخية .

واذا كان أعظم قضايا الدين . بعد الايمان بالله ، الايمان باليوم الآخر ، حقيقة غيبية ، لا مراء فيها ، وكانت أهم دعاوى الالحاد قائمة على أنكار هذا اللقاء مع الخالق — فان اثبات امكان الآخرة ، بالأدلة الطبيعية ، والبيولوجية والتاريخية — هو أيضا من الأدلة القاطعة بصحة الدين ، وبوجود الله ، ومن ثم نجده متألقا فى تبيان الحاجة الى الآخرة نفسيا ، وأخلاقيا ، وسلوكيا ، حتى اذا استقر فى وعى القارىء ضرورة الآخرة كان ذلك طريقا الى اقرار ضرورة الايمان بالله من جانب آخر . فالآخرة اذن قضية وبرهان فى آن .

والمؤلف لا يكتفى فى هذا الباب بدليل واحد ، بل هو يقدم بحوثا قيمة فى ضرورة الآخرة من الناحية الكونية ، ويسوق شهادات تجريبية ، وبحوثا نفسية وروحية ، تؤكد هذه الضرورة ، كما يزيد القارىء ثروة فى المفاهيم ، ويفسح له آفاق الاقتناع .

ويأتى بعد ذلك دور الرسالة ، وهى الدليل التاريخى على الحقيقتين السالفتين ، لأن الرسل هم الذين دلوا عليهما ، قبل أن يخطو الانسان هذه الخطوات الجبارة فى ميدان العلم والتجربة .

ومن الضرورى أن نلفت النظر هنا الى أن المؤلف لا يعنى بكلمة (الدين) الا ما عناه الحق سبحانه بها فى قوله : (ان الدين عند الله الاسلام) (١) ، فاذا تناول قضية الرسالة فمقصده قطعا رسالة الاسلام ، وكتابها المعجز : القرآن

ويعقد فى هذا الباب عدة فصول يتحدث فيها عن اعجاز القرآن التاريخى ، والعلمى ، ويورد لمحات كثيرة عن تنبؤات القرآن ، وما تضمنته آياته من حقائق لم يكشف عنها الا فى العصر الحديث ، فى الفلك ، وطبقات الأرض وغيرهما .
فاذا انتهى من اثبات هذه الصفة العلوية للقرآن ، وأكد به الحقيقة

---
(١) آل عمران ١٩ .

الأولى ، وهى وجود الله ، عقد بابا خاصا بعلاقة الدين بمشكلات الحضارة ، فتناول فى جانب منه مشكلات التشريع ، وعناصره الأساسية ، وتحديد الدين لمفهوم الجريمة ، وعلاقة القانون بالأخلاق ، وبالفرد ، وبالعدل .

ولا يفوته أن يتحدث عن بعض مشكلات الحضارة الحديثة ، كمشكلة المرأة ، والتمدن ، والملكية ، مقارنا فى كل ذلك نظام الاسلام بنظامى الحكم المعاصرين : الرأسمالية والشيوعية .

ويأتى أخيرا حديثه عن مستقبل هذا العالم الاسلامى ، وماينشده أبناؤه من أهداف سامية ، وما ينبغى أن يكون لهم من رسالة فى العالم الحائر ، بين مذاهب الالحاد الواهية المتهاوية ، ودين الفطرة الذى جعله الله ختام الأديان ، وجعل نبيه خاتم المرسلين ، مبينا كيف أدى الالحاد فى المجتمعات الأوربية الى التحلل ، والتمزق الأسرى ، وتكون طبقات من المجرمين والشواذ ، وانتشار أعصى الأمراض النفسية والعصبية ، جزاء الحرمان من الايمان بالله ، خالقنا ومالكنا ، ويختار لختام كتابه كلمة قبسها عن الأستاذ أ. كريسى موريسون ، اذ قال :

ان الاحتشام ، والاحترام ، والسخاء ، وعظمة الأخلاق ، والقيم والمشاعر السامية ، وكل ما يمكن اعتباره نفحات الهية — لا يمكن الحصول عليها من طريق الالحاد ، فالالحاد نوع من الأنانية حيث يجلس (الانسان) على كرسى (الله) .

« لسوف تقضى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين » .

« سوف يتحول النظام الى فوضى » .

« سوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتمسك » ..

« سوف يتفشى الشر فى كل مكان » .

« انها لحاجة ملحة أن نقوى من صلتنا وعلاقتنا بالله » .

فهذا هو منهج الكتاب فى ايجاز شديد ، وهو منهج يشدنى الى ملاحظة هامة أحب أن أضعها بين يدى القارىء . ذلك أن خطوات هذا المنهج ، بنفس الترتيب تكاد تكون طبق الأصل من كتاب أخرجته من قبل مترجما عن الفرنسية ، هو كتاب «الظاهرة القرآنية» للمفكر الجزائرى مالك بن نبى ، وهى ملاحظة غريبة فى المنهج ، لا تنصرف الى مادة الكتابين ، لأن المؤلفين مختلفان فى عقليتهما ، وثقافتهما ، وطريقة معالجتهما لهذه القضايا الدقيقة ، حتى انى أكاد أقطع بأن المحاولتين من حيث المصادر والمادة والأسلوب متباعدتان تماما ، احداهما عن الأخرى ، بعد ما بين الجزائر والهند ، ولم يحدث أن التقى الرجلان فى صعيد واحد ، فيما أعلم . وتفسير هذا التوافق ينحصر فى توارد الأفكار على مشكلة واحدة .

بيد أن ذلك لا يمنعنى من أن أقرر أن كلا الكتابين صادر عن نفس الاحساس بضرورة وضع منهج جديد للاقناع الدينى ، وكلاهما توافرت فيه المنهجية الحديثة ، وموضوعهما مشترك كذلك ، والروح الكامنة فى مضمونها روح ثائرة ، مؤمنة .

وحسب الشباب المسلم من هذه الملاحظة دليلا على أن روح الاسلام طاقة لا يمكن أن تخمد ، وستظل تصنع المعجزات ، برغم التفوق المادى الذى حققته مجتمعات الملاحدة المعاصرين .

نعم .. ان هذا التوافق العجيب بين مفكرين من أكابر مفكرينا يكاد أن يكون من بدائع الروح الخالدة ، روح الاسلام ، وأقول : الخالدة ، لأن الروح طاقة ، والطاقة لا تفنى ، وذلك وعد الله : (انا نحن نزلنا الذكر وانا لــه لحافظون)(1) .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وصلى الله على محمد خاتم النبيين .

عبد الصبور شاهين

الكويت ــ ديسمبر ١٩٦٩

---

(1) الحجر ٩

تمهـــــيد

الموضوع الذى سندرسه فى الصفحات التالية ليس بجديد بالنسبة الى اللغة الأردية . ولكن المؤلف يشعر بأنه لا يزال ناقصا ، رغم الجهود الطيبة التى بذلها بعض الكتاب .

والعصر الحديث يسمى : « عصر الالحاد » ، لانكاره الدين .. وهـــذا الالحاد ليس محض ادعاء . بل يـــرى أصحاب نظريته أنها طـــريقة بحث ودراسة ، اهتدى اليها الانسان ، بعد التطور الحديث فى ميادين العـــلم المختلفة ، وهذه « الدراسة التطورية » لا تهدف الى اثبات نظـــرية ما أو انكارها ، وانما هى منهج خالص فى البحث ، أثبت لأصحابه أن الدين باطل ، ويمكن أن نفهم هذه الطريقة الجديدة فى ما قاله ت. ر. مايلز :

« ان الدراسة الجديدة هى تكنيك ومنهج ونمط معين لمواجهة الأسئلة ، وهى لا تستهدف وضع اجابات قطعية . وهو — من هذا الوجه — تغير هام طرأ على الفلسفة فى النصف الأخير من هذا القرن ، ولسوف يبقى هـــذا التغير مستمرا ، دون أمل فى توقفه على المدى(١) البعيد » .

ولابد لباحثينا اذا ما أرادوا البحث فى العلوم الحديثة ، دفاعا عن الدين ، ألا يغيب عن أذهانهم هذا التفسير ، سواء اعتبرناه تفسيرا علميا محضا توصل اليه المفكرون المحدثون ، أو اعتبرناه مجرد ملجأ جميل ، ركنوا اليه ، حين أخفقوا فى البحث عن التفسير المادى للكون ، بعد انكار الدين .

وعلى سبيل المثال : ان الأعمال التى قام بها علماؤنا لاثبـــات النبوة ، تفترض مقدما أن العصر الحديث يدعى : أن محمدا صلى الله عليـــه وسلم « كان نبيا كاذبا » ، فيبدأون فى جمع كميات كبيرة من المواد التى تثبت أن محمدا كان « نبيا صادقا » . ومغزى القول : « كان محمد نبيا كاذبا » هو أن هناك أنبياء آخرين صادقين ، على حين يشك الانسان الجديد فى المبدأ نفسه ، فهو لا يؤمن بالنبوة أصلا . فأما « النبى الكاذب » False Prophet فهو اعتراض قديم جاء به اليهود والنصارى ، الذين يؤمنون بأنبيائهم ، وينكرون نبى الاسلام . وأما العقل الحديث ، فلا يبحث عما اذا كان محمد نبيا « صادقا أو كاذبا » ، وانما يبحث عن منبع كلامه النبوى ، وينتهى ، اعتمادا على المناهج المعروفة ، الى أن مصدر هذا الكلام الغريب هو : « اللاشعور » .. وهو يرى أن التعبير عن كلام اللاشعور بالوحى والالهام يصلح أن يكون استعارة جميلة ، ولكنه يستحيل اعتباره واقعا حقيقيا .

---

(١) Religion & the Scientific Outlook, 1954, p. 13.

ولذا ، فان مهمتنا لا تنتهى عند اثبات صدق نبوة رسول الاسلام ، بل علينا أن نضطلع بالبحث عن الوحى والالهام ، ونثبت أن الوحى ينزل على أناس معينين ، من بينهم نبى الاسلام .

***

كان هذا موقف من يتصدى لنقد الفكر الحديث ، دون فهم موقفه من القضية . وهناك نوع آخر من علمائنا يدركون موقف الفكر الحديث من قضية الدين . ولكنهم ، لشدة تأثرهم بالفكر الحديث ، يرون أن كل ما توصل اليه أئمة الغرب يعد من (المسلمات العلمية) ، ومن ثم تقتصر بطولتهم على اثبات أن هذه النظريات ، التى سلم بها علماء الغرب ، هى نفس ما ورد فى القرآن الكريم ، وكتب الأحاديث الأخرى . وهذه الطريقة فى التطبيق والتوفيق بين الاسلام وغيره ، هى نفس الطريقة التى تتبعها شعوب الحضارات المقهورة تجاه الحضارات القاهرة . وأية نظرية تقدم على هذا النحو ، يمكنها أن تكون تابعة ، ولكنها لا يمكن أن تكون رائدة ! ولو خيل الى أحدنا أنه يستطيع أن يغير مجال الفكر فى العالم بمثل هذه المحاولات التوفيقية ، ليشرق على البشرية نور الحق،فهوهائم ولا شك فى عالم خيالى ، لا يمت الى الحقائق بسبب . فان تغيير الأفكار والمعتقدات لا يأتى من طريق التلفيق ، بل عن طريق الثورة الفكرية .

وهذه الحالة تورطنا بصورة أكبر عندما تتعلق المسألة بجانب أساسى وهام من أفكار الدين ، فلا بأس بأن يقوم أحدنا بتفسير جديد لظاهرة « الشهاب الثاقب » التى وردت فى القرآن ، حين يجد كشفا جديدا فى علم الفلك الحديث ، ولكننا لو قبلنا نظرية كلية شاملة ، وذات علاقة بالمشكلات الأخرى التى تثار حول الدين ، فسوف يكون لذلك تأثير عميق وكلى فى هيكل الفلسفة الدينية نفسه .

واوضح مثال فى هذا ، هو تلك الجماعة من علمائنا الذين قبلوا « نظرية النشوء والارتقاء » ، لأن علماء الغرب أعلنوا اقتناعهم الكامل بصدقها ، بعد دراساتهم ومشاهداتهم .. واضطروا ، بناء على هذا ، الى تفسير جديد للاسلام فى ضوء النظرية الجديدة ، وحين احتاجوا الى لباس جديد ، قاموا بتفصيل ثوب الاسلام مرة أخرى ، ولكنه ثوب مشوه المعالم، لا أثر فيه من روح الاسلام ، التى ضاعت مع الأجزاء المقطعة فى عملية التلفيق الجديدة .

ان نظرية النشوء والارتقاء تستهدف اقرار فكرة التطور بصفة مستمرة بحيث تبلغ الحياة أوجها عند النهاية . وبناء على هذا : لابد من أن تحدث الأحوال السيئة فى الماضى ، لا فى المستقبل . ويروق لهذه النظرية حياة الخلود فى الجنة ، ولكنها لا تقبل الخلود فى نار الجحيم . ولذا ، ادعى العلماء المسلمون ، الذين قبلوا هذه النظرية ، أن الجحيم ليست مكانا للعذاب ، وانما هى مركز للتربية والتزكية . فالحياة تواصل مسيرتها فى مواجهة الصعاب والمشكلات . والذين لم يستطيعوا مواصلة مسيرتهم بسبب عوائق الذنوب ، سوف يمرون بأحوال الجحيم الصعبة ، حتى يواصلوا رحلتهم التطورية خلال الحياة القادمة . ومن هنا ترى هذه الطائفة أن قوانين الملكية — مثلا — فى الاسلام ، ليست الا « أحكاما مؤقتة » ، فان هذه القوانين لا تتفق ونظرية التطور الاجتماعى .

ويمكن فهم نوعية الأعمال التى قام‌بها بعض علمائنا من المثالين المذكورين، فهى أعمال ناقصة ، رغم الجهود التى بذلت فى صوغها . ولا يدعى المؤلف أن محاولته تخلو من النقائص . ولكنه يقول : ان المحرك الحقيقى لمحاولته هو شعوره بأن عملا من هذا القبيل كان لابد أن يكون .

* * *

ان الطريقة التى يتبعها الكتاب للدفاع عن الدين ذات وجهين : فكرية وتجريبية ، وبعبارة أخرى : فلسفية وعلمية ، ان صح التعبير . وقد راعى المؤلف الطريقة الثانية ، وهى التجريبية أو العلمية . والسبب فى ذلك أن مكتبتنا تزخر بمجلدات ضخمة من الكتب التى وضعت على المنهج الأول ، على حين يوجد نقص شديد فى الكتب من المنهج الثانى .

وأننى لأشعر بأن المضمار الفسيح الذى هيأته الدراسات العلمية الحديثة لاثبات الدين ، هو تصديق لمــا جاء فى القرآن ، فى سورة النمل : « وقل الحمد لله ، سيريكم آياته فتعرفونها » . وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الامكانات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة .

* * *

وهذا الكتاب ليس دراسة موضوعية ، بل هو دراسة ذاتية ، بناء على التقسيم الجديد للكتب . وهذا الواقع ، كما يرى العقل الحديث ، هو ، من تلقاء نفسه ، صوت ضد الكتاب ! فكيف يمكن الاعتماد على دراسة ذاتية ، قدمها عقل يستهدف اتجاها معينا ؟ وجوابا على هذا الاعتراض ، الذى قد يثار ، أنقل هنا عبارة للمستشرق النمسوى المسلم محمد أسد فى مقدمة أحد كتبه :

« ان هذا الكتاب لا يستهدف مسحا محايدا للمسائل بل هو عرض لقضية هى قضية الاسلام فى مواجهة الحضارة الغربية »(١) .

وعلى الرغم من الأحكام التى قدمها علم النفس حول امكان أن يكون المرء محايدا فى أبحاثه ، أو لا ـــ فأننى أسلم ـــ نظريا ـــ بأنه لابد لــكل مؤلف أن يبذل قصارى جهده ، لكى يكون محايدا ، من أجل الوصول الى نتيجة ما ، وهذا هو ما يقصده كل كاتب أمين . لكن هذا الكاتب نفسه ، عندما يجلس الى مكتبه ـــ فى الواقع ـــ لا نجده باحثا عن الحقيقة أثنــاء كتابته ، بل يكون قد توصل الى أحكام محددة المعالم .

وهناك طريقة أخرى ، هى أن يسرد المؤلف قصة بحثه بجميع مراحلها ، غير أن اعتبار مثل هذا الكتاب محايدا لا يعــدو أن يكون قناعا مزركشا تختبىء تحته أهداف المؤلف . فليس هناك من كاتب يبدأ دراسته عنــدما يبدأ الكتابة ، وانما هو يعرض نتائج بحثه فى كتابه . فالكتاب انما يكون ذاتيا أو موضوعيا ، بالنظر الى طريقة ترتيبه للموضوعات ، ولا علاقة لهذا الترتيب بحياد البحث أو موضوعيته .

* * *

لقد وردت كلمة « الدين » كثيرا فى هذا الكتاب ، وليس لأحد أن يغالط فى هـــذا الموضوع . فان الــكتاب يدور حول موضوع عام ، ولذلك كان

(١) Islam at the Crossroads, p. 6.

لاستعمال الكلمة العامة أهميته . أما ذهن المؤلف ، فانه لا يقصد بالكلمة شيئا وهميا . وانما يعنى (الدين) المعتمد عند الله تعالى الآن ، وهو دين الاسلام . وأنا حين أطالب مواطنا هنديا بمراعاة القانون ، فليس معنى ذلك أنه تكفيه مراعاة قانون ما ، أو أى جزء من دستور الهند ، وانما عليه مراعاة ذلك القانون الذى يعتبر دستور البلاد الرسمى . وهكذا ، فالمراد بالدين العملى اليوم هو الاسلام ، مع أنه من الممكن اطلاقه على أى شىء عرف فى التاريخ بذلك الاسم ، ولكن الدين الذى يجلب رضا الله تبارك وتعالى ، والذى يكفل لمعتنقيه نجاة الآخرة ، هو الاسلام لا غير .

* * *

لقد تعرضت لسؤال بعد محاضرة ، ألقيتها فى احدى الجامعات ، ذات مرة ، وكنت أشرت فى محاضرتى الى مقال لفرويد ، فوقف أستاذ فى علم النفس ، أثناء فترة الأسئلة ، وقال : « لقد أشرتم الى مقال لفرويد ، تأييدا لنظرية دينية ، على حين يعارض (فرويد) معارضة كاملة تلك النظرية التى تمثلونها » .

ومن الممكن اثارة هذا السؤال،حول هذا الكتاب،على نطاق أوسع .. فهناك اقتباسات كثيرة وردت فيه ، ومن الجائز الا يوافق أصحابها على النتائج التى توصلت اليها . وعلى سبيل المثال : الاقتباس الذى ورد فى آخر الباب الخامس « دليل الآخرة » . ولكن هذا الاعتراض غير ذى موضوع ، لأن المؤلف لا يدعى أن هذه الشخصيات تؤيد قضاياه .. وبكلمة أخرى ، لم يقل المؤلف : ان هذه القضية ، أو تلك ، صادقة لأن فلانا يصدقها أو يؤيدها . وعلى العكس من ذلك ، فان جميع هذه الاقتباسات قد استعملت توضيحا لدليل أو قضية ، فقد يعبر المؤلف عن قضية معينة بألفاظه تارة ، وقد يستعير الفاظ الآخرين حتى يتبين الموضوع، تارة أخرى .

والاتجاهات التى تمثلها هذه الاقتباسات ليست بآراء ذاتية لأصحابها، وانما هى كشوف علمية ، يمنحها الملحدون معانى مختلفة . أما نحن فقد جمعناها حين شعرنا أنها فى صالح الدين . وأما الاقتباسات التى تؤيد الدين صراحة ، فأكثرها لعلماء يدينون بالمسيحية ، ولا عجب ، فهم يشاركوننا فى كثير من العقائد السماوية .

* * *

وواضح من عنوان الكتاب ، أنه يهدف الى اثبات أحقية الدين أمام الفكر المادى الجديد . وهذا الاثبات يتخذ لنفسه أسلوبين : أولهما : أن نستدل بأن الدين ليس (ماديا) ، بل فوق المادة ، وبناء على ذلك ليس للعلوم المادية أن تعترض طريق الدين . وقد أصبح هذا الاستدلال فى غاية القوة ، حيث أن العلماء قد اعترفوا فى هذا القرن : « بأن العلوم المادية لا تعطى الا علما جزئيا عن الحقائق » . ومغزاه أنه ، بناء على اعتراف هذه العلوم نفسها ، هناك حقائق أخرى ، لا تستطيع العلوم المادية الوصول اليها ، ومنها حقائق الدين . ويعتبر كتاب « ج.و.ن. سوليفان » خير محاولة فى هذا الموضوع ، وسوف نستعرضه فى الباب السابع من هذا الكتاب .

وأما الطريقة الأخرى لاثبات حقائق الدين ، فهى اتباع نفس الطـرق العلمية التى يتبعها العلماء الملحدون لاثبات معتقداتهم . وقد ركز المؤلف أهمية أكثر على هذا الجانب .. فهو يرى : أنه لابد من اتباع نفس أساليب الاستدلال التى يستغلها الملحدون ، حتى يمكن اثبات حقية الدين .

* * *

وهناك ناحية أخرى لابـد من توضيحها هى أن الأسلوب الذى سلكه الكتاب قد يكون غريبا على بعض الأذهان ، من علماء الدين . واذا كان الأمر كذلك . فانى أقول : أنه لابد من مراعاة حقيقـة ، هى أن هـذا الكتاب لا يستهدف تفسير الدين ، بل هو وليد ضرورة كلامية ، فالأسلوب الذى يسلك عند تفسير الدين أمام أصحاب الفطر الدينية المؤمنة ، غير الأسلوب الذى يستخدم عندما يكون الحاضرون ممن يزعمون أن الدين خدعة وأضحوكة وتخدير للشعوب ، فكلما أردنا مواجهة الأسئلة التى تثار ضد الدين ، كان لابد من تغيير لهجتنا ولغتنا ، بتلك التى يستغلها الأعداء ، حتى نستطيع أن نقف أمام العواصف . وعلينا ألا ننسى أن طريقة الكلام وأسلوبه قد تغيرا بتغير الزمن ، ولذلك علينـا أن نأتى بعلم كلام جديد لمواجهة تحدى العصر الحديث .

* * *

وقبل أن أختم هذا الحديث أرى لزاما على أن أعترف بجميل زميلين من الرفاق — مهديا اليهما هذا الكتاب — وهما من الشخصيات اللامعة التى عرفت بخدمة الاسلام فى الربع الأخير من هذا القرن .. وهما : مولانا أبو الأعلى المودودى ، ومولانا السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى. فالفضل يرجع الى الأستاذ المودودى فى أنه كان المحرك الذى حثنى — بطريقة غير مباشرة — على أن أضحى بحياتى لخدمة الاسلام منذ خمسة عشر عاما ، فى أدق مرحلة من مراحل حياتى .. وأما الأستاذ النـدوى فهو الذى حملنى على القيام بهذا العمل . فجزاهما الله خير جزاء .

لكناؤ

وحيد الدين خان

فى ٢٦ أغسطس ١٩٦٤

الباب الأول

قضية معارضى الدين

« تعتبر التطورات العلمية التى حدثت فى القرن الماضى « انفجارا معرفيا » Knowledge Explosion فى وجه جميع الأساطير الانسانية عن الآلهة والدين كما تفجرت الأفكار القديمة عن المادة ونسفت بمجرد تفجير الذرة » .. هذه هى قضية العلم الحديث الموجهة الى الدين كما يقول البروفيسور جوليان هكسلى(١) . وتعتبر الصفحات التالية ردا على هذا التحدى ، فلقد كشفت أضواء العلم الحديث عن حقائق الدين ، ولم تنجح من أية ناحية فى الاساءة اليه . بل ان جميع ما وصل أو سيصل اليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق لما اسماه الاسلام : « بالحقيقة الأخيرة» قبل أربعة عشر قرنا من الزمان :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »(٢) .

* * *

والدين ، كما يزعم الملحدون من العلماء : شىء لا حقيقة له ، وهو مظهر للغريزة الانسانية الباحثة عن حقائق الكون ، والتى تحاول تفسيره. ان هذه الغريزة الانسانية فى ذاتها شىء مستحسن ، ولكن المعلومات والوسائل المحدودة قد انتهت بأجدادنا الى اجابات غير صحيحة ، وهى التى تحتويها الآن أفكارهم عن الاله والدين . أما اليوم ، وبعد ما توفرت لدينا الوسائل العلمية . وأصلحت المعلومات الحديثة شيئا كثيرا من معتقداتنا الاجتماعية والحضارية ، فقد حان الوقت لنعيد النظر فى جميع ما وصل اليه أجدادنا من أفكار .

* * *

ويذهب الفيلسوف الفرنسى « أوجست كونت » — الذى نشأ فى النصف الأول من القرن التاسع عشر — الى أن تاريخ تطور الفكر الانسانى ينقسم الى ثلاث مراحل :

الأولى : المرحلة اللاهوتية (Theological Stage) وهى التى فسرت الأحداث فيها باسم الاله .

والثانية : المرحلة الميتافيزيقية : وفيها فسر الانسان الأحداث باسم « عناصر خارجية » لا يعلمها ، ولكنه لا يذكر اسم الاله .

---

(١) Hindustan Times, Sunday Magazine, Sept. 24, 1961.

(٢) فصلت / ٥٣ .

والثالثة : المرحلة الوضعية (Positive Stage) ، التى أخذ الانسان يفسر فيها الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة ، يمكن ادراكها بالمطالعة ، أو بالمشاهدة العلمية . وفى هذه المرحلة لا تذكر « الأرواح والآلهة والقوى المطلقة » . ونحن ، بناء على هذا ، نعيش فى المرحلة الثالثة التى تسمى فى الفلسفة الحديثة بالوضعية المنطقية (Logical Positivism). ان نظرية « الوضعية المنطقية » أو التجريبية العلمية (Scientific Empiricism) لم تعرف كحركة علمية عالمية الا خلال العقد الرابع من القرن الحاضر ، ولكنها ، كفكرة ، نشأت قبل ذلك بسنين طويلة . وعلى ظهر هذه الفكرة نجد أسماء كبار العلماء والفلاسفة من أمثال : هيوم ، وميل ، الى برتراندرسل ، وقد أصبحت هذه الفكرة اليوم ، بفضل العدد الكبير من المؤسسات العلمية التى تقوم بدور فعال فى الدعاية لها ، من أهم الحركات العلمية الحديثة . ويقول أحد الباحثين :

« كل معرفة حقة مرتبطة بالتجارب ، بحيث يمكن فحصها أو اثباتها ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة »(١) .

وبناء على هذا يدعى معارضو الدين أن التطور الذى بلغ به الانسان اليوم أعلى مستوى من الانسانية ، هو نفى للدين من تلقاء نفسه .. والسر فى ذلك أن الأفكار المتطورة الحديثة تؤكد أن « الحقيقة » ليست الا ما يمكن فحصه وتجربته علميا . وقد قام الدين على « حقيقة » لاسبيل الى مشاهدتها وفحصها علميا . وبعبارة أخرى : ان التفسير اللاهوتى للاحداث والوقائع لا يمكن اثباته بالوسائل العلمية ، فهو باطل لا حقيقة له. ويترتب على هذا القول بأن : « الدين تفسير زائف لوقائع حقيقية » ، ذلك أن علم الانسان القديم المحدود لم يقدم التفسير الحقيقى للاحداث ، على حين أن القانون العام للتطور أتاح لنا أن نبحث عن الحقائق بالوسائل التجريبية الصحيحة .

ويمكن أن نقول هذا الكلام بأسلوب آخر : ان موقف علماء الأديان القديمة أشبه برجل يكتب « شيكا لا رصيد له فى المصرف » ، فهم قد صاغوا عبارات ليس وراءها حقائق علمية ، فعبارة (الحقيقة العليا غير المتغيرة) صحيحة نحوا ، ولكن ليس لها أى أساس علمى(٢) .

« لقد أثبت (نيوتن) انه لا وجود لاله يحكم النجوم . وأكد (لابلاس) بفكرته الشهيرة أن النظام الفلكى لا يحتاج الى أى أسطورة لاهوتية . وقام بهذا الدور العالمان العظيمان (دارون) و (باستور) فى ميدان البيولوجيا . وقد ذهب كل من علم النفس المتطور والمعلومات التاريخية الثمينة التى حصلناها فى هذا القرن بمكان الاله ، الذى كان مفروضا أنه هو مدير شئون الحياة الانسانية والتاريخ »(٣) .

لقد قامت قضية معارضى الدين على أسس ثلاثة :

---

(١) Dictionary of Philosophy, N.Y., p. 285.

(٢) Religion and the Scientific Outlook, p. 20.

(٣) Religion Without Revelation, N.Y., 1958, p. 58.

الأساس الأول : بطل هذا الانقلاب فى البيولوجيـا هو (نيوتن) ، الذى عرض على الدنيا فكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة ، تتحرك فى نطاقها الأجرام السماوية . ثم جاء بعده آخرون فأعطوا هذه الفكرة مجالا علميا أوسع ، حتى قيل : ان كل ما يحدث فى الكون من الأرض الى السماء خاضـع لقانون معلوم ، سموه « قانون الطبيعـة » . فلم يبق للعلماء ما يقولون ، بعد هذا الكشف ، غير أن الاله كان هو المحرك الأول لهذا الكون . وضرب (والتير) مثلا فى هذا الصدد : أن الكون كالساعة يرتب صانعها آلاتها الدقيقة فى هيئة خاصة ويحركها ، ثم تنقطع صلته بهـا . ثم جاء (هيوم) فتخلص من هذا الاله الميت ، وعلى حد قوله : « لقـد رأينا الساعات وهى تصنع فى المصانع ، ولكننا لم نر الكون وهو يصنع ، فكيف نسلم بأن له صانعا » ؟

* * *

لقد جلى التطور العلمى للانسان كثيرا من سلسلة الأحـداث التى لم يشاهدها من قبل.فهو لم يكن على علم بأسباب شروق الشمس وغروبها ، حتى زعم أن هناك قوة فوق الطبيعة تجعلها تشرق وتغرب . وما قـد عرفنـا اليوم أن شروق الشمس وغروبها يحـدث لدوران الأرض حول نفسها ، وبذلك انتهت ضرورة القول بهذه الطاقة تلقائيا ، بعـدما عرفنا الأسباب المؤدية الى هذه الحركة الكونية . « فاذا كان قوس قزح مظهرا لانكسار أشعة الشمس على المطر ، فماذا يدعونا الى القول بأنها آية الله فى السماء » .

من أجل هذا كله ، وغيره ، قال هكسلى :

« اذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغى أن ننسبها الى أسباب فوق الطبيعة »(١) .

* * *

والأساس الثانى : وقد ازداد العلماء يقينا بعد البحوث العلمية فى ميدان علم النفس ، حـين توصلوا الى نتائج تثبت أن الـدين نتاج اللاشعور الانسانى ، وليس انكشافا لواقع خارجى . ويقول عالم كبـير من علماء النفس :

«God is nothing but a projection of man on a cosmic screen»

« ليس الاله سوى انعكاس للشخصية الانسانية على شاشة الكون » . وما عقيدة الدنيا والآخرة الا صورة مثالية للامانى الانسانية ، وما الوحى والالهام الا اظهار غير عادى لأساطير الأطفال المكبوتة .
(Childhood Repression) (٢) .

* * *

ويرى علم النفس الحديث أن العقل الانسانى مركب من شيئين هما : (الشعور) ، وهو مركز الأفكار التى تخطر على قلوبنا فى ظروف عادية ،

---

(١) Religion Without Revelation, N.Y., 1958, p. 58.

(٢) Iqbal Review, April, 1962.

و (اللاشعور) وهو مخزن الأفكار التى مرت بنا ونسيناها ، ولا تظهر الا فى أحوال غير عادية ، كالجنون والهستيريا . وهذا القسم الثانى أكبر بكثير من الأول . ويمكن أن نمثل لهما بجبل من الجليد ، فلو قسمناه تسعة أجزاء لكان منها ثمانية فى جوف البحر ، ولظهر جزء واحد على السطح .

اكتشف فرويد بعد جهد طويل أن اللاشعور قد يقبل أفكارا فى الطفولة، وتؤدى الى أعمال غير عقلية ، وهـذا ما يحدث بالنسبة الى العقـائد الدينية : فان فكرة الجحيم والجنة ترجع الى صدى الأمانى التى تنشأ لدى الانسان ابان طفولته ، ولكن لم تسنح له الفرصة لتحقيقها ، فتبقى دفينة فى اللاشعور ، ثم يفـرض اللاشعور بدوره حياة أخرى يتيسر له فيهـا تحصيل ما كان يتمناه . شأن الرجل الذى قد لا يظفر بما يحب فى الواقع فيحصله فى المنام . وهـكذا خرجت عقدة التفرقة بـين الصغير والكبير (Father complex) — من الجرائم الاجتماعية ، فصاغوا منها نظرية على مستوى الكون والسماء .

ويقول رالف لنتون :

« ان عقيـدة القادر المطلق الظالم فى نهاية الأمر ، الذى لا يرضى الا بالطاعة الكاملة والوفاء ، كانت أول ما أنتجه نظام المجتمع السامى . لقد خلق هذا النظام جبروتا غير عادى . وكانت نتيجته أن شريعة موسى خرجت بقوائم ضخمة مفصلة عن المحرمات فى كل مجال من الحياة الانسانية . وقد آمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين كانوا يتقبلون أحكام آبائهم العمياء ويطيعونها . وما التصور الالهى (اليهودى) الا خيال مثـالى لأب سامى . مع شىء من المبالغـةوالتجريد فى الأوصاف والطاقات »(١) .

والأساس الثالث : لقضية معارضى الدين هو : (التاريخ) يقولون : ان القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالانسان ، فلم يكن فى استطاعته أن يفلت من السـهول والأعاصير والطوفانات والـزلازل والأمراض ، فأوجد (قوى فرضية)يستغيثها ، لتنقذه من البلايا النازلة . وهكذا ظهـرت الحاجة الى شىء يجتمع الناس حوله ، ولا يتفـرقون ، فاستغل اسم (الاله) الذى تفوق قوته قوة الانسان ، ويهرع الجميع الى رضـاه) .

يقول محرر دائرة معارف العلوم الاجتماعية تحت اسم « الدين » .

« وبجانب المؤثرات الأخرى التى ساعدت فى خلق الدين . فان اسهام الأحوال السياسية والمدنية عظيم جدا فى هذا المجال . ان الأسماء الالهية وصفاتها خرجت من الأحوال التى كانت تسود على ظهر الأرض . فعقيدة كون الاله « الملك الأكبر » صورة أخرى للملكية الانسانية ، كذلك الملكية السماوية صورة طبق الأصل للملكية الأرضية . وكان الملك الأرضى القاضى الأكبر ، فأصبح الاله يحمل هذه الصفات ، ولقب « بالقاضى الأكبر الأخير » الذى يجازى الانسان على الخير والشر من أعماله . وهذه العقيدة القضائية التى تؤمن بكون الاله محاسبا ومجازيا لا توجد فى اليهودية فحسب ، وانما لها مقامها الأساسى فى العقائد الدينية ، المسيحية والاسلامية »(٢) .

---

(١) Tree of Culture, Ralph Linton.

(٢) Encyclopaedia of Social Sciences, 1957, Vol. 13, p. 233

« لقد خلق العقل الانسانى الدين ، وأتم خلقه ، فى حالة جهل الانسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية » . ويضيف جوليان هكسلى الى هذا قوله :

« فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الانسان وبيئته »(١) . ويقول أيضا :

«ان هذه البيئة قد فات أوانها أو كاد ، وقد كانت هى المسئولة عن هذا التعامل ، فأما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها فلا داعى للدين » ، ويضيف : « لقد انتهت العقيدة الالهية الى آخر نقطة تفيدنا ، وهى لاتستطيع أن تقبل الآن أية تطورات ، لقد اخترع الانسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين ، جاء بالسحر ، ثم بالعمليات الروحية ، ثم بالعقيدة الالهية ، حتى اخترع فكرة (الاله الواحد) . وقد وصل الدين بهذه التطورات الى آخر مراحل حياته . ولاشك أن هذه العقائد كانت فى وقت ما جزءا مفيدا من حضارتنا ، بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها، ومدى افادتها للمجتمع الحاضر المتطور »(٢) .

* * *

وترى الفلسفة الشيوعية أن الدين « خدعة تاريخية » ، وهى تركز الأسباب فى عوامل اقتصادية ، لأنها تنظر الى التاريخ فى ضوء الاقتصاد. وهى ترى أن العوامل التاريخية التى خلقت الدين هى النظام البورجوازى الاستعمارى القديم . وهذا النظام القديم يلقى اليوم حتفه . فلندع الدين أيضا يذهب معه .

يقول فيلسوف الشيوعية انجلز :

« ان كل القيم الأخلاقية هى فى تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية »(٣) .

فالتاريخ الانسانى هو تاريخ حروب الطبقات التى امتص فيها البورجوازيون دماء الفقراء ، وقد كانت الغاية من وضع الدين والأسس الأخلاقية حماية حقوق البورجوازيين .

ويقول البيان الشيوعى : (Communist Menifesto) :

« ان الدستور والأخلاق والدين كلها خدعة البورجوازية ، وهى تتستر وراءها من أجل مطامعها » .

ويقول لينين فى خطاب له القاه فى المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعى فى أكتوبر سنة ١٩٢٠ :

« اننا لا نؤمن بالاله ، ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والاقطاعيين والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الاله الا استغلالا ،ومحافظة على مصالحهم . اننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التى صدرت عن طاقات وراء الطبيعة ، غير الانسان ، والتى لا تتفق مع أفكارنا الطبقية،

---

(١) Man in the Modern World, p. 130.

(٢) Ibid. p. 131.

(٣) Anti Duhring, Moscow, 1954, p. 131.

ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال ، لصالح الاستعمار والاقطاع ، ونعلن أن نظامنا لا يتبع الا ثمرة النضال البروليتارى ، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية »(١) .

كانت هذه هى قضية معارضى الدين ، التى يزعم بعض العلماء الجدد بناء عليها ما يمكن تلخيصه فى كلمة أستاذ أمريكى فى طب الأعضاء :

«Science has shown religion to be history's crueliest and wickediest hoax.»

« لقد أثبت العلم أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة فى التاريخ »(٢) .

ولسوف ننظر فى مدى صحة هذه القضية على أسس علمية فى الباب الآتى ، ان شاء الله .



(١) Lenin, Selected Works, Moscow, 1947, Vol. II, p. 667.

(٢) Quoted by CA Coulson, Science & Christian belief, p. 4.

الباب الثانى

نقد قضية المعارضين

عرضنا فى الباب الأول قضية المعارضين ، الذين يزعمون أنه لا داعى لأن يبقى الدين فى عصرنا الحاضر . والحقيقة أن هذه القضية لا تقوم على أساس ، ولسوف نتناول فى الأبواب الآتية ، أفكار الدين الأساسية ، واحدة واحدة ، لننظر فى مدى حقيتها ، كما كانت قبل العصر الحديث .

واليكم نقدا عاما لقضية المعارضين :

أولا ــ حقيقة الطبيعـــة :.

لنتكلم أولا فى الدليل الذى يعرض باسم البيولوجيا ، وهو أن الحوادث تحدث طبقا (لقانون الطبيعة) فلا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث الها مجهولا . ان أحسن ما قيل فى هذا الصدد ما قاله عالم مسيحى :
«Nature is A Fact, Not An Explanation.»

« ان الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيرا (له) » . لأن ما كشفتم ليس بيانا لأسباب وجود الدين ، فالدين يبين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التى تدور « وراء الكون » وما كشفتموه هو الهيكل الظاهر للكون . ان العلم الحديث تفصيل لما يحدث ، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع ، فكل مضمون العلم هو اجابة عن السؤال : « ما هذا ؟ » ، وليس لديه اجابة عن السؤال : « ولكن لماذا ؟ » . وأن التفسير الذى نحن بصدده هنا يتعلق بالأمر الثانى .

* * *

لنفهم هذا من مثال بسيط . فالكتكوت يعيش أيامه الأولى ، داخل قشرة البيضة القوية ، ويخرج منها بعد ما تنكسر مضغة لحم ، كان الانسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه . ولكنا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه فى اليوم الحادى والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت ، يستعمله فى تكسير البيضة ، لينطلق خارجا منها ، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة .

هذه المشاهدة ، كما يزعم المعارضون ، ابطلت الفكرة القديمة القائلة : بأن الاله يخرج الكتكوت من البيضة ، اذ قد رأينا يقينا أن قانونا لواحد وعشرين يوما يحدث هذه العملية . والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لاتدلنا الا على حلقات جديدة للحادث ، ولا تكشف عن سببه الحقيقى ، فقد تغير

الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن تكسر البيضة ، بل عن (القرن) ؟ ان السبب الحقيقى سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التى جاءت بهذا القرن ، العلة التى كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج الى هذا القرن ليخرج من البيضة ، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) الا أنه « مشاهدة للواقع على نطاق أوسع » ، ولكنه ليس تفسيرا له .

يقول البروفسور (سيسيل بايس هامان) ، وهو أستاذ أمريكى فى البيولوجيا :

« كانت العملية المدهشة فى صيرورة الغذاء جزءا من البدن تنسب من قبل الى الاله ، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيماويا ، هل أبطل هذا وجود الاله ؟ فما القوة التى أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلا مفيدا .. ؟ ان الغذاء بعد دخوله فى الجسم الانسانى يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتى ، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض . فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التى خلق بها الحياة »(١) .

كان الانسان القديم يعرف أن السماء تمطر ، لكننا اليوم نعرف كل شىء عن عملية تبخر الماء فى البحر ، حتى نزول قطرات الماء على الأرض ، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع ، وليست فى ذاتها تفسيرا لها ، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين ؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة ، حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية ؟ والحقيقة أن ادعاء الانسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون — ليس سوى خدعة لنفسه ، فانه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة .

ويضيف العالم الأمريكى سيسيل قائلا :

«Nature does not explain, she is herself in need of explanation.»

« ان الطبيعة لا تفسر شيئا (من الكون) ، وانما هى نفسها بحاجة الى تفسير » .

فلو أنك سألت طبيبا : ما السبب وراء احمرار الدم ؟

لأجاب : لأن فى الدم خلايا حمراء ، حجم كل خلية منها $\frac{١}{٧٠٠}$ من البوصة!

— حسنا ، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء ؟

— فى هذه الخلايا مادة تسمى (الهميوجلوبين) وهى مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأوكسجين فى القلب .

— هذا جميل . ولكن من أين تأتى هذه الخلايا التى تحمل الهميوجلوبين؟

— انها تصنع فى كبدك .

---

(١) The Evidence of God in an Expounding Universe, p. 221.

— عجيب ! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها ، بعضها ببعض ارتباطا كليا ، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة ؟

— هذا ما نسميه بقانون الطبيعة .

— ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا ، يا سيدى الطبيب ؟

— المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية .

ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائما الى نتيجة معلومة ؟ وكيف تنظم نشاطها ، حتى تطير الطيور فى الهواء ، ويعيش السمك فى الماء ، ويوجد انسان فى الدنيا ، بجميع ما لديه من الامكانات والكفاءات العجيبة المثيرة؟

— لا تسألنى عن هذا ، فان علمى لا يتكلم الا عن : (ما يحدث) ، وليس له أن يجيب :(لماذا يحدث ؟) .

يتضح من هـذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون . ولا شك أنه قد أبان لنا عن كثير من الأشياء التى لم نكن على معرفة بها ، ولكن الدين جواب لسؤال آخر ، لا يتعلق بهذه الكشوف الحديثة العلمية،فلو أن هذه الكشوف زادت مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الانسانية بحاجة الى الدين،أن جميع هذه الكشوف«حلقات ثمينة من السلسلة»،ولكن ما يحل محل الدين لابد أن يشرح الكون شرحا كليا وكاملا . فما الكون على حاله هذا الا كمثل ماكينة تدور تحت غطائها ، لا نعلم عنها الا انها (تدور) ، ولكنا لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر وتروس كثيرة ، يدور بعضها ببعض ، ونشاهد حركاتها كلها . هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه الماكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلها ؟ هل يفهم منطقيا أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الماكينة جاءت من تلقاء ذاتها ، وتقوم بدورها ذاتيا ؟ لو لم يكن هذا الاستدلال منطقيا فكيف اذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون — أنه جاء تلقائيا، ويتحرك ذاتيا ؟ . . .

لقد استغل البروفيسور هريز(A. Harris) هذا الاستدلال حين نقد فكرة داروين عن النشوء والارتقاء ، فقال :

« ان الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعى يفسر عملية (بقاء الأصلح) ، ولكنه لا يستطيع أن يفسر حدوث هذا الاصلح(١) » .

ثانيا : اللاشعور ودليل علم النفس :

لنعالج الآن الدليل الذى يقدمه علم النفس والقائل بأن الاله والآخرة قياس للشخصية الانسانية وأمانيها على مستوى الكون . ولست بمستطيع أن ادرك نقطة الاستدلال فى هذا الدليل . ولو أننى ادعيت — بدورى — أن الشخصية الانسانية وأمانيها موجودة فعلا على مستوى الكون فلست ادرى ما عسى أن يبطل ادعائى هذا من منطق المعارضين ؟ !

---

(1) Revolt against Reason, A. Lunn, p. 133.

نحن نعرف أن مادة (الجنين) التى لا تشاهد الا بالمنظار تنبىء فى ذاتها عن انسان طوله ٧٢ بوصة ، وأن (الذرة) التى لا تقبل المشاهدة تحتوى نظاما رياضيا كونيا يدور عليه النظام الشمسى ، فلا عجب اذن أن يكون النظام الذى نشاهده على مستوى الانسان فى الجنين ، وعلى مستوى النظام الشمسى فى الذرة موجودا أيضا ، وبصورة أكمل على مستوى الكون . ان ضمير الانسان وفطرته ينشدان عالما متطورا كاملا ، فلو كان هذا الأمل صدى لعالم حقيقى فلست أرى فى ذلك أى ضرب من ضروب الاستحالة !!

(ا) لا شك فى قول العلماء : ان الذهن الانسانى يحتفظ بأفكار قد تظهر فيما بعد فى صورة غير عادية . ولكن سوف يكون قياسا مع الفارق أن نعتمد على هذه الفكرة كى نبطل الدين . فهو قياس فى غير محله ، وهو يعتبر استدلالا غير عادى من واقع عادى . فهو أشبه بمن يشاهد مثالا يصنع صنما فيصرخ : هذا هو الذى قام بعملية خلق الانسان .

ومن معايب الفكر الحديث أنه يستنبط من حادث عادى دليلا غير عادى ، فهذا الدليل لا وزن له من الناحية المنطقية ، ولو افترضنا أن رجلا يسير فى شارع أخذ يهذى بكلام غريب نتيجة لأفكار مختزنة فى ذهنه ، فهل يمكن أن نستغل هذا الحادث فى البحث فى كلام الأنبياء ، وهو الكلام الذى يكشف سر هذا الكون ..؟؟ سوف يكون هذا الاستدلال غير علمى ، وغير منطقى ، ولسوف يدل على أن صاحبه يفتقر الى القيم حتى يستدابع التفرقة بين كلام رجل الشارع وكلام الأنبياء ، فلا يدعى أن هذا الهذيان هو المسئول عما جاء به الدين .

فالقيم تتغير ذاتيا بتغير الأوضاع ، ومن الخطأ الظن بأنها لاتوجد الا عند أصحاب الفكر الحديث .

ولنتخيل أن رهطا من سكان بعض النجوم هبط الأرض ، وهم يسمعون، ولكنهم لا يقدرون على الكلام ، ولنتصور أنهم يذهبون فيبحثون عن الأسباب المؤدية الى تكلم الانسان ، وبينما هم فى طريقهم الى هذا البحث هبت الرياح ، واحتك غصنان ، احدهما مع الآخر ، فنتج صوت ، وتكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح ، واذا بهم يعلن كبيرهم : لقد عرفنا سر كلام الانسان ، وهو أن فمه يحتوى على فكين من الأسنان ، فاذا احتك الفك الأعلى بالأسفل صوت ! ولا شك أنه اذا احتك شىء بالآخر يحدث صوتا ، ولكن هذا الواقع لا يكشف عن سر الكلام الانسانى ، كما لا يصح تفسير أسرار النبوة بكلام غريب — كهذيان رجل الشارع ، فى حال الجنون أو الهستيريا .

(ب) واللاشعور الانسانى — من الوجهة العلمية — فراغ فى أصله ، لا شىء فيه قبل مولد الانسان ، وانما يستقر فيه عن طريق الشعور ما يشغله الآن ، لأن (اللاشعور) ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التى شاهدها الانسان فى حياته ، ولو مرة ، ومن المستحيل أن يختزن حقائق لم يعلمها من قبل . والذى يثير الدهشة أن الدين الذى جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال احد من الناس فى أى زمان ، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات ، فمن أين يأتى بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم الى العلم بها ؟

ان الدين الذى جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة — الطبيعة ، والفلك ، وعلم الحياة ، وعلم الانسان ، وعلم النفس ، والتاريخ والحضارة والسياسة والاجتماع وغيرها من العلوم ، وكل حديث فى التاريخ الانسانى مصدره (الشعور) ، فضلا عن اللاشعور ، لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة . أما الكلام النبوى فانه برىء ولاشك من كل هذه العيوب ، رغم اتصاله بجميع العلوم ، ولقد مرت قرون أثر قرون ، أبطل فيها الآخرون ما ادعاه الأولون ، ومازال صدق كلام النبوة باقيا على الزمان ، ولم يستطع أحد أن يدل على باطل جاء به ، وكل من حاول ذلك أخفق .

واليكم مثالا من هذا القبيل اعتمد عليه فلكى كبير ، حتى ادعى أنه كشف غلطة علمية فى القرآن الكريم .

يقول (جيمز هنرى بريستد) :

« لقد راج التقويم القمرى فى الدنيا لكثرة تداوله فى غرب آسيا ، ولغلبة الاسلام سياسيا بوجه خاص ولقد مضى محمد (صلى الله عليه وسلم) بالاختلاف بين التقويم القمرى والشمسى الى أقصى حد من العبث يمكن تصوره ، حتى أنه أبطل اضافة الشهور الكبيسة (Intercalary months) ان السنة القمرية المزعومة تشتمل على ٣٥٤ يوما ، وتقل أحد عشر يوما عن السنة الشمسية . وهكذا تزيد السنة القمرية سنة واحدة كل ٣٣ سنة ، وثلاث سنين فى كل قرن فلو حل رمضان فى يونيو فى هذه السنة فسوف يحل بعد ست سنين فى أبريل » .

لقد مضى ١٣١٣ عاما منذ (١) الهجرة ، حيث ان قرننا (الميلادى) هو بمثابة مائة سنة وثلاث سنين فى تقويم المسلمين ، وقد سجل تقويمهم واحدا وأربعين عاما زائدا فى هذه المدة من قرننا . وقد الغت كنيسة اليهود الشرقية هذه السخافة واختارت طريقة اضافة الشهور (Intercalation) لتجعل تقويمها مثل التقويم الشمسى ، وهذا هو السبب فى أن غرب آسيا يعانى حتى الآن لعنة هذه الطريقة القديمة — التقويم القمرى(٢) » .

لسنا هنا بصدد مناقشة الفرق بين التقويم القمرى والشمسى ، ولكن لابد من توضيح أن ما نسبه المؤلف الى رسول الاسلام هو فى الحقيقة غفلة شديدة ترجع الى المؤلف نفسه ، ولم يمنع القرآن الكريم اضافة (الشهور الكبيسة) ، وانما حرم النسىء (التوبة : ٣٨) ، ومعناه فى اللغة : (التأخير) ، ومنه : (نسأ الدابة) عن الحوض لكى تشرب الأخرى ، ومعناه فى الاصطلاح : (تأخير شهر وتقديم شهر آخر عليه) .

لقد كان من بين العادات الكريمة التى دعا اليها ابراهيم عليه السلام العرب تحريم أربعة أشهر لا قتال فيها ولا جدال ، وهى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وقد كان العرب يسافرون فى هذه الأشهر بكل حرية ، لكى يؤدوا فريضة الحج والعمرة . وحين دب الفساد فى بعض القبائل ، اخترعوا بدعة (النسىء) ، وهى أن يضعوا شهرا غير حرام محل

---

(١) كان ذلك فى عام ١٩٣٥ م .
(٢) Time and its Mysteries, N.Y., 1962, p. 56.

الشهر الحرام ، كأن يجعلوا صفر فى مكان المحرم ، وذلك لكى يحاربوا قبيلة يلزم قتالها فى الشهر الحرام . وهذه هى البدعة المقيتة التى وصفها القرآن الكريم بأنها : (زيادة فى الكفر) .

وقال العلماء : ان الشهور الكبيسة كانت رائجة فى العرب ، وكانوا يضيفون عدد الشهور فى السنة للتقويم .

وقال مفسر للقرآن الكريم فى هذا الموضوع ، وهو مولانا شبير احمد العثمانى فى تفسيره :

« ان بعض القبائل تضيف الشهور الكبيسة كل ثلاثة أعوام ليستقيم التقويم القمرى ، ولا يدخل هذا العمل فى النسىء) .

ان ما قاله رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم فى عهد الظلام لم يكن من الجهالة ، ولا يدخل قطعا فى نطاق ما أورده (جيمز هنرى بريستد) طعنا عليه ، ولو كان كلامه صلى الله عليه وسلم صادرا عن الشعور أو اللاشعور لوقعت فيه أخطاء ، ما من ذلك بد .

* * *

ثالثا : الاستدلال بالتاريخ والاجتماع :

ان الذين يستدلون بالتاريخ أو الاجتماع خطؤهم الأساسى أنهم لا يدرسون الدين من وجه صحيح ، ولهذا يبدو لهم الدين شيئا غريبا ، ومثال ذلك أن ترى شيئا مربعا من زاوية منحرفة فيتراءى لك مثلثا . ان الخطأ الذى يقعون فيه هو أنهم يتناولون الدين على أنه « مشكلة موضوعية Objective Problem» فهم يجمعون فى سلة واحدة كل ما أطلق عليه اسم (الدين) ، من رطب ويابس، فى أى مرحلة من التاريخ ، ثم يتأملون فى ضوء هذا المحصول حقيقة الدين !! ان موقفهم ينحرف من أولى مراحله ، فيبدو لهم الدين — جراء هذا الموقف الفاسد — عملا اجتماعيا ، لا كشفا لحقيقة ، ومن المعلوم أن لكل ما يكشف عن حقيقة من الحقائق مثلا أعلى ، ولا بد عند البحث عن هذه الحقائق أن ندرس مظاهرها وتاريخها فى ضوء مثله الأعلى . أما الأمور التى تأتى بها أعمال اجتماعية فليس لها مثل أعلى . وبقاؤها رهن بحاجة المجتمع اليها .

والدين يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فليس من الممكن البحث عن حقائقه ، كما يبحث عن تطورات فنون العمارة والنسيج والحياكة والسيارات ، لأن الدين علم على حقيقة يقبلها المجتمع أو يرفضها ، أو يقبلها فى شكل ناقص ، ويبقى الدين فى جميع هذه الأحوال حقيقة واحدة فى ذاتها ، وانما يختلف فى أشكاله المقبولة ، ولهذا لا يمكن أن نفهم حقائق (الدين) بمجرد فهرسة مماثلة لجميع الأشكال الموجودة فى المجتمعات باسم الدين .

ولنأخذ — على سبيل المثال — لفظ (الجمهورية) . فهى قيمة سياسية لنظام خاص بالحكم ، وفى ضوء هذه القيمة نستطيع أن نحكم على بلاد بأنها جمهورية ، أو بأنها ليست كذلك . لكنا لو ذهبنا نبحث عن معانى (الجمهورية) فى النماذج السياسية التى توجد عبر القارات ، ويلتصق بها لفظ (الجمهورية) ، ثم زعمنا أن كل هذه البلاد قائمة (على أسس جمهورية).

فسوف تصبح كلمة « الجمهورية » بلا معنى . ففى هذه الحالة ستختلف (جمهورية) الصين عن (جمهورية) الولايات المتحدة الامريكية ، وستعارض (جمهورية) انجلترا (الجمهورية) العربية المتحدة ، كما أن (جمهورية) باكستان ستصطدم (بالجمهورية) التى تلتزم بها الهند . فاذا تأملنا كل هذه المشاهدات فى ضوء (فلسفة التطور) فان هذه الكلمة سوف تفقد معناها حتما ، لأن فرنسا التى أنجبت النظام الجمهورى سوف تبرهن على أن (الجمهورية) بعد (نشوئها وارتقائها) تتمثل فى ديكتاتورية ديجول العسكرية .

وهذا النهج فى التناول يؤدى الى نتيجة غريبة ، هى أنه لا حاجة الى (الاله) فى الأديان !! اذ يوجد مثال لهذا فى تاريخ الأديان وهو مثال البوذية ، التى تخلو تماما من فكرة (الاله) . ومن ثم آمنت جماعة من الناس بضرورة البحث عن دين مجرد من الاله ، ولو أننا سلمنا بالفكرة القائلة بأن شيئا مثل (الدين) لا بد منه للانسان ، لحاجته الى الوعى الخلقى والتنظيم الاجتماعى ، فلا داعى اذن للاله أن يوجد ، وربما قيل : « ان الدين الذى يصح لهذا العصر يلزم أن يكون مثل البوذية ، فان اله العصر الحاضر هو (مجتمعه وأهدافه السياسية) ، ورسول هذا الاله هو (البرلمان) الذى يوجه الشعب الى ما يرضيه ، ومعابد هذا الاله العصرى ليست المساجد أو الكنائس القديمة ، وانما هى المصانع الكبيرة والسدود العظيمة »(١) .

ان لهؤلاء الباحثين الاجتماعيين المزعومين قدرة كبيرة على خلق هذه الأفكار الجديدة ، التى تنتقل من (دين الاله) الى فكرة (الدين بغير الاله) . وذلك ناشىء عن الطريق المعوجة التى سلكها بحثهم ، وهم يغمضون أعينهم عن جميع النواحى العلمية الأخرى التى تلقى ظلالا من الشكوك حول جداولهم الارتقائية . ومثاله أن علماء الاجتماع والانسان قد توصلوا بعد أبحاثهم الفنية الدقيقة الى أن (نظرية الاله) شكل ارتقائى لفكرة تعدد الآلهة ، غير أن هذا الارتقاء ضل طريقه واتجه الى طريق غريبة ، وحير العلماء كما شوش أمره على نفسه ، بارتقائه الباطل من فكرة تعدد الآلهة الى فكرة الاله الواحد .

ان فكرة تعدد الآلهة كانت تحمل قيما اجتماعية مؤداها أن يعيش مؤمنو الآلهة المختلفة فى سلام باعتراف متبادل ما بينهم « ولكن فكرة الاله الواحد أبطلت حتما هذا الامكان ، بخلقها نظرية الدين الأعلى (Higher Religion) ونتيجتها أن بدأت حروب ضارية لا نهاية لها بين شعوب الدنيا ، وهكذا سعت فكرة الاله الواحد الى حتفها بظلفها ، بارتقائها فى اتجاه مناقض ، وهذا هو قانون النشوء والارتقاء »(٢) .

ولكننا — فعلا — قد تركنا الواقع الحقيقى فى هذا الجدول ، فالتاريخ المعلوم يثبت أن أول رسول معلوم كان سيدنا نوحا عليه السلام ، وكان يدعو الى الله الواحد . كما أن تعدد الآلهة (Polytheism) ليس فى درجة واحدة ، وانما معناه : أن يشرك الانسان مع الاله الأكبر آلهة آخرين . يقربونه اليه ، ويشفعون له . وفى وجود هذه الحقائق تتحول نظرية النشوء والارتقاء الى ادعاء لا دليل عليه .



---

(١) Religion without Revelation, Julian Huxley.

(٢) Man in the Modern World, p. 112.

وفكرة (ماركس) هى اكثر نظريات هذه المجموعة عبثا ، فهى تقول : ان الأحوال الاجتماعية هى التى تقوم ببناء الانسانية وتكميلها ، ومن ثم كان العصر الذى وجد فيه الدين عصر الاقطاع والرأسمالية ، وهو عصر الانتهازيين اللصوص ، كما أن الأفكار الدينية والأخلاقية التى تولدت فى هذا العصر تحمل نفس الطابع الانتهازى الاستعمارى .

والحق أن هذه الفكرة ليست لها قيمة من الناحية العلمية ، كما أنها عند التحليل العلمى والتجربة العملية لا طريق الى تصديقها .

فالفكرة الماركسية تنفى بشدة ارادة الانسان ، وهى تحيل الأحداث الى تأثير عوامل الزمن الاقتصادية ، ومعنى ذلك أن الانسان لا شخصية له ، فهو يصاغ فى مجتمعه ، كما يصاغ الصابون فى المصنع ، ولا طريق أمامه كى يشق أفكارا وطرقا جديدة ، وانما هو ينطلق مفكرا على النهج الذى سمحت له به حياته الاقتصادية ، فاذا كانت هذه القضية صحيحة ، فكيف تمكن كارل ماركس — وليد النظام الرأسمالى — من أن يفكر ضد العوامل الاقتصادية الرائجة فى عصره ، هل صعد القمر لكى يبحث فى أحوال الأرض ؟

وبعبارة أخرى : لو صح أن الدين وليد عصر مخصوص فكيف لم تكن الماركسية وليدة النظام الاقتصادى لعصرها ؟؟ .. واذا لم نسغ هذا الوضع فيما يتعلق بالماركسية فكيف نسيغه بالنسبة الى الدين ؟ .. الحق أن هذه الفكرة عبث مثير لا يحمل على ظهره اى دليل علمى أو عقلى .

هذا وقد اتضحت اخطاء هذه الفكرة بالتجارب العملية . وحسبنا روسيا ، هنالك حيث سادت الماركسية نصف قرن من الزمان ، ادعت روسيا خلاله أن أحوال البلاد المادية قد تغيرت تماما ، وأن النظام الزراعى ، والمبادلة ، وتقسيم الأموال ، قد جرت على أسس غير استغلالية ، ولكنا وجدنا حين مات ستالين أن قادة الروس أنفسهم قد أقروا بأن الظلم والفساد كانا رائجين فى عهده ، وأنه كان يستغل الشعب كما يستغله الحكام فى البلاد الاستعمارية . ولو وضعنا فى اعتبارنا واقع الرقابة الشديدة على الصحف ووسائل الاعلام ، وهى التى تمكن بها ستالين من أن يذيع على العالم أن عهده هو عهد العدل والانصاف ، فلا ريب أن هذه الرقابة موجودة هناك اليوم أيضا ، ومن هنا نستطيع أن نفهم أن الأمور تجرى وراء ستائر الدعاية الجميلة على ما كانت عليه فى عهد ستالين . وان كان المؤتمر العشرون (١٩٥٦) للحزب الشيوعى الروسى قد أفشى مظالم ستالين ، فلا غرابة أن يجىء المؤتمر الأربعون للحزب الشيوعى بافشاء أسرار حكام روسيا اليوم(١) .

ان هذا النظام الذى استغرقت تجربته نصف قرن من الزمان ليدلنا على أن الانسان لا يتغير بتغيير نظام الزراعة والمبادلة المزعوم ، ولو كان العقل الانسانى تابعا للنظام الاقتصادى فلماذا نجد الظلم والفساد والاستغلال فى نظام روسيا الشيوعى ؟

ان قضية العصر الحاضر لا تعدو أن تكون « سفسطة علمية Scientific Sophism » ذلك أن علماء هذا العصر يعالجون قضاياهم فى ضوء العلم الحديث ، غير أن هذه المعالجة لا تجدى نفعا ، لأنها

---

(١) وقد أكد هذا عزل خروشوف والحوادث التى تلته فى روسيا فى اكتوبر عام ١٩٦٤ م.

قائمة على العلم المحض وحسب ، على حين لابد من اعتبار أشياء أخرى ، ومثال ذلك : أن نشرع فى دراسة علمية لأشياء علمية ناقصة ، فسوف تؤدى هذه المطالعة العلمية الى نتائج غير علمية ، ناقصة ، باطلة .

لقد عقد فى دلهى فى يناير ١٩٦٤ مؤتمر دولى للمستشرقين ، اشترك فيه ألف ومائتان من العلماء من جميع أنحاء العالم . وقدم أحدهم فى هذا المؤتمر بحثا يدعى فيه مآثر كثيرة لمسلمى الهند ليست من عمل المسلمين ، وانما هى من عمل الملوك الهندوس . وضرب لذلك مثلا بمنارة قطب فى دلهى المنسوبة الى الملك قطب الدين أيبك ، على حين بناها الملك الهندوسى سامودرا جوبت قبل ٢٣ قرنا ، وقد أخطأ المؤرخون المسلمون فنسبوها الى الملك قطب الدين . ويستدل هذا البحث بأن فى المنارة المذكورة بعض أحجار قديمة نحتت قبل عصر الملك قطب الدين .

وهذا — كما يبدو — استدلال علمى ، اذ أن بعض أحجار المنارة فعلا من الصنف الذى ذكره العالم ، ولكن هل يكفى مشاهدة بعض أحجار المنارة للبت فى أمر بانيها ؟ أو أنه لابد من نواح أخرى كثيرة لنشاهدها فى هذا الصدد . ومن هنا فان هذا التفسير لا يصدق على منارة قطب — ككل . هذا تفسير . وهناك تفسير آخر ، هو أن هذه الأحجار القديمة التى يوجد بعضها فى المنارة . انما جاءت من انقاض أبنية قديمة ، كما هو معروف فى كثير من الأبنية التاريخية الحجرية . ولا مناص من أن نقبل هذا التفسير الثانى حين نشاهد منارة قطب الدين فى ضوء طابعها المعمارى ورسومها وتصميمها . والمسجد الناقص بجوارها ، والمنارة الثانية التى لم تكمل ، ثم ننتهى الى أن التفسير الأول ليس الا قياسا خاطئا قائما على المغالطات .

* * *

وهذا هو أمر قضية المعارضين ، فانهم نظروا الى حقائق ناقصة وجزئية ، لا يتصل بعضها بالموضوع مطلقا ، واعتقدوا أن الدراسة العلمية الجديدة قد أبطلت الدين ، على حين أننا لو نظرنا الى الواقع جملة وتفصيلا فسوف نصل الى نتيجة تختلف عن الأولى كل الاختلاف .

والدليل الذى يقنعنى بصدق الدين هو أن عقولا مثالية منا — بعد أن تركت الدين — قد أخذت تهذى بكلمات لا حقائق وراءها ، وتعمه فى تيه الظلام ، ذلك أن الانسان بعد أن يفقد أساس (الدين) لا يجد أساسا آخر لأفكاره . والأسماء التى تأتى فى قوائم المعارضين أكثرها من عقولنا الكبيرة ، ولكنهم بعد أن تخلوا عن الدين راحوا يكتبون ضروبا من اللغو غاية فى الاهمال والتمزق ، حتى اننى أتحير — أحيانا — فلا أفهم كيف صدرت هذه الكلمات عن قلم رجل من العلماء ؟ .. وان السجل الذى أنتجه هؤلاء ليشتمل على خرافات وآراء متناقضة ، واعترافات بجهل الحقيقة ، كما يشتمل على أدلة أشبه بالسفسطة . فبطولة هؤلاء تكمن فى أنهم أغمضوا أعينهم عن الحقائق الظاهرة ، وشادوا قناطر خيالية من الادعاء ، كما تتمثل فى استدلالهم بالشاذ من الأمور . وذلك من سمات القضايا الباطلة ، أما القضايا الصحيحة فانها تقوم على أسس علمية ثابتة ، لا على الشواذ .

* * *

وتتجلى حقيقة الدين وسفسطة قضية المعارضين أكثر من ذلك حين نطالع صورة الحياة الانسانية فى ضوء الدين ، انها صورة جميلة لطيفة ،

تتوافق مع أفكار الانسان السامية ، كما يتوافق الكون المادى مع القوانين الرياضية ، بعكس تلك الصورة التى يرسمها المعارضون ، فهى صورة جد قبيحة ، وهى لا تتفق أبدا مع الذهن الانسانى ، وانظر الى ما يقوله برتراندرسل :

« والانسان وليد عوامل ليست بذات أهداف ، ان بداه ونشوءه ، وأمانيه ومخاوفه ، وحبه وعقائده ، كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضى اتفاقى فى نظام الذرة ، والقبر ينهى حياة الانسان . ولا تستطيع أية قوة احياءه مرة أخرى . ان هذه المجهودات الطويلة . والتضحيات ، والأفكار الجميلة ، والبطولات العبقرية ، كلها سوف تدفن الى الأبد مع فناء النظام الشمسى . ان الكفاح الانسانى كله سوف يدفن حتما مع الأرض تحت أنقاض الكون ، ولو لم تكن هذه الأفكار قطعية فانها أقرب ما تكون الى الحقيقة ، حتى ان أية فلسفة تحاول انكارها ستلقى فناءها تلقائيا »(١) .

ويكاد هذا الاقتباس أن يكون خلاصة الفكر المادى ، فالكون فى ضوء هذا الفكر المادى ـــ يكاد يفقد أهدافه ، ولا يبقى غير الظلام الحالك ، الظلام الذى تتلاشى فيه معايير الخير والشر ، حتى ان ابادة الناس بالقنابل لا تعد ظلما ، لأنهم سوف يلقون حتفهم على أية حال يوما ما . أما الفكر الدينى فهو فكر الضوء والأمل . الموت والحياة مرتبطان فيه بأهداف معينة ، وكل القيم والأفكار الانسانية السامية تجد لها مكانا فيه ، وان كان بعض العلماء بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره ، يطمئن الى أنه قد توصل الى الحقيقة ، فان تصديق العقل الانسانى الفكر الدينى دليل قطعى على أنه هو الحقيقة التى طالما بحثت عنها الفطرة الانسانية . وعندئذ لا نجد أساسا واقعيا لانكار قيمة الفكر الدينى ، هذا هو « المقياس » العلمى الذى يشير اليه الرياضى الأمريكى البروفيسور (ارل تشستر ريكس) قائلا :

« اننى أستخدم فى أبحاثى ذلك المقياس العلمى المسلم ، الذى يستخدم فى ترجيح احدى فكرتين مختلفتين أو أكثر ، عن حقيقة واحدة . وهو المقياس الذى نرجح بناء عليه الفكرة التى تفسر المسائل المتنازع فيها بطريقة أكثر بساطة وسهولة . لقد استخدم العلماء هذا المقياس لاختيار احدى نظريتى بطليموس وكوبرنيك : كانت الأولى تزعم أن الأرض هى مركز النظام الشمسى ، على حين أكدت الثانية أن النظام الشمسى هو مركز الأرض . وكانت نظرية بطليموس غاية فى التعقيد حتى رفضها العلماء »(٢) .

ولا بأس من الاعتراف بأن هذه الأدلة لن تقنع بعض الناس ، فان أبواب عقولهم المادية موصدة دون أى كلام ـــ مهما يكن علميا ـــ عن الاله أو الدين . ومن المؤكد أن موقفهم هذا ليس لأن استدلالنا ضعيف ، وانما هو راجع الى تعصبهم المقيت ضد الأفكار الدينية ، ولقد صدق عالم بريطانيا العظيم سير جيمس جينز ـــ الذى يعتبر ولا شك أعظم علماء العصر الحديث ـــ حيث قال فى كتابه الشهير (عالم الأسرار) :

« ان فى عقولنا تعصبا يرجح التفسير المادى للحقائق »(٣) .

(١) Limitations of Science, p. 133.

(٢) The Evidence of God, p. 179.

(٣) Mysterious Universe, p. 189.

وذكر (ويتكر شامبرز) فى كتابه (الشهادة) Witness حادثا كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول فى حياته . ذكر أنه بينما كان ينظر الى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظره ، فأخذ يفكر فى أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق ، كهذه الأذن ، بمحض اتفاق ، بل لابد أنه وجد نتيجة ارادة مدبرة . لكن (ويتكر شامبرز) طرد هذه الوسوسة عن قلبه ، حتى لا يضطر أن يؤمن ــ منطقيا ــ بالذات التى أرادت فدبرت ، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة .

ويقول الأستاذ الدكتور (تامس ديودباركس) بعد أن يذكر هذا الحادث :

« اننى أعرف عددا كبيرا من أساتذتى فى الجامعة . ومن رفقائى العلماء الذين تعرضوا مرارا لمثل هذه المشاعر ، وهم يقومون بعمليات كيماوية وطبيعية فى المعامل(١) .

لقد أجمع علماء هذا العصر على صدق نظرية النشوء والارتقاء .. وقد بدأت هذه النظرية تسود فعلا جميع فروع العلوم الحديثة . فكل مشكلة تحتاج (الها) فى تفسيرها توضع مكانه هذه النظرية بغير تردد .

هذا جانب من النظرية ، وأما الجانب الثانى ــ وهو الجانب المظلم منها ــ الذى يقرر (فكرة التطور العضوى) Organic Evolution الذى استنبطت منه فكرة الارتقاء ، فقد بقى الى يوم الناس هذا بلا براهين ، وبلا أدلة علمية !! حتى قال كثير من العلماء : « انهم لا يؤمنون بهذه النظرية ، الا لأنه لا يوجد أى بديل لها سوى الايمان بالله مباشرة » .

وكتب سير آرثر كيث يقول :

« ان نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل الى اثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها الا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو (الايمان بالخلق الخاص المباشر) ، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه »(٢) !!

اننى أقر هنا بعجزى عن اقناع أولئك الذين ينطوون على التعصب الأعمى للتفسير المادى ، بحقية الدين ، ولهذا التعصب جذور عميقة ، كما يقول عالم أمريكى : « ان كون العقيدة الالهية معقولة ، وكون انكار الاله سفسطة لا يكفى ليختار الانسان جانب العقيدة الالهية . فالناس يظنون أن الايمان بالله سوف يقضى على حريتهم ، تلك الحرية العقلية التى استعبدت عقول العلماء ، واستهوت قلوبهم ، فأية فكرة عن تحديد هذه الحرية مثيرة للوحشة عندهم(٣) .

وبناء على هذا يدعى جوليان هكسلى أن فكرة النبوة « هى اظهار للتفوق بطريقة شاذة لا يمكن احتمالها » ، اذ أن معنى الايمان بنبى أن نؤمن بكلامه على أنه كلام الاله ، ثم نمتثل ــ طوعا أو كرها ــ لكل ما يأمر به .

---

(١) The Evidence of God, pp. 73-74.

(٢) Islamic Thought, Dec. 1961.

(٣) George H. Blount, The Evidence of God, p. 130.

ولكن اذا كان الانسان مخلوقا وليس خالقا ، عابدا وليس معبودا . فكيف يستطيع أن يقضى على الحقائق بمجرد أفكار نبتت فى عقله ؟ .. اننا لا نستطيع أن نغير الحقائق ، وانما نستطيع أن نعترف — أو نؤمن بها — فحسب . واذا كنا لا نحب أن تكون عاقبتنا عاقبة النعامة ، فأفضل خيار لنا أن نسلم بالحقيقة قبل أن تفوت الفرصة نهائيا .

ان كفرنا بالحقيقة لن يسىء الى قضيتها ، ولكن الخسران كله سوف يكون من حظنا فى الآخرة .

الباب الثالث

طريقة الاستدلال العلمى

ان قضية العصر الحاضر ضد الدين هى قضية طريقة الاستدلال ، أعنى الطريقة الجديدة التى كشفها العلم الحديث بعد التطورات فى ميادينه العديدة ، بحيث لم تعد تقف أمامها دعوى الدين وعقائده . هذه الطريقة الجديدة هى معرفة الحقيقة بالتجربة والمشاهدة ، على حين تتصل عقائد الدين بعالم ما وراء حواسنا ، ولا يمكن اخضاعها للتجربة . (فالدين كله مبنى على قياس واستقراء)(١) ، وهذا هو ما يجعله باطلا ، لأنه ليس له أســاس علمى .

وقضية العصر الحاضر باطلة ، لأنها لا تقوم على أسس علمية ، فالطريقة الجديدة لا تنفى وجود أشياء لم تجرب مباشرة ، كما لا تنفى قياس أشياء لم نشاهدها على أشياء شاهدناها تجريبيا وهو ما يسمى « قياسا علميا » ، ويعتبر كالتجربة المباشرة ، فالتجربة لا تعد حقيقة علمية لمجرد أنها شوهدت ، كما أن القياس ليس باطلا لمجرد أنه قياس . فامكان الصحة والبطلان موجود فيهما على السواء .

كان الناس فى القديم يصنعون السفن الشراعية من الخشب . اعتقادا منهم أن الماء لا يحمل الا ما يكون أخف منه وزنا ، وحين قال بعضهم : ان السفن الحديدية سوف تطفو على سطح الماء كالتى من الخشب . أنكر الناس عليه مقالته واتخذوه هزوا ، وجاء نحاس فألقى بنعل من حديد فى دلو مملوء بالماء ليشهد الناس على أن هذه القطعة الحديدية ــ بدل أن تطفوا على سطح الماء ــ استقرت فى القاع . كان هذا العمل تجربة . ولكننا جميعا نعتند اليوم أنها كانت تجربة باطلة ، فلو كان النحاس قد ألقى بطبق من حديد لشاهد بعينيه صدق ما قيل من طفو السفن الحديدية .

فى بداية القرن العشرين كنا كذلك نملك تلسكوبا ضعيفا ، فلما شاهدنا السماء بهذا المنظار وجدنا اجراما كثيرة كالنور ، فاستنبطنا أنها سحب من البخار والغاز ، تمر بمرحلة قبل أن تصير نجوما . ولكنا حين تمكنا من صناعة منظار قوى ، وشاهدنا هذه الأجرام مرة ثانية ، علمنا أن هذه الاجرام الكثيرة المضيئة هى مجموعة من نجوم كثيرة شوهدت كالسحب ، نتيجة البعد الهائل بينها وبين الأرض .

---

(١) ومثاله ان اصحاب الدين اذا أرادوا اثبات وجود الاله لا يقدرون على ذلك باستعمال التلسكوب ، ولكنهم يستدلون بأن نظام الكون وروحه العجيبة تدلان على أنه يوجد عقل الهى وراءهما . وهذا الدليل لا يثبت وجود الاله مباشرة ، وانما هو يثبت قرينة تستلزم الايمان بالله بعد الايمان بها .

وهكذا نجد أن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتى العلم القطعيتين ، وأن العلم لا ينحصر فى الأمور التى شوهدت بالتجربة المباشرة . لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواسعة النطاق ، ولكن الأشياء التى نلاحظها بهذه الوسائل كثيرا ما تكون أمورا سطحية ، وغير مهمة نسبيا . أما النظريات التى يتوصل اليها بناء على هذه المشاهدات فهى أمور لا سبيل الى ملاحظتها ، والذى يطالع العلم الحديث ، يجد أن أكثر آرائه « تفسير للملاحظات » وأن هذه الآراء لم تجرب مباشرة ، ذلك أن بعض الملاحظات يحمل العلماء على الايمان بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعيا ، فأى عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو خطوة دون الاعتماد على ألفاظ مثل : « القوة » Force ، و « الطاقة » Energy ، و « الطبيعة » Nature ، و « قانون الطبيعة » Law of Nature ، وما الى ذلك . ولكن هـذا العالم لا يدرى ما « القوة والطاقة والطبيعة وقانونها » ؟ فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة ، لكى يبين عن علل غير معلومة . وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ ، تماما كرجل الدين ، لا يستطيع تفسير صفات الاله ، وكلاهما يؤمن — بدوره — بعلل غير معلومة .

* * *

يقول الدكتور (الكسيس كيرل) :

« ان الكون الرياضى شبكة عجيبة من القياسات والفروض ، لاتشتمل على شىء غير « معادلة الرموز » ، الرموز التى تحتوى على مجردات لا سبيل الى تفسيرها »(١) .

والعلم الحديث لا يدعى ، ولا يستطيع أن يدعى ، أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة ، فالحقيقة أن « الماء سائل » . ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة . ولكن الواقع أن كل « جزىء » من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين ، وذرة من الأوكسجين وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية ، ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب فى العالم ، غير أنها ثبتت لدى العلماء لايمانهم بالاستدلال المنطقى .

* * *

ويقول البروفيسور ا.ى. مانديـر :

« ان الحقـائق التى نتعرفهـا مباشرة تسمى الحقـائق المحسـوسة Precieved Facts ، بيد أن الحقائق التى توصلنا الى معرفتها لا تنحصر فى « الحقائق المحسوسة » ، فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليهـا مباشرة ، ولكننا عثرنا عليها على كل حال ، ووسيلتنا فى هذه السـبيل هى الاستنباط ، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسـميه « بالحقـائق المستنبطة Inferred Facts والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين ، وانما الفرق هو فى التسمية ، من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة ، وعلى الثانية بالواسطة ، والحقيقة دائما هى الحقيقة ، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط »(٢) .

---

(١) Man The Unknown, p. 15

(٢) A.E. Mander, Clearer Thinking, London, p. 46.

ويضيف ماندير قائلا :

« ان حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف يمكن أن نعرف شيئا عن الكثير الآخر ؟ .. هناك وسيلة وهى الاستنباط أو التعليل . وكلاهما طريق فكرى ، نبتدىء به بوساطة حقائق معلومة ، حتى ننتهى بنظرية: ان الشىء الفلانى يوجد هنا ولم نشاهده مطلقا »(١) .

وهنا نتساءل : كيف يصح الاستنباط المنطقى لأشياء لم نشاهدها قط ؟ وكيف يمكن أن نسمى هذا الاستنباط بناء على طلب العقل : حقيقة علمية ؟ ويجيب ماندير بنفسه عن هذا السؤال :

« ان المنهج التعليلى صحيح ، لأن « الكون » نفسه عقلى » .

فالكون كله مرتبط بعضه بالآخر ، حقائقه متطابقة ، ونظامه عجيب ، ولهذا فان أية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها — هى دراسة باطلة . ويقول ماندير فى هذا الصدد :

« ان الوقائع المحسوسة هى أجزاء من حقائق الكون ، غير أن هذه الحقائق التى ندركها بالحواس قد تكون جزئية ، وغير مرتبطة بالأخرى . فلو طالعناها فذة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقا . فأما اذا درسناها فى ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة ، فاننا سندرك حقيقتها » .

ثم يأتى بمثال سليم يفسر ذلك فيقول :

« اننا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الأرض ، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ، ويتطلب جهدا ، ونلاحظ أن القمر يدور فى الفلك ، ونعلم أن الصعود فى الجبل أشق من النزول منه . ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لاحداها بالأخرى ظاهرا ، ثم نتعرف على حقيقة استنباطية — هى « قانون الجاذبية » . وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق ، فنعرف للمرة الأولى أنها كلها مرتبطة احداها بالأخرى ارتباطا كاملا داخل النظام . وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة فلن نجد بينها أى ترتيب ، فهى متفرقة ، وغير مترابطة ، ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صورة منظمة للحقائق »(٢) .

* * *

ان قانون « الجاذبية » لا يمكن ملاحظته قطعا ، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل فى ذاته قانون الجاذبية ، وانما هى أشياء أخرى ، اضطروا لأجلها — منطقيا — أن يؤمنوا بوجود هذا القانون .

واليوم يلقى هذا القانون قبولا علميا عظيما ، وهو الذى كشف عنه نيوتن لأول مرة ، ولكن .. ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية ؟ .. ها هو ذا نيوتن يتحدث فى خطاب أرسله الى (بنتلى) فيقول :

« انه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا احساس وهى تؤثر على مادة أخرى ، مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما »(٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٢) Clearer Thinking, p. 51.

(٣) Works of W. Bently, III, p. 221.

فنظرية معقدة غير مفهومة ، ولا طريق الى مشاهدتها ، تعتبر اليوم ، بلا جدال ، حقيقة علمية !! لـمـاذا ؟ .. لأنها تفسر بعض ملاحظاتنا ، فليس بلازم اذن أن تكون الحقيقة هي ما علمناه مباشرة بالتجربة ، ومن ثم نمضى الى القول بأن العقيدة الغيبية التى تربط بعض ما نلاحظه ، وتفسر لنا مضمونه العام ــ تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة ! ..

* * *

يقول البروفيسور ماندير :

« القول بأننا عرفنا الحقيقة يعنى : أننا عرفنا معناها ، وبعبارة أخرى : أننا بحثنا عن وجود شىء ، وعن أحواله ، ففسرناه ، وأكثر عقائدنا تدخل فى هذا النطاق ، فهى فى الحقيقة : « تفسيرات للملاحظة » .

ويستطرد ماندير فيتكلم عن « الحقائق الملحوظة » :

« عندما نذكر « ملاحظة » فاننا نقصد شيئا أكثر من المشاهدة الحسية المحضة ، فمعناها : « الملاحظة الحسية » و « التعرف » بما يشمل جانب التفسير »(١) .

نظرية التطور العضوى :

هذه هى القاعدة العلمية التى على أساسها وافق العلماء على حقيقة نظرية (التطور العضوى) كما قال ماندير : « لقد ثبت صدق هذه النظرية ، حتى اننا نستطيع أن نعتبرها « أقرب شىء الى الحقيقة »(٢) .

ويقول سمبسن فى هذا الصدد :

« ان نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة أخيرا وكليا ، وليست بقياس ، أو (فرض بديل) صيغ للبحث العلمى »(٣) .

ويعتقد محرر دائرة المعارف البريطانية (١٩٥٨) : أن نظرية الارتقاء فى الحيوانات « حقيقة » ، وأن هذه النظرية قد حظيت بموافقة عامة بين العلماء والمثقفين بعد داروين .

وقال ر.س لل :

« ظلت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد ، يوما بعد يوم ، بعد داروين ، حتى أنه لم يبق لدى المفكرين والعلماء فى أن هذه هى الوسيلة المنطقية الوحيدة التى تستطيع أن تفسر عملية الخلق وتشرحها »(٤) .

* * *

هذه النظرية التى أجمع العلماء على صحتها ، هل لاحظها أحدهم أو جربها فى معمله ؟ .. والجواب : لا ! فذلك ضرب من المستحيل ، ان مزعومة الارتقاء معقدة،وهى تتعلق بماض بعيد جدا،حتى انه لا سؤال عن تجربتها وملاحظتها .

(١) Clearer Thinking, p. 56.

(٢) Ibid, p. 113.

(٣) Meaning of Evolution, p. 127.

(٤) Organic Evolution, p. 15.

وهى على ما أكده (لل) فى كلمته السابقة : « وسيلة منطقية » لتفسير مظاهر الخلق ، وليست بملاحظة واقعية . وأرى أن هذا هو السبب الذى دفع « السير آرثر كيث » — الذى يعتبر محاميا متحمسا لنظرية الارتقاء — أن يسلم بأن هذه النظرية ليست بملاحظة أو تجربة ، وانما هى مجرد عقيدة . ومن كلماته : « أن نظرية الارتقاء « عقيدة أساسية » فى المذهب العقلى »(١) .

وعرف أحدهم المعاجم العلمية نظرية داروين بأنها « نظرية قائمة على تفسير بلا برهان »(٢) .

* * *

فما الذى يجعل شيئا غير ملاحظ وغير قابل للتجربة « حقيقة علمية » ؟ يذكر (ماندير) أسباب ذلك فيقول :

١ — هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .

٢ — فى هذه النظرية تفسير لكثير من الوقائع ، لا يمكن فهمها الا من طريقها .

٣ — ولم تظهر بعد نظرية تناسب وتوافق الحقائق بهذه الدقة (٣) .

فاذا كانت هذه الأدلة كافية لتصبح نظرية الارتقاء حقيقة علمية فهى كذلك موجودة فى جانب الدين على وجه أتم وأكمل . والقول بصدق نظرية الارتقاء وابطال الدين فى نظر الذهن العلمى لا يعنى مطلقا أن قضية المعارضين هى قضية الاستدلال العلمى ، وانما هذه القضية تتعلق « بالنتيجة » ، فلو أثبت نفس الاستدلال أمرا « طبيعيا محضا » فسيقبله المعارضون ، وسيرفضونه لو أثبت أمرا الهيا — لأنه غير مرغوب فيه عندهم .

* * *

مشكلة تعيين حقائق الأمور :

وبهذا لا ينبغى القول بأن الدين هو « الايمان بالغيب » ، وبأن العلم هو الايمان « بالملاحظة العلمية » ، فالدين والعلم كلاهما يعتمد على الايمان بالغيب . غير أن دائرة الدين الحقيقية هى دائرة « تعيين حقائق الأمور » نهائيا وأصليا ، أما العلم فيقتصر بحثه على المظاهر الأولية والخارجية ، فحين يدخل العلم ميدان تعيين حقائق الأمور تعيينا حقيقيا ونهائيا — وهو ميدان الدين الحقيقى — فانه يتبع نفس طريق الايمان بالغيب . الذى يتهم به الدين . ولابد من هذا السلوك فى « الميدان الثانى » ، كما قال سير آرثر ادنجتن : « ان عالمنا فى العصر الحاضر يعمل على منضدتين فى وقت واحد : احداهما :المنضدة العامة التى يستعملها الرجل العادى ، التى يمكن لمسها ورؤيتها . وأما الأخرى : فهى « المنضدة العلمية » ، وأكثرها فى الفضاء ، وتجرى فيها الكترونات لا حصر لها ولا تشاهد » ، ويستطرد سير آرثر أدنجتن قائلا : « وهكذا نجد لكل شىء صورة ذات وجهين ، أحدهما : (ملحوظ) ، والآخر : (صورة فكرية) لا سبيل الى مشاهدتها بأى ميكروسكوب أو تلسكوب »(٤) .

---

(١) Revolt against Reason, p. 112.

(٢) Ibid, p. 111.

(٣) Clearer Thinking, p. 112.

(٤) Nature of the Physical World, pp. 7-8.

أما الوجه الأول فيشاهده العلم ، ويشاهده لمدى بعيد جدا ، ولـكنه لا يستطيع أن يدعى أنه يشاهد الوجه الآخر . وطريقة العلم الحديث أنه يقدم رأيا عن شىء بعد مشاهدة مظاهره . وأما « الميدان الثانى » فهو ميدان معرفة حقائق الأشياء وتعيينها ، و « العلم » فى هذا الميدان هو البحث عن حقائق غير معلومة ، بوساطة حقائق معلومة .

وعندما يجتمع لدى عالم من العلماء قدر مناسب من « الحقائق الملحوظة » فانه يحس بضرورة وضع نظرية أو فرض علمى . وبعبارة أدق : ضرورة فكرة اعتقادية ووجدانية ، تقوم بتفسير الملاحظات ، وربط بعضها ببعض ، فاذا نجحت هذه الفكرة الاعتقادية فى تفسير الحقائق تفسيرا كاملا عدت حقيقة علمية ، رغم أنها لم تلاحظ قط كما لوحظت الحقائق الأخرى التى نعرفها بالمشاهدة ، أو بالملاحظة العلمية .

ومعنى ذلك أن العالم يؤمن بوجود شىء غائب بمجرد ظهور نتائجه وآثاره ، فكل حقيقة نؤمن بها تكون دائما (فرضا) فى أول أمرها ، الى أن نكتشف حقائق جديدة تدعم صدقهـــا ، فنزداد يقينا بها . حتى نبلغ حق اليقين : واذا لم تؤيدها الملاحظات اللاحقة تخلينا عنها . ومن أمثلة هذه « الحقائق » : حقيقة « الذرة » التى لا سبيل الى انكارها ، برغم أنها لم تشاهد قط بالمعنى المعروف ، ولكنها تعتبر أكبر حقيقة علمية كشفت فى هذا العصر . وهذا هو السبب الذى دفع أحد العلماء أن يعرف (النظريات) العلمية بالألفاظ التالية :

«Theories are Mental Pictures, That Explain Known Laws»

« النظريات صور ذهنية تفسر القوانين المعلومة » .



حقيقة النظريات العلمية :

ان الحقائق التى تعرف فى العلم باسم « الحقائق الملحوظة » ليست بحقائق شوهدت فعلا ، وانما هى تفسيرات لبعض المشاهدات ، لأن المشاهدة الانسانية لا يمكن أن توصف بأنها (كاملة) ، ولذا فان جميـــع هذه التفسيرات تعد « اضافية » ، ومن الممكن أن تتغير بتطور الملاحظة .

ويقول البروفيسور سوليفان بعد نقد وجهه الى النظريات العلمية :

« هذا العرض للنظريات العلمية يثبت أن معنى « نظرية علمية صحيحة » أنها « فروض عملية ناجحة » Successful Working Hypothesis ، ومن الممكن تماما أن يكون سائر النظريات العلمية باطلا ، ذلك أن النظريات التى نعتبرها اليوم (حقيقة) ليست الا « قياسا على وسائلنا المحدودة للملاحظة » ، ولا تزال قضية الحقيقة فى عالم العلم « قضية عملية نفعية Pragmatic Affair » (1) .

* * *

ولا يزال العلماء بعد هذا يعتبرون أن الفرض الذى يفسر ملاحظاتهم لا يقل فى قيمته عن « الحقيقة الملحوظة » نفسها ، فهم لا يستطيعون أن يقولوا :

(1) J.W.N. Sullivan, Limitations of Science, p. 158.

ان الحقائق الملحوظة هى وحدها « العلم » ، وان ما سواها من النظريات الشارحة لا تدخل فى نطاق (العلم) ، لأنها غير ملحوظة . .والحق أن هذا هو ما نسميه « الايمان بالغيب » ، وهو بالنسبة الى المؤمنين ليس سوى الايمان بحقائق غير ملحوظة ، فهو ليس بعقيدة عمياء ، وانما هو خير تفسير للحقائق التى يشاهدها العلماء . .

* * *

وكما رفض العلماء نظرية الضوء التى قدمها نيوتن وتعرف باسم Corpuscular Theory Of Light لأنها لم تنجح فى تفسير مظاهر حديثة للضوء ، فاننا نرفض أفكار الفلاسفة الملحدين ، لأنها فشلت فى تفسير مظاهر الطبيعة .

ان مأخذ حقائق الدين هو نفس المأخذ الذى يستقى منه العلم الحديث ملاحظاته ، لكى يثبت نظرية علمية . ولقد انتهينا بعد دراسة الحقائق الملحوظة الى أن تفسير الدين للطبيعة هو عين الحق ، حتى ان هذا التفسير لم يتغير ، ولن يتغير على مر الدهور ، على حين أن كل نظرية صاغها الانسان منذ قرن ، أو أكثر أو اقل ، قد رفضت ، أو أصبحت موضع شك الآن .

وان صدق الدين ليتجلى بعد كل خطوة نخطوها فى الملاحظة ، حتى ليصبح كل كشف علمى جديد تصديقا لحقائق الدين !

ولسوف نطالع أفكار الدين من هذه الناحية فى الأبواب التالية .



الباب الرابع

الطبيعة تشهد بوجود الإله

أصدرت الكنيسة المسيحية فى كيرالا جنوبى الهند كتيبا بعنوان :
«Nature and Science Speak about God»
« الطبيعة والعلم يتحدثان عن الله » .. وأعتقد أن هذه الكلمات هى أفضل عنوان لهذا الباب .

ان أكبر دليل على وجود الاله هو مخلوقه ، هذا الذى نجده أمامنا ، وأوثق ما علمنا من حقائق الطبيعة يدعونا الى الايمان بأنه لا ريب أن لهذه الدنيا الها واحدا . ونحن لا نستطيع أن نفهم أنفسنا وأن نفسرها ، بله الكون كله — مجردين من الايمان بوجود الاله .

ان وجود الكون ، والنظام العجيب الذى اشتمل عليه ، وأسراره الدقيقة ، لا يمكن تفسير ذلك كله الا بأنه قد خلقته (قوة) ، وأن هذه القوة (عقل) لا حدود له ، وأنها ليست بقوة عمياء .

أولا — نظرية التشكيك فى الوجود :

هناك جماعة من المفكرين هزيلة العدد جدا ، « تشك » فى مجرد وجود مثل هذه القوة . وتعتقد هذه الجماعة أنه لا وجود للانسان ، ولا للكون ، وأن الوجود عبارة عن عدم محض ، ولا شىء غير ذلك .

فلو سلمنا بهذه الفكرة لالتبس علينا أمر الاله دون شك .. ولكننا حين نؤمن بأن الكون موجود نضطر تلقائيا أن نؤمن بالاله ، أو بالقوة الخالقة — كما نسميها ، فليس بمعقول أن نؤمن بالوجود من العدم المحض ، ذلك قياس باطل !!

فهذا التشكيك فى وجود الكون ، والذى يتخذ أحيانا شكل نظرية الـ « لا أدرية »(١) — يمكن أن يعد نكتة فلسفية ، لا علاقة لها بالحقيقة . فنحن حين نفكر يكون فكرنا هذا دليلا قاطعا فى ذاته على أن لنا وجودا(٢) . وحين نصطدم فى الطريق بحجارة ثم نتألم فهذا الواقع دليل فى ذاته على أن هناك عالما موجودا وجودا ذاتيا خارج وجودنا . وهكذا تدرك حواسنا

---

(١) هذا مصطلح مستعمل فى اللغة الأردية مأخوذ من عبارة « لا ادرى » ، يشير الى الاتجاه الذى ينكر معرفة شىء عن الكون ، لان الكون لا وجود له على الحقيقة — المراجع .
(٢) يستخدم المؤلف هنا تلك العبارة الفلسفية الشائعة : « انا أفكر ، اذن فانا موجود ». (المراجع)

فى كل وقت أشياء كثيرة ، من الفرح والألم والتذوق ، فهذا الاحساس والشعور دليل لكل شخص على أنه موجود فى كون ، وعلى أنه يملك وجوده الـذاتى ، وحينئذ فلو قام أحد يشكك نفسه فى وجوده الذاتى ووجود الكون فسوف نعتبر ذلك حالة استثنائية مفردة ، لا ترتبط بتجربة الملايين من جماهير الناس . وسوف نقول عن هذا الرجل الفذ : انه قد غاب فى عالمه الذهنى ، حتى نسى نفسه ...

بل اننا لو سلمنا ــ جدلا ــ بأنه ليس للكون فى ذاته وجود خارج ذاتنا، فلست أعتبر هذا دليلا ملزما بأنه لا وجود للاله .

وعلى كل حال فهذه هى الفكرة الوحيدة التى ترى وجود الاله مشكوكا فيه ، بكل ما تتضمن من السفسطة والجهالة وانعدام الواقعية ، وهى فكرة لا معنى لها فى ذاتها ، وليست مفهومة لدى جمهور الناس ، كما أنها لم تحظ بقبول فى دنيا العلم .

***

الوجود والخلق :

ان الانسان العادى ، والعالم العادى يؤمن على كل حال بأن « له » وجودا ، وبأن للكون أيضا وجودا ، وعلى هـذا الأسـاس من العلم والايمان تقوم جميع ألوان النشاط العلمى والحيوى .

فاذا آمنا بوجود الكون فلابد أن نؤمن بآله هذا الكون منطقيا .. اذ لا معنى لأن نؤمن بالمخلوق ونرفض وجود خالقه ، ونحن لا نعلم شيئا جاء الى الوجود من العدم ، دون أن يخلق ، فكل شىء مهما بلغ حجمه ، عظم أو صـغر ، جل أو دق ، وراءه علة ، فكيف بنا نؤمن بأن كونا عظيما مثل كوننا ــ جاء الى الوجود ذاتيا ، دون خالق ؟؟

ذكر (جون ستيوارت ميل) فى سيرة حياته : أن أباه قد علمه أن سؤال « من الذى خلقنى ؟ » لا يكفى لاثبات وجود الاله ، اذ ينجم تلقائيا سؤال : « فمن الذى خلق الاله ؟ » ، وقد اعتبر (برتراند رسل) هـذا الاعتراض الثانى كافيا لرفض مدلول السؤال الأول(١) .

ونحن نعرف أن هذا الاستدلال قديم جدا لدى الملحدين ، ومقتضاه : اننا لو افترضنا خالقا للكون فسوف نضطر أن نتصوره أزليا !!

الأزلى : الخالق أم المادة ؟

واذا كان لا مناص من افتراض أزلية هذا الخالق ، فلماذا لا نؤمن بأزلية هذا الكون ؟ وهذا الكلام لا معنى له ، لأننا لم نعثر على صفات للكون ، أية كانت ، تثبت أنه خالق نفسه .

ولقد كان لهذا الاستدلال حسنه ورواؤه حتى القـرن التاسع عشر ، ولكنا اليـوم ، وبعد كشف « القـانون الثانى للحـرارة الديناميـكية »

---

(١) Morton White, The Age of Analysis, pp. 21 - 22.

Second Law of Thermo Dynamics نجـد أن هـــذا الاســـتدلال فقد كل أساس كان يقوم عليه .

وهذا القانون الذى نسميه « قانون الطاقة المتاحة » أو « ضابط التغير» Law of Entropy يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجـود الـكون أزليا ، فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائما من (وجود حرارى) الى (عدمحرارى)، والعكس غير ممكن ، وهو أن تنتقل هذه الحرارة من (وجود حرارى قليل) أو (وجود حرارى عدم) الى (وجود حرارى أكثر) . فان ضابط التغير هو التناسب بين « الطاقة المتاحة » و « الطاقة غير المتاحة » .

وبناء على هذا الكشف العلمى الهام فان « عدم كفاءة عمل الكون » يزداد يوما بعد يوم ، ولابد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، وحينذاك لا تبقى أية طاقة مفيدة (للحياة والعمل) ، وسيترتب على ذلك أن تنتهى العمليات الكيماوية والطبيعية ، وتنتهى — تلقائيا — مع هـــذه النتيجة « الحياة » .

***

وانطلاقا من هذه الحقيقة القائلة بأن العمليات الكيماوية والطبيعيـــة جارية ، وأن الحياة قائمة ، يثبت لدينا قطعا أن الكون ليس بأزلى ، اذ لو كان الكون أزليا لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد ، بنـــاء على هذا القانون ، ولما بقى فى الكون بصيص من الحياة .

يذكر هذا التحقيق العلمى الحديث عالم أمريكى فى علم الحيوان ، هو الأستاذ (ادوارد لوثر كسيل) فيقول :

« وهكذا اثبتت البحوث العلمية — دون قصد — أن لهذا الكون « بداية» فأثبتت تلقائيا وجود الاله ، لأن كل شىء ذى بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته ، ولابد أن يحتاج الى المحرك الأول — الخالق الاله » (١) .

وقد قال نفس الكلام السير جيمس : « تؤمن العلوم الحديثة بأن (عملية تغير الحرارة) Entropy سوف تستمر حتى تنتهى طاقاتها كلية ، ولم تصل هذه العملية حتى الآن الى آخر درجاتها ، لأنه لو حدث شىء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض ، حتى نفكر فيها . ان هـــذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن ، ومن ثم لابد لها من بداية ، ولابد أنه قد حدثت عملية فى الكون ، يمكن أن نسميها « خلقا فى وقت ما » حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزليا »(٢) .

***

وهناك شواهد طبيعية كثيرة تثبت أن الكون لم يكن موجودا منذ الأزل ، وأن له عمرا محدودا ، وعلى سبيل المثال ، نجد « علم الفلك » يقرر ان الكون يتسع بالتسلسل الدائم ، وأن كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة، بعضها عن بعض . ويمكنأن نفسر هذه الحالة تفسيرا جيدا اذا نحن سلمنا بوقت للبدء ، كانت فيه كل الأجزاء التركيبية

(١) The Evidence of God, p. 51.

(٢) The Mysterious Universe, p. 133.

مركزة ومجتمعة بعضها مع بعض ، ثم بدأت الحركة والحرارة . ويقدر العلماء أن هذا الكون قد وجد نتيجة « لانفجار » فوق العادة ، وقع منذ ٥٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سنة .

فالايمان بهذا الكشف العلمى ، وهو أن للكون عمرا محدودا يتعارض مع انكار موجده ، ومثل من يؤمن بحدوث الكون مع انكاره لوجود خالقه،كمثل من يزعم أن « تاج محل » قام بنفسه من غير بنـائين ومهندسـين ، مع تسليمه بأنه بنى فى القرن السابع عشر الميلادى،ولم يكن موجودا منذ الأزل.

***

ثانيا ــ الكشوف الفلكية :

يدلنا علم الفلك على أن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار فى الدنيا كلها ، منها ما هو أكبر بقليل من الأرض ، ولكن اكثرها كبير جدا ، حتى يمكن أن نضع فى واحد منها ملايين النجوم ، فى مثل حجم الأرض التى نعيش عليها ،ولسوف يبقى فيهمع ذلك مكانخال!!

ان كوننا هذا فسيح جدا . ولكى نفهمه نتصور طائرة خيالية تسـير بسرعة (١٨٦٫٠٠٠) ميلا فى الثانية الواحدة ، وأن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن . ان هذه الرحلة الخياليـة سـوف تستغرق (١٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) سنة ، يضاف الى ذلك أن هذا الكون ليس بمتجمد ، وانما هو يتسع كل لحظة، حتىانه بعد(١٫٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين !! وهكذا لن تسـتطيع هـذه الطائرة الخارقة فى سرعتها الخيالية أن تكمل دورانها حول هذا الكونأبدا ، وانما سوف تظل تواصل رحلتها فى نطاق هذا التوسع الدائم فى الكون(١).

عندما تكون السماء صافية نستطيع أن نرى بالعين المجردة خمسة آلاف من النجوم ، ولكن هذا العدد يتضاعف الى أكثر من (٢٫٠٠٠٫٠٠٠) من النجوم حين نستعمل تلسكوبا عاديا . وأقوى تلسكوب فى العالم هو الذى يوجد فى مرصد (ماؤنت بالومار) فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويستطيع أن يشاهد بلايين من النجوم .

ان الفضاء الكونى فسيح جدا ، تتحرك فيه كواكب لا حصر لها ، بسرعة خارقة ، بعضها يواصل رحلته وحده ، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى ، ومنها ما يتحرك فى شكل مجموعات .و لو انك لاحظت ضوء الشمسالذى يدخل غرفتك من الشباك ، فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار تتحرك وتسير فى الهواء ، فلو استطعت أن تتخيل هذا فى شكل أعظم لأمكنك أن تحظى من الفهم بشىء عن السيارات والكواكب فى الكون ، مع الفرقالهائل المتمثل فى أن ذرات الغبار تتحرك ، ويتصادم بعضها مـع بعض ، ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصـله عن الكواكب الأخرى . ومثلها مثل بواخر عديدة تمشى فى أعالى البحـار متباعدة ، حتى أن احداها لا تعرف شيئا عن الأخرى . ان هذا الكـون

---

(١) هذه هى نظرية اينشتين من الكون . ولكنها ليست الا « قياسا رياضيا » والحقيقة أن الانسان لم يستطع حتى الآن أن يفهم سعة هذا الكون !!

يتألف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم ، تسمى « مجاميع النجوم » وكلها تتحرك دائما ...

***

وأقرب حركة منا هي حركة القمر التى تبعد عنا (٢٤٠٫٠٠٠) ميلا ، وهو يدور حول الأرض ، ويكمل دورته فى مدة تسعة وعشرين يوما ونصف يوم. وكذلك تبعد أرضنا هذه عن الشمس (٩٣٫٠٠٠٫٠٠٠) ميلا ، وهى تدور فى محورها بسرعة ألف ميل فى الساعة ، فى دائرة (١٩٠٫٠٠٠٫٠٠٠)ميلا، وتستكمل هذه الدائرة مرة واحدة فى سنة كاملة . وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض ، وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة . وأبعد هذه الكواكب السيار « بلوتو » الذى يدور فى دائرة (٧٫٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) ميلا حول الشمس . وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمرا أخرى ، وتوجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين ألفا من « النجيمات » ، وآلاف من النجوم ذوات الأذناب ، وشهب لا حصر لها ، وكلها تدور ، وفى وسطها ذلك السيار العملاق الذى نسميه « الشمس » ، وقطرها (٨٦٥٫٠٠٠) ميلا وهى أكبر من الأرض (١٫٢٠٠٫٠٠٠) مرة !!

ثم ان هذه الشمس ليست بثابتة ، أو واقفة فى مكان ما ، وانما هى بدورها ، مع كل هذه السيارات والنجيمات ، تدور فى هذا النظام الرائع ، بسرعة (٦٠٠٫٠٠٠) ميل فى الساعة .. وهناك آلاف من الأنظمة ، غير هذا النظام الشمسى ، يتكون منها ذلكم النظام الذى نسميه « مجاميع النجوم » ، أو المجرات ، وكأنها جميعا طبق عظيم تدور عليه النجوم والكواكب منفردة ومجتمعة ، كما يدور الخذروف الذى يلعب به الأطفال. ومجرات النجوم هذه تتحرك بدورها أيضا ، والمجرة التى يقع فيها نظامنا الشمسى تدور على محورها بحيث تكمل (دورة واحدة) فى (٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) « سنة ضوئية » .

***

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم ، مضروبا هذا العدد فى (٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) ، من الملايين ، وفى كل مجموعة منها يوجد (مائة مليار) من النجوم ، أو أكثر أو أقل ، ويقدرون أن أقرب مجموعة من النجوم ، وهى التى نراها فى الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيزا مداه مائة ألف سنة ضوئية . ونحن — سكان الأرض — نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية ، وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة ، وقطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونان من السنين الضوئية .

ومع هذا الدوران تجرى حركة أخرى ، وهى أن هذا الكون يتسع من كل جوانبه ، كالبالون المتخذ من المطاط ، حين ينفخ فيه الأطفال ، وشمسنا هذه — وهى تدور حول نفسها — تدور بنا أيضا على الحاشية الخارجية للمجرة ، وهى تتباعد عن هذه الحاشية الخارجية بمقدار اثنى عشر ميلا ، كل ثانية ، كما تتبعها فى هذه العملية جميع النجوم الداخلة فى النظام

الشمسى . وهكذا جميع السيارات تسير الى جانب أو آخر ، مع دورانها الخاص طبقا لنظامها ، فمنها ما يسير بسرعة ثمانية أميال فى الثانية ، ومنها ما يسير بسرعة ثلاثة وثلاثين ميلا فى الثانية، ومنها ما يسير بسرعة أربعة وثمانين ميلا فى الثانية . وجميع النجوم ، على هذا النحو ، تبتعد فى كل ثانية ، بسرعة فائقة عن مكانها . هذه الحركة المدهشة تحدث طبقا لنظام وقواعد محكمة ، بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ، ولا يحدث اختلاف فى سرعتها .

***

أن حركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط ، بحيث لا يمكن أن يحدث أدنى تغير فى سرعة دورانها ، حتى بعد مرور قرن من الزمان . وهذا القمر ، الذى يتبع فى حركته الأرض ، يدور فى فلك مقرر ومنضبط ، مع تفاوت يسير جدا ، يتكرر بعد كل ثمانية عشر عاما ونصف عام ، بدقة فائقة ، وتلك هى حال جميع الأجرام السماوية . ويرى علماء الفلك أن مجرات النجوم يتداخل بعضها فى بعض ، فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة ، فى مجرة أخرى مثلها (وتتحرك سياراتها هى الأخرى) ، ثم تخرج منها بسياراتها جميعا ، دون أن يحدث أى تصادم بين سيارات المجرتين .

وان العقل ، حين ينظر الى هذا النظام العجيب ، والتنظيم الدقيق الغريب ، لا يلبث أن يحكم باستحالة أن يكون هذا كله قائما بنفسه ، بل ان هناك طاقة غير عادية هى التى تقيم هذا النظام العظيم ، وتهيمن عليه .

***

الأنظمة المعقدة :

أن هذا النظام الذى يوجد فى العوالم الكبرى ، نجده — فى صورته الكاملة — فى أصغر عالم عرفناه ، فنحن نعرف — طبقا لأحدث معلوماتنا — أن الذرة أصغر عالم ، وأنها قد تناهت فى صغرها حتى لا يمكن أن نشاهدها بالمنظار الذى يكبر الأشياء ملايين المرات ، فهى — بناء على هذا — ليست شيئا ، بل أنها « لا شىء » بالنسبة الى أدنى ما يستطيع البصر الانسانى أن يراه ، ولكن هذه الذرة — مع ما وصفناها به — تحتوى بصورة رائعة على نظام الدوران العجيب ، الموجود فى النظام الشمسى ، فالذرة اسم لمجموعة من الالكترونات، وهذه الالكترونات لا يتصل بعضها ببعض ، وانما يوجد بينها فراغ كبير الحجم (نسبيا) . ولنأخذ مثلا قطعة من الحديد التى توجد فيها الذرات ، متصلا بعضها ببعض اتصالا شديدا . وسنجد أن هذه الالكترونات لا تشغل أكثر من $\frac{١}{١ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠}$ من مساحة الذرة ، وبقية المجال يكون خاليا . ولو أننا أخذنا صورة مكبرة لجزيئين من الالكترون والبروتون فسوف يكون الفاصل بينهما ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين ياردة . ولقد نتصور الذرة ، من حيث هى فى الغبار، غير مرئية ، ومع هذا فان حجم دوران الالكترون داخلها يبلغ حجم كرة قدم قطرها ثمانية أقدام .

والالكترون — الذى هو الجزىء السلبى فى الذرة — يدور حول البروتون — الذى هو الجزىء الايجابى فيها — وهذه الجزيئات التى لا حقيقة لها

أكثر من نقط وهمية سابحة فى الشعاع ، تدور حـــول مركزها ، بنفس النظام الذى تتبعه الأرض فى مدارها حول الشمس ، بحيث لا يمكن تصور وجود الالكترون فى مكان محدود لسرعة دورانه ، وانما هو يتخيل فقط موجودا على طول مداره فى وقت واحد . وذلك لأنه يدور حـــول مداره بلايين المرات فى الثانية الواحدة !!

هذا النظام الذرى يستحيل قيامه بنفسه ، ولا طريق الى مشاهدته ، ولا يمكن تفسير عمله داخل الذرة بغير العلم ، أما وقد تبناه العلم فعلا ، فلماذا لا نأخذ منه دليلا على وجود منظم قائم على هذا التنظيم ؟ انه يستحيل قيام هذا التنظيم فى الذرة دون منظم قائم عليه .

* * *

اننا نتحير اذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التليفون ، ونتحير اذا وجـدنا ان مكالمة من لندن الى ملبورن باستراليا تتم فى بضع ثوان ، فاذا كان تعقيد نظام أسلاك التليفون يوقعنا فى هذه الحيرة ، فما بالنا بنظامنا العصبى ، وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيدا ؟ ! ان ملايين الأخبار تجرى على اسلاك نظامنا العصبى — الذى أوجدته الطبيعة — من جانب الى آخر ، ليل نهار . وهذه الأخبار هى التى توجه القلب فى تدفقها ، وفى حركتها ، وتتحكم فى حركات الأعضاء المختلفة ، وتتحكم فى الحركات الرئوية . ولو لم يكن هذا النظام موجودا فى أجسامنا لصارت الأجسام تلفيقا لأشـــياء مبعثرة تسلك كل منها مسلكها الخاص .

ومركز هذا النظام للمواصلات مخ الانسان ، وفى هذا المخ يوجد الف مليون خلية عصبية ، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر فى سائر الجسم ، وتسمى هذه الأسلاك « الأنسجة العصبية » ، وفى هذه الانسجة يجرى نظام استقبال وارسال للأخبار ، بسرعة سبعين ميلا فى الســـاعة . وبوساطة هذه الأنسجة نتذوق ، ونسمع ، ونرى ، ونباشر سائر أعمالنا ، بل ان هنالك ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة وتسمى Taste Buds. ولكل منها سلك عصبى خاص متصل بالمخ . وبوساطة هذه الشـــعيرات يحس بالمذاقات المختلفة . وتوجد فى الأذن عشرة آلاف خلية سمعية . ومن خلال نظام معقد ، يسرى من هذه الخلايا ، يسمع مخنا . وفى كل عين مائة وثلاثون مليونا من الخلايا الملتقطة للضوء Light Receptors ، وتقوم بمهمة ارسال المجموعة التصويرية الى المخ ، وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جلدنا ، فاذا قربنا الى الجلد شيئا حارا ، فان ثلاثين الفا من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فورا الى المخ . واذا قربنا الى الجلد شيئا باردا ، فان ربع مليون من الخلايا ، التى تلتقط الأشياء الباردة ، تحس به ، وعندئذ يمتلىء المخ بأثرها ، ويرتعـــد الجسم ، وتتسع الشرايين الجلدية ، فيسرع مزيد من الدم اليهـــا ويزودها بالحرارة ، واذا احست هذه الخلايا بحرارة شديدة ، فان مخـــابرات الحرارة توصلها الى الدماغ ، وحينئذ تفرز ثـــلاثة ملايين من الغـــدد العرقية — تلقائيا — عرقا باردا الى خارج الجسم .

والنظام العصبى يشتمل على عدة فروع . منها : «الفرع المتحرك ذاتيا» Autonomic Branch ويقوم بأعمال تحدث ذاتيـــا فى الجســـم ،

كعملية الهضم والتنفس وحركات القلب . ويندرج تحت هذا الفرع نظامان:
أحدهما : « النظام الخالق للحركة » Sympathetic System
والآخر : هو المانع لها Payasympathetic. وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع . ولو ترك الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه ، ولو سيطر النظام الثانى لتوقفت حركة القلب توقفا تاما . واقسام هذين النظامين تباشر أعمالها فى دقة فائقة ، وفى توازن عام ، ولكن هنالك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين ، فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب الى قوة مسعفة ، وعندئذ تزيد سرعة عمليات القلب والرئة ، والنظام الثانى يتغلب عند النوم . فيسود السكون جميع الحركات الجسمية .

تقليد الطبيعة :

أن أحسن الآلات من صناعة الانسان لا يمكن أن تقف أمام النظام العجيب الذى يوجد فى الكون . ولهذا فان تقليد نظام الطبيعة قد أصبح اليوم موضوعا خاصا فى العلم ، يولى أهمية خاصة للسير بالآلات الميكانيكية وفق ذلك النظام . وأصبحنا نرى علما جديدا يسمى « بيونيكس » Bionics لهذه الدراسة . وكانت مقتصرة من قبل على اكتشاف القوى الكامنة فى الطبيعة واستغلالها .

واليوم يسلك النظام البيولوجى سبلا كثيرة للحصول على معلومات تساعد على حل مسائل الهندسة .

ومن أمثلة استغلال نظام الطبيعة فى الصناعة آلة التصوير ، وهى فى الواقع تقليد ميكانيكى لعين الانسان ، فعدسة الكاميرا Lens هى كالشبكة الخارجية للعين ، والحجاب الحاجز Daiphragm هو قزحية العين Iris والفيلم الذى يتأثر بالضوء . انما هو شاشة العين التى توجد فيها خطوط وأشكال مخروطية ترى الأشياء معكوسة (١) .

لقد ابتكرت جامعة موسكو آلة نموذجية لالتقاط وقياس « الذبذبات تحت الصوتية » Infra-Sonic Vibrations . وهذه الآلة تستقبل وتلتقط أخبار الفيضانات والزلازل وما أشبهها من الكوارث قبل حدوثها بمدة تتراوح بين اثنتى عشرة ساعة ، وخمس عشرة ساعة . وهى أقوى من الآلات المستعملة خمس مرات . فمن أين جاء هذا التفكير الى العلماء ؟ لقد استنبطوه من سمكة قنديل البحر ، التى تسمى « هلامى » Jelly Fish فقلد المهندسون أعضاءها ، وهى شديدة الحساسية ، حتى لتحس بالذبذبات تحت الصوتية (٢) !

وهناك أمثلة كثيرة جدا غير هذه يمكن عرضها ، وهى تؤكد أن علماء الطبيعة والتكنولوجيا يقلدون — فى تفكيرهم الحديث — النماذج الحية فى الطبيعة .

---

(١) لن يجرؤ صاحب علم منا ان يدعى أن آلة التصوير جاءت عن نفسها ، دون اختراع انسانى . ولكن الكثيرين من علمائنا يعتقدون أن « العين » جاءت عن صدفة واتفاق محض !

(٢) Soviet Land, Delhi, Dec. 1963.

وقد شغلت بال العلماء مسائل كثيرة من أزمان مضت ، على حين حلتها الطبيعة منذ زمن بعيد . وان كانتأجهزة التصوير وتلقى الأخبار«التليبرنتر» لا يمكن وجودها بغير عقل انسانى ، فمن المستحيل أن نتصور أن نظام الكون — الذى هو أكثر تعقيدا من أى نظام — قد قام بنفسه بغير عقل وراءه ، بل لابد أن له مهندسا منظما — هو الاله ، ولا يمكن أن يتصور العقل نظاما دون منظم ، فليس من اللامعقول أن نعتقد بوجود منظم للكون ، بل ان من اللامعقول أن ننكر خالق هذا النظام ، فالحقيقة أن العقل الانسانى لا يملك أساسا عقليا لانكار الاله .

ثالثا — روح الكون الغريبة :

ليس الكون كسلة المهملات ، وانما هو منطو على روح غريبة . وهذه الروح لا يمكن أن تصدر الا عن عقل قام بخلق الكون ، ويقوم بتدبيره .

وليس من الممكن أن يوجد نظام وروح فى عملية مادية عمياء ، حدثت اتفاقا ، فالكون متوازن ، ومتناسب الى حد لا يمكن تصوره . لقد قال « شادفاش Chadvalsh : « ان من الممكن أن نسأل أى رجل — مؤمنا بالله كان أو منكرا له — نسأله أن يثبت كيف يمكن أن يكون هذا التوازن فى صالحه ، اذا كان الكون قد وجد بمحض الصدفة ؟ »(١) .

لابد للحياة فوق الأرض من أحوال كثيرة ، يستحيل اجتماعها بنسبها الخاصة رياضيا . ولكننا نجد أن هذه الحالات المستحيل اجتماعها رياضيا موجودة على سطح الأرض فعلا . وذلك يحتم علينا أن نؤمن بأن هنالك طاقة عظيمة عاقلة وراء الكون ، هى المتسببة فى وجود هذه الحالات .

* * *

التوازن المدهش فى الأرض :

الأرض أهم عالم عرفناه ، اذ توجد فيها أحوال لا توجد فى شىء من هذا الكون الواسع ، وهى فى ضخامتها (كما تبدو لنا) لا تساوى ذرة من هذا الكون العظيم ، ولو أن حجمها كان أقل أو أكثر ، مما هى عليه الآن لاستحالت الحياة فوقها ، فلو أنها كانت فى حجم القمر مثلا ، بأنكان قطرها ربع قطرها الموجود فعلا . لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية ، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها ، كما هى الحال فى القمر ، الذى لا يوجد فيه ماء ولا يحوطه غلاف هوائى ، لضعف قوة الجاذبية فيه . وانخفاض الجاذبية فى الأرض الى مستوى جاذبية القمر سيترتب عليها اشتداد البرودة ليلا حتى يتجمد كل ما فيها ، واشتداد الحرارة نهارا حتى يحترق كل ما عليها .

وكذلك يترتب على نقص حجم الأرض الى مستوى حجم القمر انها لن تمسك مقدارا كبيرا من الماء . وكثرة الماء أمر ضرورى لاستمرار الاعتدال الموسمي على الأرض ، ومن ثم أطلق أحد العلماء على هذه العملية لقب « عجلة التوازن العظيمة » Great Balance Wheel (٢) وكذلك

---

(١) The Evidence of God, p. 88.

(٢) The Evidence of God, p. 88.

سيرتفع الغلاف الهوائى للأرض فى الفضاء ثم يتلاشى . ويتبع ذلك أن تبلغ درجة حرارة الأرض أقصى معدلها ، ثم تنخفض الى أدنى درجاتها ، على ما سبق ذكره .

وعلى العكس من ذلك ، اذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى لتضاعفت جاذبيتها الحالية ، وحينئذ ينكمش غلافها الجوى — الذى هو على بعد خمسمائة ميل — الى ما دون ذلك . وسيترتب على هذا أن يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلا الى ثلاثين من الضغط الجوى، وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر فى الحياة .

ولو أن الأرض تضاعف حجمها ، فصارت مثل حجم الشمس مثلا ، لبلغت قوة الجاذبية فيها مثل جاذبيتها الحالية مائة وخمسين مرة ، ولاقترب غلافها الهوائى ، حتى يصير منها على بعد أربعة أميال فقط ، بدلا من خمسمائة ميل ، ولارتفع الضغط الجوى الى معدل طن واحد على كل بوصة مربعة . وذلك يؤدى الى استحالة نشأة الأجسام الحية ، وهو من الناحية النظرية يعنى أن يصير وزن الحيوان الذى يزيد رطلا واحدا — تحت الكثافة الهوائية الحالية — خمسمائة رطل . كما يهبط حجم الانسان حتى يصير فى حجم فأر كبير ، ولاستحال وجود العقل فى الانسان ، لأنه لابد للعقل الانسانى من أنسجة عصبية كثيرة فى الجسم ، ولا يوجد هذا النظام الا اذا كان حجم الجسم بقدر معين .

****

نحن قائمون على الأرض ظاهرا ، ولكن الأصح أن نقول : نحن ملقون على رؤوسنا ، ولتوضيح ذلك نقول : ان الأرض مثل كرة معلقة يسكنها الانسان، فوضع الناس بعضهم بالنسبة الى بعض على هذه الكرة ، أن سكان أمريكا سيكونون تحت سكان أهالى الهند ، وسكان الهند سيكونون تحت أقدام سكان أمريكا .

فأرضنا هذه ليست بثابتة ، وانما هى تدور بسرعة مقدارها ألف ميل فى الساعة ، وذلك يجعل وضعنا فوقها أشبه بحصاة وضعت على محيط عجلة تدور بسرعة ، يوشك أن تقذف بها فى الفضاء ، ولكن الأرض لا تقذفنا ، بل نحن مستقرون عليها ، فكيف تمسكنا وهى تدور بهذه السرعة ؟ !! ..

ان فى الأرض جاذبية غير عادية ، وهى بهذه الجاذبية تشد كل شىء اليها، فجاذبية الأرض وضغط الهواء المستمر يمسكاننا فوقها بنسبة معلومة ، وهكذا صرنا مشدودين بهاتين العمليتين الى كرة الأرض من كل ناحية .

وضغط الهواء الذى يكون على كل بوصة مربعة ما يقرب من ١٥ رطلا معناه : أن كل انسان يتحمل ما يقرب من ٢٢٨ر٤٠ رطلا من الضغط الجوى على جسمه ، ولكن الانسان لا يحس بهذا الوزن ، لأن الهواء يضغطه من كل ناحية ، كما يحدث عندما نسبح فى الماء . ثم أن الهواء — وهو علم معين مركب من الغازات — ذو فوائد كثيرة ، لا يمكن حصرها فى كتاب .

****

لقد توصل نيوتن ، من خلال مشاهداته ومطالعاته ، الى أن الأجسام يجر

بعضها بعضا ، ولكنه لم يستطع تعليل هذا ، ولذا سلم بأنه لا تفسير لديه لهذه العملية .

ولقد ذكر هذه المسألة « وهايت هيد » قائلا :

« لقد كشف نيوتن — حين سلم بهذا — عن حقيقة فلسفية عظيمة ، هى أن الطبيعة لو كانت بغير روح فلن تفسر نفسها ، كما أن الشخص الميت لا يستطيع أن يحكى لنا واقعا . ان جميع التفسيرات الطبيعية والمنطقية لم تزد أخيرا على أن تكون اظهارا لهدف ، لأن الميت لا يمكن أن يكون حامل[1] أهداف » .

وسوف أدفع حديث (وهايت هيد) الى الأمام قائلا : انه اذا لم يكن هذا الكون تحت سلطان « وجود ذى ادراك » فلماذا توجد فيه هذه الروح المدهشة ؟

* * *

أن الأرض تتم دورة واحدة حول محورها ، فى كل أربع وعشرين ساعة. ومعنى ذلك أنها تسير حول محورها بسرعة ألف ميل فى الساعة ، فاذا فرضنا أن هذه السرعة انخفضت الى مائتى ميل فى الساعة ، لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات ، بالنسبة الى ما هى عليه الآن ، ويترتب على ذلك أن تحرق الشمس — بشدة حرارتها — كل شىء فوق الأرض ، وما بقى بعد ذلك ستقضى عليه البرودة الشديدة فى الليل .

وهذه الشمس ، التى نعدها اليوم وسيلة حياتنا ، تبلغ حرارة سطحها اثنى عشر ألف درجة فهرنهيت ، والمسافة بينها وبين الأرض تبلغ ما يقرب من ٩٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ميلا . وهذا البون الهائل دائم ، لا يتغير أبدا بزيادة أو نقص ، وفى ذلك عبرة عظيمة لنا ، لانه لو نقص ، واقتربت الشمس من الأرض ، بمقدار النصف ، مثلا ، من الفاصل الحالى ، فسوف يحترق الورق على الفور من حرارتها ، ولو بعد هذا الفاصل ، فصار ضعف ما هو عليه الآن فان البرودة الشديدة التى تنجم عن هذا البعد ، سوف تقضى على الحياة فى الأرض ، ولو أنه حل محل الشمس سيار آخر غير عادى ، يحمل حرارة تزيد على حرارة الشمس عشرة آلاف مرة ، فسوف يجعل من الأرض تنورا رهيبا .

ثم ان هذه الأرض دائرة فى الفضاء ، وهى تؤدى عملها بزاوية ٢٣° درجة الأمر الذى تنشأ عنه المواسم ، ويترتب عليه صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة والسكنى ، فلو لم تكن الأرض على هذه الزاوية لغمر الظلام القطبين طول السنة ، ولسار بخار البحار شمالا وجنوبا ، ولما بقى على الأرض غير جبال الثلج ، وفيافى الصحراوات ، وهكذا تنجم مؤثرات كثيرة تجعل الحياة على ظهر الأرض مستحيلة .

* * *

فلو كان قياس العلماء صحيحا ، وهو : أن المادة قد نظمت ذاتها على هذه الهيئة المناسبة المتوازنة ، فما أعجب هذا القياس ، وما أكثر اثارته

---

(1) The Age of Analysis, p. 85.

للدهشة !! . يقولون : ان الأرض انشقت من الشمس ، ومعنى هذا : أن درجة حرارتها كانت فى مبدأ أمرها ، نفس حرارة الشمس ، وهى أثنا عشر الف درجة فهرنهيت ، ثم بدأت الأرض تبرد ، اذ لا يمكن اتصال الأوكسجين بالهيدروجين الا بعد أن تنخفض الحرارة الى أربعة آلاف فهرنهيت — وفى هذه المرحلة وجد الماء ، وهكذا استمرت عمليات التقلب على سطح الأرض ملايين السنين ، حتى جاءت الأرض فى صورتها الحالية ، منذ أكثر من بليون سنة مضت ، وذهبت الغازات من فضاء الأرض الى فضاء الكون،وتحولت بقايا الغازات بعد ذلك الى المركب المائى،أو انجذبت الى الأشياء الأرضية ، أو بقيت فى صورة الهواء ، وأكثرها فى صورة الأوكسجين أو النتروجين . وهذا الهواء ، فى كثافته ، يعد جزءا واحدا من ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ من أجزاء الأرض . ولم تنجذب كل الغازات الى الأرض ، كما أنها كلها لم تتحول الى (هواء) . ولو أنه حدث ، لاستحالت حياة الانسان ، فلو أننا فرضنا المستحيل ، ووجدت الحياة فى ظروف كهذه — تتحمل فيها البوصة المربعة آلاف الأرطال من الضغط الجوى — لكان من المستحيل أن توجد الحياة فى صورة الانسان الحالية .

ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكا ، بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالى ، لما وجد الأوكسيجين ، (١) وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية .

وكذلك لو كانت البحار أعمق بضعة أقدام ، أكثر من القاع الحالى ، لانجذب (ثانى أكسيد الكربون) ، والأوكسيجين(٢) ، ولاستحال وجود النباتات على الأرض ، فضلا عن الحياة .

ولو كان الغلاف الهوائى للأرض ألطف مما هو عليه الآن ، لاخترقت النيازك كل يوم غلاف الأرض الخارجى ، ولرأيناها مضيئة فى الليل ، ولسقطت على كل بقعة من الأرض وأحرقتها ، فهذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلا فى الثانية ، ونتيجة لهذه السرعة العظيمة ، فانها ستحرق كل شىء يمكن احتراقه على الأرض ، حتى تصبح الأرض غربالا فى وقت ليس ببعيد . .

فلولا أن غلاف الأرض الهوائى يقينا من هذه الشهب لاحترقنا . فان سرعتها أكثر من سرعة طلقة البندقية تسعين مرة كما أن حرارتها الشديدة كافية لاهلاك كل شىء ، بما فيه الانسان . فنحن اذن فى حماية هذا الغلاف الكثيف الموزون ، الذى لا تخترقه « الأشعة الشمسية ذات الأهمية الكيماوية » Actinic Rays الا بالقدر الذى يكفى لحياة النبات ، وايجاد الفيتامينات ، والقضاء على الجراثيم الضارة ، وما الى ذلك . .

ان هذا التوازن للكميات ، المحتاج اليها ، عجيب جدا ، فالغلاف الذى فوق الأرض مكون من ستة غازات ، منها ٧٨ فى المائة من النتروجين ، و ٢١ فى المائة من الأوكسجين ، والغازات الأخرى توجد بنسبة قليلة ، وهذا الغلاف يضغط الأرض بنسبة ١٥ رطلا فى البوصة المربعة ، ونسبة الأوكسيجين فى هذا الضغط ٣ أرطال فى البوصة المربعة ، والمقادير الأخرى للأوكسيجين الموجود اليوم قد انجذبت الى الأرض ، وهى تمثل ٨ر٠ من الماء الموجود

(١) اذ ان القشرة الأرضية ستمتص حينئذ الأوكسجين .

(٢) حتى يمتصهما الماء .

على سطح الأرض ، والأوكسيجين هو الوسيلة الوحيدة لتنفس سائر حيوانات الأرض ، ولا طريق الى ذلك من غير الفضاء .

***

قانون الضغط والتوازن :

وهنا يظهر سؤال هام ، وهو : كيف تجمعت هذه الغازات الشديدة الحركة ، مع احتفاظها بمقاديرها المتناسبة ، التى لابد منها للحياة ، فى الفضاء ؟

والجواب : انه لو كانت نسبة الأوكسيجين ٥٠٪ ، أو أكثر ، بدلا من ٢١٪ ، لزادت قابلية الاحتراق ، بما يساوى ارتفاع هذه النسبة ... فاذا احترقت شجرة واحدة فى غابة ، حينما تكون نسبة الأوكسجين ٢١٪ ، فان الانفجار الخاطف ، الناجم عن ارتفاع هذه النسبة الى ٥٠٪ يجعل احتراق الغابة كلها أمرا حتميا ، فى لحظات !

ولو أن هذه النسبة انخفضت ، فأصبحت ١٠٪ ، لكان من الممكن ،على مدى القرون ، أن تعتاد الحيوانات الحياة مع انخفاض نسبة الأوكسيجين الى هذا الحد ، ولكنه يكون من المستحيل أن تزدهر الحضارة الانسانية ، كما هى عليه فى الظروف الحالية (١) .

ولو أن الأوكسيجين الموجود على سطح الأرض انجذب مع الأوكسيجين، الذى انجذب قبل ذلك فى الأرض ، لكان من المستحيل (الوجود الحيوانى الحسى) .

ان الاوكسيجين والهيدروجين وثانى أوكسيد الكربون ، وغازات الكربون الأخرى ، على اختلاف أشكالها ، تتركب معا فتصبح عناصر عظيمة الأهمية للحياة الحيوانية ، وللأسس التى تقوم عليها الحياة الانسانية ، وبناء عليه لا يوجد احتمال $\frac{١}{١٠,٠٠٠,٠٠٠}$ أن تجتمع ، هذه الغازات فى تناسبها المطلوب وبجميع خصائصها اللازمة للحياة ، على كوكب معين ، بطريق الصدفة .

ولذلك يقول أحد كبار علماء الطبيعة :

«Science has no explanation to offer for the facts, and to say it is 'accidental' is to defy mathematics.»

« أن العلم لا يملك أى تفسير للحقائق ، والقول بأنها حدثت « اتفاقا » انما يعتبر تحديا وتصادما مع الرياضيات » .

ان هناك وقائع كثيرة جدا ، لا طريق لنا الى فهمها أو تفسيرها ، الا اذا سلمنا بأن للعقل يدا عليا فى احداثها ..

---

(١) اذ ان أعضاء الجسم الانسانى على فرض وجودها فى هذه الحالة لن تتمكن فى تلك الظروف من مواصلة عملها كعادتها اليوم فى الظروف المتاحة فعلا ، وذلك لاستحالة وجود الانسجة والخلايا البدنية والعقلية الدقيقة فى ظل تلك الظروف ، لانه كلما قل الاوكسجين قل النشاط الجسمانى والعقلى .

فمن الخصائص المهمة التى توجد فى الماء : أن كثافة الثلج Density تقل بنسبة كبيرة عن كثافة الماء ، فالماء اذن مادة معلومة ، تقل كثافتها بعد التجمد،ولهذا الأمر قيمة عظيمة بالنسبة الى الحياة،اذ يترتب على هذه الخاصة ان الثلج يطفو على سطح الماء ، ولا ينزل الى قاع البحار والأنهار ، ولولا ذلك ، لكان الماء كله قد تجمد فى البحار ، والأنهار ، والخزانات المائية ، ان الثلج يقوم بدور الحاجب للماء الذى تحته ، كما تبقى حرارته دون درجة التجمد ، فتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة . فاذا ما جاء موسم الربيع ذاب الثلج ، ولولا خاصة الثلج هذه لعانى سكان الأقطار الباردة الكثير من المتاعب والمصائب ، الناجمة عن عدم ذوبان الثلج.

* * *

لقد أصاب مرض الاندوثيا Endothia فى أوائل القرن العشرين ، أشجار (شاه بلوط) الثمينة فى غابات أمريكا ، وانتشر بسرعة فائقة ، فقال بعض من رأى تلك المواضع الخربة الكبيرة فى « مظلة الغابات » : انها لن تمتلىء أبدا !!

ولم يكن أى نوع من الأشجار — حتى ذلك الحين — قد انتزع هذا الامتياز الذى كان خاصا بهذا النوع من أشجار البلوط ، ذات الأخشاب الثمينة الغالية ، حتى كان يلقب : « ملك أشجار الغابات الأمريكية » ، قبل وصول وباء الأندوثيا من آسيا سنة ١٩٠٠ م تقريبا .

أما الآن ، فلا توجد هناك أية آثار لشاه بلوط ، ذلك الشجر العظيم ، فى الغابات الأمريكية . ولكن سرعان ما امتلأت تلك المواضع فى غابات أمريكا بنوع آخر من الأشجار ، يسمى : « التيوليب » ، كانت لا تحتل من الغابات الا حيزا صغيرا ، ولم تكن مزدهرة .

لقد انتهزت أشجار « التيوليب » هذه الفرصة ، فازدهرت وحلت محل شاه بلوط . واليوم لا يتذكر أى تاجر أخشاب امريكى وجود أشجار شاه بلوط ، لقد حلت محلها أشجار « التيوليب » ، التى تتضخم كل سنة بنسبة بوصة واحدة فى الجذع ، وترتفع ست بوصات فى الفروع والأغصان، كما تعطى خشبا ممتازا يستعمل فى جميع الصناعات الدقيقة .

* * *

ومن الأحداث العلمية الهامة التى وقعت فى هذا القرن ما حدث فى استراليا .. لقد زرعوا نوعا خاصا من « الصبار » فى مزارعها لكى يحميها ، ولم يكن فى استراليا أى نوع من الدودة يعادى ويأكل هذا النبات ذا الشوك ، فأخذ ينتشر انتشارا رهيبا ومروعا ، حتى استولى على منطقة توازى مساحة جزر بريطانيا كلها ، لقد هاجم الصبار القرى والمدن ، وخرب المزارع والحقول ، حتى استحالت الزراعة ، ولم يتمكنوا من استئصاله بأية طريقة لقد أصبح جيشا جبارا ، يزحف لكى يسيطر على استراليا كلها ، وهى لا تجد ما تقاوم به ، واستمرت هذه الحال ، حتى خرج علماء الحشرات ، يبحثون عن دودة تأكل الصبار . فاكتشفوا دودة لا تعيش الا عليه ، ولا غذاء لها سواه ، وقد كان نسلها يزيد بسرعة ، ولا عدو لها فى حشرات استراليا ، وسرعان ما تغلبت هذه الدودة الصغيرة على جيش الصبار العظيم ، وانتهت مصائب استراليا !! .

أيمكن أن يكون هذا القانون — « قانون الضبط والتوازن Checks and Balances قد حدث دون تخطيط واع، هكذا صدفة واتفاقا؟!

السنن الرياضية المحكمة :

وفى الكون سنن رياضية محكمة ، بصورة تدعو الى الدهشة والاكبار ، وحتى المادة الجامدة ، التى لا تملك شعورا ، لا يمكن أن تجرى على غير نظام ، وانما هى تتبع قوانين صارمة معلومة ، ولفظ الماء ، أينما كان الماء على هذه الأرض الواسعة ، لن يكون معناه سوى مادة سائلة تحتوى على ١١ر١١٪ من الهيدروجين ، و ٨٨ر٨٩ من الأوكسيجين . ولذلك يستطيع أى عالم يجرى عملية تسخين الماء فى معمله أن يقول بكل قطعية : أن درجة حرارة غليان الماء هى (١٠٠) سنتى جراد ، دون أن يرى مقياس الحرارة ، ما دام ضغط الهواء ٧٦٠ م.م. فاذا كان ضغط الهواء أقل ، فسوف نحتاج طاقة أقل لتوفير الحرارة التى تدفع جزئيات الماء . وتعطيها صورة البخار . وحينئذ سوف تنخفض درجة غليان الماء ، وعلى العكس ، لو كان ضغط الهواء اكثر من ٧٦٠ م.م. فستزداد درجة غليان ، بمقدار زيادة ضغط الهواء . لقد جربوا هذه العملية مرارا ، الى أن تمكنوا من البت فى أمر الغليان ، حتى قبل تسخين الماء ، والتنبؤ بدرجة غليانه دون استعمال المقياس . ولو لم يكن هذا النظام والضبط فى المادة وعمليات الطاقة ، لما وجد الانسان أسسا يقيم عليها كشوفه ومنجزاته ، العلمية . ولولا هذا النظام والضبط لحكمت عالمنا الاتفاقات والصدف المحضة ! ولكان من المستحيل على علماء الطبيعة أن يقولوا : انه بمباشرة عمل ما فى حالة معينة تحصل نتيجة كذا . .

نظام العناصر والدورية :

ان أول شيء يشاهده الطالب فى معمل الكيمياء هو نظام العناصر ودوريتها ، وقد وضع العالم الروسى « ماندليف » خريطة للعناصر الكيماوية ، بمقاديرها الجوهرية ، وسميت بـ « الخريطة الدورية » Periodic Chart ، وفى ذلك الوقت لم تكن كل العناصر قد تم كشفها ، حتى تملأ كل الخانات الموجودة فى الخريطة ، فتركها « ماندليف » خالية ، الى أن ملأها العلماء فيما بعد ، كما تخيلها العالم الروسى من قبل كشفها بسنين طويلة ، وهذه الخريطة تحوى جميع العناصر الجوهرية بأرقام وقوائم مختلفة . ومعنى الأرقام الجوهرية هو العدد الخاص الذى يوجد فى مركز الذرة ، من الشحنات الكهربائية الايجابية « البروتون » ، وهذا العدد هو الفارق بين ذرة عنصر وذرة عنصر آخر ، فالهيدروجين ، الذى نعتبره أبسط عنصر يوجد فى مركز ذرته شحنة واحدة من الكهربية الايجابية ، وكذلك توجد فى العنصر المسمى « هليم » شحنتان ، وفى « ليثم » ثلاث شحنات . وما كان لنا أن نتمكن من وضع خرائط العناصر المختلفة الا بناء على قوانينها الرياضية العجيبة . وهل هناك مثال للضبط أفضل من أننا عثرنا على العنصر رقم (١٠١) بمجرد معرفة شحناته الكهربية الخمسة عشر ؟ !!

ليس من الممكن أن يطلق العلماء على هذا النظام الرائع فى الطبيعة عبارة : « الصدفة الدورية » Periodic Chance ، وانما هو

« القـــــانون الدورى » Periodic Law. وليس من الممكن أن نتنكر لما تطلبه هذه الضوابط والنظم من وجود اله ومهندس .. فان عدم ايمـان العلم الحديث بالاله انكار فى الواقع لكشوفه كنتيجة حتمية !

* * *

« سوف يحدث كسوف للشمس يوم ١١ أغسطس سنة ١٩٩٩ م ، ويمكن رؤيته كاملا فى كورنفال »(١) ، ليس هذا مجرد تنبؤ قياسى ، ولكن علمـاء الفلك يؤمنون بأنه لابد من هذا الكسوف ، بناء على نظام دوران الشمس الموجود حاليا .

ولكم نتحير عندما نرفع أعيننا الى السماء ، ونشاهد الكواكب والنجوم التى لا حصر لها ، أن هذه الكرات السماوية ، التى لا تزال معلقة فى الفضاء ، منذ قرون لا نعرف عدتها ، تدور فى الفضاء الفسيح السحيق على نظـام معين معلوم بحيث يمكننا معرفة جميع الوقائع المستقبلة قبـل وقوعهـا بقرون . انه نظـام لا مثيل له . من الذرة الى قطرة المـاء الى الكواكب السحيقة فى أجواز الفضاء .. نظام تستنبط على أساسه قوانين علمية !

أن نظرية « نيوتن » تفسر دوران الكرات الفلكية ، وبناء على هـذه النظرية استطاع العالمان : آدمز ولافريير أن يتنبآ بوجود كوكب ، لم يكن معروفا وجوده فى وقتهما ، وبناء على قولهما وجه مرصد برلين فى ليلة من ليالى سبتمبر سنة ١٨٤٦ تلسكوبا الى الجهة التى أشار اليها ، وسرعان ما وجد رجال المرصد الكوكب الذى نسميه اليوم (السيار نبتون) ، فى أسرة الشمس !!

* * *

خصائص حكيمة :

أن أبعد الأمور عن القياس ، وأعظمها استحالة ، هو أن نؤمن بأن الكون وقطعيته . . الرياضية ، قد جاء نتيجة « صدفة » !

فمن الخصائص الحكيمة فى هذا الكون كونه صالحا لتصرفات الانسان عند الضرورة ، ولنأخذ النتروجين على سـبيل المثـال .. فـان ٧٨٪ من النتروجين توجد فى كل هبة من الرياح ، وكذلك توجد فى أجزاء كيمـاوية أخرى ، ونسميها حينئذ « النتروجين المركب » ، وهذه كلها يستغلهـا النبات لكى يهيىء لنا الجزء النتروجينى فى غذائنا ، فلولا هذه العملية ، لهلك الحيوان والانسان ، وكل ما يعتمد على النبات فى أكله جوعا وفاقة ، فان أى نبات غذائى لا ينمو بدون هذا التحليل الكيماوى .

أن هناك طريقتين لا ثالثة لهما ، لتحليل النتروجين فى الأرض ،والطريقة الأولى : هى « العملية الجرثومية » ، وتقوم بأدائها الجراثيم التى تعيش فى جذور الشجرة تحت الأرض ، وهذه الجراثيم تأخذ النتروجين من الهواء ، وتصنع منه « النتروجين المركب » ، ويبقى هذا النتروجين تحت الأرض ، بعد الحصاد ، مع الجذور . وأما العملية الثانية التى تصنع النتروجين

---

(١) بلدة فى جنوب غربى انجلترا (المراجع) .

المركب فهى (الرعد) .. فكلما احتك الرعد فى الفضاء ، مزج شيئا من الأوكسجين فى النتروجين ، ويصل هذا النتروجين المركب الى الحقول عن طريق الأمطار التى تلى العملية ، والكمية التى تحصلها الحقول من هـذا المركب بسهولة ، كل سنة ، هى ما يقرب من خمسة أرطال لكل « ايكر »(١) من الأرض وهى تساوى ثلاثمائة رطل من نترات الصوديوم(٢)

ولكن هذه الكمية من النتروجين المركب لا تكفى ، لأن الحقول التى تزرع لمدة طويلة ينفذ ما فيها منه . ولذلك نرى الزراع يحولون المواسم الزراعية من حقل لآخر ، بعد وقت معلوم . وأعجب ما حدث فى هذا القرن — عندما ضاقت الأرض بما رحبت على سكانها ، وقل النتروجين لكثرة الزراعة ، وخافت الانسانية من القحط والفاقة — اكتشفنا فى هذه المرحلة الخطيرة « طريقة ثالثة » لاستمداد النتروجين من الهواء ، وكانت الجهود الأولى ، التى بذلت فى هذا الصدد ، أنهم جربوا عملية خلق رعد صناعى فى الفضاء باستعمال آلات قوتها ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ حصان ، غير أنهم لم ينجحوا الا فى صناعة كمية ضئيلة من النتروجين المركب . وتقدم الانسان بهذه التجارب، حتى كشف الطريق الثالثة ، وهى استخدام الهواء فى صناعة النتروجين المركب ، فى صورة (السماد) .. وهكذا استطاع أن يهيىء لغذائه جزءه الضرورى ، الذى لولاه لهلك جوعا . وهذا حدث عجيب فى تاريخ الأرض، فان الانسان كشف للمرة الأولى فى تاريخه حلا لأزمة الغذاء ، وابتعدت أشباح الكارثة عن سكان الأرض ، حين كان من المستحيل أن يتجنبوها !!

* * *

ان هناك أمورا كثيرة تؤكد وجود الحكمة والروح فى الكون ، وكل مالدينا من علم يؤكد لنا أن ما قد كشف أقل بكثير مما لم نستطع حتى الآن الكشف عنه ! وبرغم ذلك فان ما كشفه الانسان كثير جـدا ، حتى اننا لو أردنا فهرسة عناوين هذه العلوم ، فسنحتاج الى سفر ضخم جدا ، بالنسبة الى هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء ، وسوف يبقى بعد ذلك أيضا الكثير منها دون فهرسة ..

ان كل ما يمكن للسان الانسانى أن يلفظه عن آلاء الله وآياته سوف يكون غاية فى النقص ، فمهما فصلناها وأسهبنا فى تفسيرها ، فسنخرج آخر الأمر مقتنعين بأننا لم نحط بها ، وانما تناولنا منها « بعض الشىء » .

والحق انه لو قدر أن تتكشف للانسان جميع العلوم الكونية ، ثم يجلس سكان المعمورة ، وقد هيئت لكل فرد منهم جميع الوسائل ، فى أكمل صورها، فان هؤلاء جميعا لن يستطيعوا تدوينها أبدا .. أليس هذا هو مصداق قوله تعالى :

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » . وقوله تعالى : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا »(٣) !

---

(١) مقياس انجليزى لسطح الأرض ، وهو أقل من (فدان) المراجع .

(٢) Lyon, Buckman and Brady, The Nature and Properties of Soils.

(٣) لقمان /٢٧ والكهف /١٠٩ .

أن كل من أتيحت له الفرصة كى يطالع صفحة من هذا الكون ، سيعترف مصدقا أنه لا مبالغة فى هذه الكلمات الالهية ، وانمـا هى تعبير بسـيط عن الحقائق الموجودة فعلا .

* * *

صدفة أم عمليات حكيمة ؟

أن معارضى الدين يسلمون بكل ما طرحناه فى الصفحات المـاضية من الأنظمة العجيبة ، والحكمة غير العادية ، والروح التى تسرى فى الكون ، ولكنهم يفسرونها بطريقة أخرى ، انهم عاجزون عن أن يجـدوا فيهـا رمزا أو اشارة لمنظم ومدبر .. فاذا بهم يرون أن كل هـذا جاء نتيجـة « صدفة محضة » .

واستمع الى قول « هكسلى » :

« لو جلست سـتة من القردة على آلات كاتبـة ، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين ، فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخـيرة التى كتبوها قصيدة من قصـائد شكسبير ! فكذلك كان الكون ؛ الموجود الآن ، نتيجة لعمليات عمياء ، ظلت تدور فى « المادة » ، لبلايين السنين »(١) .

ان أى كلام من هذا القبيل « لغو مثير » ، بكل ما تحويه هذه الـكلمة من معان ، فان جميع علومناتجهل — الى يوم الناس هذا — أية صـدفة أنتجت واقعا عظيما ذا روح عجيبة ، فى روعة الكون ، فنحن نعرف بعض الصدف ، وما ينشأ عنها من آثار ، فعندما تهب الرياح تصـل « حبوب اللقاح » من وردة حمراء الى وردة بيضاء ، فتأتى بوردة صفراء .. هذه صدفة لا تفسر قضيتنا الا تفسيرا جزئيا استثنائيا . فان وجود الوردة فى الأرض بهذا التسلسل ، ثم ارتباطها المدهش مع نظام الكون ، لا يمكن تفسيره بهبة رياح صدفة . انها تأتى بوردة صفراء ولكنها لا تأتى بالوردة نفسها ! ان الحقيقة الجزئية الاستثنائية التى توجد فى مصطلح « قانون الصدفة » باطلة كل البطلان ، اذا ما أردنا تفسير الكون بها .

يقول البروفيسور ايدوين كونكلين :

« ان القول بأن الحياة وجدت نتيجة « حادث اتفاقى » شبيه فى مغـزاه بأن نتوقع اعداد معجم ضخم ، نتيجة انفجار صدفى يقع فى مطبعة »(٢) .

وقد قيل : ان تفسير الكون بوساطة (قانون الصدفة) ليس « بكلام فارغ » . بل هو كما يعتقد السير جيمس جينز ينطبق على « قوانين الصدفة الرياضية المحضة »
(٣) Purely Mathematical Laws of Chance

ويقول احد العلماء الأمريكيين :

« ان نظرية الصدفة ليست افتراضا ، وانما هى نظرية رياضية عليا ، وهى تطلق على الأمور التى لا تتوفر فى بحثها معلومات قطعية ، وهى

---

(١) The Mysterious Universe, pp. 3-4.
(٢) The Evidence of God, p. 174.
(٣) Mysterious Universe, p. 3.

تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق ، وللتدقيق فى امكان وقوع حادث من نوع معين ، وللوصول الى نتيجة ، هى معـــرفة مدى امكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة »(١) !

* * *

ولو افترضنا أن المادة وجدت بنفسها فى الكون ، وافترضنا أيضا أن تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها (ولست أجد أساسا لأقيم عليـه هذه الافتراضات) ففى تلك الحال أيضا لن نظفر بتفسير الكون ، فان « صدفة » أخرى تحول دون طريقنا . فلسوء حظنا : أن الرياضيات التى تعطينا نكتة « الصدفة » الثمينة ، هى نفسها التى تنفى اى امكان رياضى فى وجود الكون الحالى ، بفعل قانون الصدفة .

لقد استطاع العلم الكشف عن عمر الكون وضخامة حجمه ، والعمر والحجم اللذان كشف عنهمـــا العلم الحديث غير كافيين فى اى حال من الأحوال ، لتسويغ ايجاد هذا الكون عن قانون الصدفة الرياضى .

ويمكننا أن نفهم شيئا عن قانون الصدفة من المثال التالى :

« لو تناولت عشرة دراهم ، وكتبت عليها الأعداد ، من ١ الى ١٠ ، ثم رميتها فى جيبك ، وخلطتها جيدا ، ثم حاولت أن تخرجها من الواحد الى العاشر بالترتيب العددى ، بحيث تلقى كل درهم فى جيبك بعد تناوله مرة أخرى . فامكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه(٢) فى المحاولة الأولى هو واحد على عشرة ، وامكان أن تتناول الدرهمين (١ ، ٢) بالترتيب ، واحد فى المائة ، وامكان أن تخرج الدراهم (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) بالترتيب هو واحد فى العشرة آلاف .. حتى ان الامكان فى أن تنجح فى تنـــاول الدراهم ١ الى ١٠ بالترتيب واحد فى عشرة بلايين من المحاولات » ! .

لقد ضرب هذا المثال العالم الأمريكى الشهير « كريسى موريسن » ، ثم استطرد قائلا :

«ان الهدف من اثارة مسألة بسيطة كهذه ، ليس الا ان نوضح كيف تتعقد « الوقائع » بنسبة كبيرة جدا فى مقابل « الصدفة »(٣) .

* * *

ولنتأمل الآن فى أمر هذا الكون ، فلو كان كل هذا بالصدفة والاتفاق ، فكم من الزمان استغرق تكوينه بناء على قانون الصدفة الرياضى ؟ .

ان الأجسام الحية تتركب من « خلايا حية » ، وهذه (الخلية) مركب صغير جدا ، ومعقد غاية التعقيد ، وهى تدرس تحت علم خاص يسمى « عـــلم الخـــلايا » Cytology . ومن الأجزاء التى تحتوى عليها هـــذه الخلايا : البروتـــين ، وهو مركب كيماوى من خمســـة عناصر ، هى :

---

(١) The Evidence of God, p. 23.

(٢) Man Does not Stand Alone p. 17.

(٣) Man Does not Stand Alone, p. 17.

الكربون ، والهيدروجين ، والنتروجين ، والأوكسيجين ، والكبريت .. ويشمل الجزىء البروتينى الواحد أربعين ألفا من ذرات هذه العناصر !!

وفى الكون أكثر من مائة عنصر كيماوى ، كلها منتشرة فى أرجائه ، فأية نسبة فى تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون فى صالح قانون « الصدفة »؟ أيمكن أن تتركب خمسة عناصر — من هذا العدد الكبير — لايجاد «الجزىء البروتينى » بصدفة واتفاق محض ؟ اننا نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضى ذلك القدر الهائل من (المادة) الذى سنحتاجه ، لنحدث فيه الحركة اللازمة على الدوام ، كما نستطيع أن نتصور شيئا عن المدة السحيقة التى سوف تستغرقها هذه العملية .

لقد حاول رياضى سويسرى شهير ، هو الأستاذ (تشارلز بوجين جواى) أن يستخرج هذه المدة عن طريق الرياضة .. فانتهى فى أبحاثه الى أن (الامكان المحض) فى وقوع الحادث الاتفاقى — الذى من شأنه أن يؤدى الى خلق كون ، اذا ما توفرت المادة — هو واحد على $\frac{١٦٠}{١٠}$ (أى : ١٠ × ١٠ مائة وستين مرة) . وبعبارة أخرى : نضيف مائة وستين صفرا الى جانب عشرة !! وهو عدد هائل لا يمكن وصفه فى اللغة .

ان امكان حدوث الجزىء البروتينى عن (صدفة) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن فى سائر الكون ، حتى يمكن تحريكها وضخها ، وأما المدة التى يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية ، فهى أكثر من $\frac{٢٤٣}{١٠}$ سنة(١) ! .

ان جزىء البروتين يتكون من « سلاسل » طويلة من الأحماض الأمينية Amino-Acids وأخطر ما فى هذه العملية هو الطريقة التى تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض ، فانها لو اجتمعت فى صورة غير صحيحة لأصبحت سما قاتلا ، بدل أن تصبح موجدة للحياة .

لقد توصل البروفيسور ج.ب. ليتز G.B. Leathes الى أنه يمكن تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من $\frac{٤٨}{١٠}$ صورة وطريقة . وهو يقول : انه من المستحيل تماما أن تجتمع هذه السلاسل — بمحض الصدفة — فى صورة مخصوصة من هذه الصور التى لا حصر لها ، حتى يوجد الجزىء البروتينى الذى يحتوى أربعين ألفا من أجزاء العناصر الخمسة التى سبق ذكرها .

ولابد أن يكون واضحا للقارىء أن القول بالامكان فى قانون الصدفة الرياضى لا يعنى أنه لابد من وقوع الحادث الذى ننتظره ، بعد تمام العمليات السابق ذكرها ، فى تلك المدة السحيقة ، وانما معناه أن حدوثه فى أثناء تلك المدة محتمل ، لا بالضرورة ، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة ألا يحدث شىء ما بعد تسلسل العملية الى الأبد ! .

* * *

(١) أى : مائتان وثلاثة وأربعون صفرا أمام عشر سنين . (المترجم) .

هذا الجزىء البروتينى ذو وجود « كيماوى » ، لا يتمتع بالحيـــاة الا عندما يصبح جزءا من الخلية ، فهنا تبدأ الحياة ، وهذا الواقع يطرح أهم سؤال فى بحثنا : من أين تأتى الحرارة ، عندما يندمج الجزىء بالخلية ؟ ... ولا جواب عن هذا السؤال فى أسفار المعارضين الملحدين .

ان من الواضح الجلى أن التفســـير الذى يزعمه هؤلاء المعارضون ، متسترين وراء قانون الصدفة الرياضى ، لا ينطبق على الخلية نفسها ، وانما على جزء صغير منها ، هو الجزىء البروتينى وهو ذرة لا يمـــكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش : وفى جسد كل فرد منا ، ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا !! .

لقد أعد العالم الفرنسى « الكونت دى نواى » Cotme de Nouy بحثا وافيا حول هذا الموضوع ، وخلاصة البحث : أن مقادير (الوقت ، وكمية المادة ، والفضاء اللانهائى) التى يتطلبها حدوث مثل هذا الامكان هى أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن ، وأكثر من الوقت الذى استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض ، وهو يرى : أن حجم هذه المقادير الذى سنحتاج اليه فى عمليتنا لا يمكن تخيله أو تخطيطه فى حدود العقل الذى يتمتع به الانسان المعـــاصر ، فلأجل وقوع حادث — على وجـــه الصدفة — من النوع الذى ندعيه ، سوف نحتاج كونا يسير الضوء فى دائرته $\frac{٨٢}{١٠}$ سنة ضوئية (أى : ٨٢ صفرا الى جانب عشرة سنين ضوئية !!) وهذا الحجم اكبر بكثير جدا من حجم الضوء الموجود فعلا فى كوننا الحالى، فان ضوء أبعد مجموعة للنجوم فى الكون يصل الينا فى بضعة (ملايين) من السنين الضوئية فقط .. وبناءا على هذا ، فان فكرة أينشتين عن اتساع هذا الكون لا تكفى أبدا لهذه العملية المفترضة .

أما فيما يتعلق بهذه العملية المفترضة نفسها ، فاننا سوف نحرك المادة المفترضة فى الكون المفترض ، بسرعة خمسمائة (تريليون) حركة ، فى الثانية الواحدة ، لمدة $\frac{٢٤٣}{١٠}$بليون سنة (٢٤٣ صفرا أمام عشرة بلايين) ، حتى يتسنى لنا حدوث امكان فى ايجاد جزىء بروتينى يمنح الحياة .

ويقول « دى نواى » فى هذا الصدد :

« لابد الا ننسى أن الأرض لم توجد الا منذ بليونين من السنين ، وأن الحياة — فى أى صورة من الصور — لم توجد الا قبل بليون سنة ، عندما بردت الأرض »(١) .

هذا ، وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه ، واثبتت الدراسة فى هذا الموضوع أن كوننا موجود منذ ٥ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سنة .. وهى مدة قصيرة جدا ، ولا تكفى على أى حال من الأحوال لخلق امكان ، يوجد فيه الجزىء البروتينى ، بناء على قانون الصدفة الرياضى .

وأما ما يتعلق بأرضنا التى ظهرت عليها الحياة ، فقد عرفنا عمـــرها بصورة قاطعة ، فهذه الأرض كما يعتقـــد العلماء ، جزء من الشمس ،

---

(١) Human Destiny, pp. 30-36.

انفصل عنها نتيجة لصدام عنيف وقع بين الشمس وسيار عملاق آخر ، ومنذ ذلك الزمان أخذ هذا الجزء يدور فى الفضاء ، شعلة من نار رهيبة ، ولم يكن من الممكن ظهور الحياة على ظهره حينئذ لشدة الحرارة ، وبعد مرور زمن طويل أخذت الأرض تبرد ، ثم تجمدت وتماسكت ، حتى ظهر امكان بدء الحياة على سطحها .

ونستطيع معرفة عمر الكون بشتى الطرق ، وأحسن طريقة عرفناها لهذه الدراسة ، هى التى توصلنا اليها بعد كشف « العناصر المشعة » Radio-Active Eelements ، فان الذرات الكهربية تخرج من هذه العناصر بنسبة معلومة بصفة دائمة ، وهذا « التحلل » Disintegration يقلل الذرات الكهربية فى هذه العناصر ، لتصبح تلقائيا عناصر غير مشعة عبر الزمان ، واليورانيوم أحد هذه العناصر المشعة ، وهو يتحول الى معدن (الرصاص) بنسبة معينة نتيجة لتحلل الذرات الكهربية ، وهذه النسبة فى الانتشار لا تتغير تحت أى ظرف ، من أدنى أو أقصى درجات الحرارة أو الضغط ، ولهذا سنكون على صواب لو اعتبرنا أن سرعة تحول اليورانيوم الى (الرصاص) محددة وثابتة لا تتغير .

ان قطع اليورانيوم توجد فى كثير من الهضبات والجبال ، ومما لا شك فيه أن هذا اليورانيوم هو جزء من ذلك الجبل ، منذ أن تجمد فى شكله الأخير ، عند تجميد الأرض .. وعلى جانب هذا اليورانيوم نجد قطعا من الرصاص ، ولا نستطيع أن ندعى أن كل هذا الرصاص نتج عن تحلل اليورانيوم . والسبب فى هذا أن الرصاص الذى يتكون من تحللاليورانيوم يكون أقل وزنا من الرصاص العادى ، وبناء على هذه القاعدة الثابتة يمكننا أن نجزم بما اذا كانت أية قطعة من الرصاص من اليورانيوم ، أو أنها قطعة رصاص عادى ، ونحن هنا نستطيع أن نحتسب المدة التى استغرقتها عملية تحلل اليورانيوم بدقة ، فهو يوجد فى الجبل من أول يوم تجمد فيه ، ونستطيع بذلك معرفة مدة تجمد الجبل نفسه ! .

لقد أثبتت التجارب أنه قد مر ألف وأربعمائة مليون سنة على تجمد تلك الجبال ، التى تعتبر — علميا — أقدم جبال الأرض ، وقد يظن البعض منا أن عمر الأرض يزيد ضعفا أو ضعفين عن عمر هذه الجبال ، ولكن التجارب العلمية تنفى بشده هذه الظنون الشاذة ، ويذهب البروفيسور (سوليفان) الى أن « المعدل المعقول » لعمر الأرض هو ألفا مليون سنة(١) ! .

* * *

ولنتأمل الآن ، بعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح ، تحتاج الى بلايين البلايين من السنين ، حتى يتسنى مجرد امكان لحدوث (جزىء بروتينى) فيها بالصدفة ! فكيف اذن جاءت فى هذه المدة القصيرة فى شكل مليون من أنواع الحيوانات ، وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ ألف نوع من النبات ؟ وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض ، فى كل مكان ؟ ثم كيف جاء من خلال هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذىنسميه « الانسان » ؟ ولا أدرى كيف نجرؤ على مثل هذه الاعتقادات ، فى حين

(١) J.W. U. Sullivan, Limitations of Science, p. 78.

اننا نعرف جيدا أن نظرية النشوء والارتقاء تقوم على أساس « تغيرات صدفية محضة » ؟ ! وأما هذه التغيرات ، فقد حسبها الرياضى « باتو » Patau ، وانتهى الى أن اكتمال « تغير جديد » فى جنس ما ، قد يستغرق مليونا من الأجيال(١) :

فلنفكر فى أمر (الكلب) الذى يزعمون أنه جد (الحصان) الأعلى ، كم من المدة ، على قول الرياضى باتو سوف يستغرقها الكلب ، حتى يصبح حصانا ؟ ! .

وما أصح ما قاله عالم الأعضاء الأمريكى مارلين ب. كريدر :

« ان الامكان الرياضى فى توفر العلل اللازمة للخلق — عن طريق الصدفة — فى نسبها الصحيحة ، هو ما يقرب من « لا شىء »(٢) .

***

لقد أطلت فى هذا البحث حتى نتبين مدى سخافة فكرة الخلق بالصدفة، وبطلانها ، ولست — فى الحق — أشك فى أنه يستحيل وجود الجزىء البروتينى والذرة عن الصدفة ، كما لا يمكن أن يكون عقلك هذا — الذى يتأمل فى أسرار الكون وخفاياه — من ثمار الخلق الصدفى ، مهما بالغنا فى افتراضاتنا عن المدة الطويلة التى استغرقتها عملية المادة فى الكون . ونظرية الخلق هذه ليست مستحيلة فى ضوء قانون الصدفة الرياضى فحسب ، وانما هى لا تتمتع بأى وزن منطقى فى نفس الوقت .

وأى كلام من هذا القبيل سخيف وملىء بالصلافة .. ومثاله كمن يزعم أن سقوط كوب مملوء بالماء أو بالقهوة سوف يرسم خريطة العالم على الأرض ! لا مانع من أن أسأل هذا الرجل : من أين جاء بهذا الفرش الأرضى ، والجاذبية ، والماء ، والكوب ، حتى يقع هذا الاتفاق الغريب ؟ ! .

***

ولقد ولغ عالم البيولوجيا « هيكل » Haekel فى زعمه حين قال :

« ايتونى بالهواء ، وبالماء وبالأجزاء الكيماوية ، وبالوقت ، وسأخلق الانسان » . ولكن « هيكل » نسى أو تجاهل فى هذه المقالة : أنه بتقريره احتياجه الى المادة والأحوال المادية ، ينفى زعمه من تلقاء نفسه !

يقول الأستاذ « كريسى موريسن »(٣) فى هذا الصدد :

« ان هيكل يتجاهل فى دعواه : الجينات الوراثية ، ومسألة الحياة نفسها ، فان أول شىء سيحتاج اليه عند خلق الانسان ، هو الذرات التى لا سبيل الى مشاهدتها ، ثم سيخلق (الجينات) ، أو حملة الاستعدادات الوراثية ، بعد ترتيب هذه الذرات ، حتى يعطيها ثوب الحياة .. ولكن امكان الخلق فى هذه المحاولة بعد كل هذا ، لا يعدو واحدا على عدة

---

(١) The Evidence of God, p. 117.

(٢) Ibid, p. 67

(٣) رئيس أكاديمية العلوم الأمريكية بنيويورك (سابقا) — المترجم .

بلايين ، ولو افترضنا أن « هيكل » نجح فى محاولته ، فانه لن يسميها « صدفة » ، بل سوف يقررها ، ويعدها نتيجة لعبقريته »(١) .

* * *

ولنختم هذا البحث بقول عالم الطبيعة الأمريكى « جورج ايرل ديفيس»:

(لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه ، فان معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق ، وفى هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الاله .. وهكذا ننتهى الى التسليم بوجود (الاله) ، ولكن الهنا هذا سوف يكون عجيبا : الها غيبيا وماديا فى آن واحد !! اننى أفضل أن أؤمن بذلك الاله الذى خلق العالم المادى ، وهو ليس بجزء من هذا الكون ، بل هو حاكمه ومديـــره ومدبره ، بدلا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات »(٢) .

---

(١) Man Does not Stand Alone, p. 87.

(٢) The Evidence of God, p. 71.

الباب الخامس

دليل الآخرة

من أهم الحقائق التى يدعونا الدين الى الايمان بها : فكرة الآخرة . والمراد بها : أن هناك عالما آخر غير عالمنا الحاضر ، وسوف نعيش فى ذلك العالم خالدين ، وأن عالمنا هذا هو مكان للاختبار والابتلاء ، وجد فيه الانسان لأجل معلوم ، وأن الله سوف ينهى هذا العالم حين يحين أجله ، لبناء العالم الآخر ، على طراز جديد ، وأن الناس سوف يبعثون مرة أخرى ، وسوف تعرض أعمالهم — خيرا أو شرا — على محكمة الله ، الذى يجزى كل انسان بما عمل فى الحياة الدنيا .

أهذه النظرية صحيحة ؟ أم هى باطلة ؟ وهل هناك امكان لهذه الآخرة ؟ .. سوف نعرض هنا بعض جوانب القضية .

* * *

اولا — امكان الآخرة :

ليكن الجانب الأول من هذا العرض ، هو البحث عن « امكان » وقوع الآخرة . فهل هنالك وقائع واشارات تصدق هذه الدعوى ؟

ان فكرة (الآخرة) تقتضى — أول ما تقتضى — ألا يكون الانسان والكون، فى شكلهما الحالى أبديين ، وقد علمنا فى الصفحات الماضية — بمالا يدع مجالا للشك — أن أبدية الكون والانسان مستحيلة ، وأيقنا ، يقينا لا يتزعزع ، بأن الانسان يموت ، وأن الكون سينتهى طبقا لقانون «الطاقة المتاحة » . ولست أدرى اذا ما كان هناك طريق للنجاة من هذه النهاية المروعة .

* * *

(أ) مسألة الموت :

ان الذين لا يؤمنون بالعالم الثانى — الآخرة — يحاولون بدافع الغريزة أن يجعلوا من هذا الكون عالما أبديا لأفراحهم ، ولذلك بحثوا كثيرا عن أسباب « الموت » ، حتى يتمكنوا من الحيلولة دون وقوع هذه الأسباب ، من أجل تخليد الحياة ، ولكنهم أخفقوا اخفاقا ذريعا ، وكلما بحثوا فى هذا الموضوع ، رجع اليهم بحثهم برسالة جديدة عن حتمية الموت ، وانه لا مناص منه .

« لماذا الموت ؟ » .. هناك ما يقرب من مائتى اجابة عن هذا السؤال الخطير ، الذى كثيرا ما يطرح فى المجالس العلمية ، منها :

(فقـدان الجسم لفاعليته) ، (انتهاء عمليـة الأجزاء التركيبية) ، (تجمد الأنسجة العصبية) ، (حلول المواد الزلالية القليلة الحركة ، محل الكثيرة الحركة منها) ، (ضعف الأنسجة الرابطة) ، (انتشار سموم « بكتريا »الأمعاء فى الجسم) .. وما الى ذلك من الاجابات التى تتردد كثيرا حول ظاهرة الموت .

ان القول بفقدان الجسم لفاعليته جذاب للعقل .. فان الآلات الحديدية والأحذية والأقمشة كلها تفقد فاعليتها بعد أجل محدود ، فأجسامنا أيضا تبلى وتفقد فاعليتها كالجلود التى نلبسها فى موسم الشتاء . ولكن العلم الحديث لا يؤيدنا ، لأن المشاهدة العلمية للجسم الانسانى تؤكد : أنه ليس كالجلود الحيوانية ، والآلات الحديدية ، وليس كالجبال .. وأن أقرب شىء يمكن تشبيهه به هو ذلك (النهر) الذى لا يزال يجرى منذ آلاف السنين على ظهر الأرض فمن ذا الذى يستطيع القول بأن النهـر الجارى يبلى ويهن ويعجز ؟ ! بناء على هذا الأساس يعتقد الدكتور « لنس بالنج »(١) أن الانسان أبدى ، الى حد كبير ، نظريا ، فان خلايا جسمه آلات تقوم باصلاح ما فيه من الأمراض ومعالجتها تلقائيا ! وبرغم ذلك فان الانسان يعجز ويموت ، ولا تزال علل هـذه الظاهرة أسرارا تحير العـلماء .

ان جسمنا هذا فى تجدد دائم ، وان المواد الزلالية ، التى توجد فى خلايا دمائنا ، تتلف كذلك ثم تتجدد ، ومثلها جميع خلايا الجسم ، تموت وتحل مكانها خلايا جديدة ، اللهم الا الخلايا العصبية . وتفيد البحوث العلمية أن دم الانسان يتجدد تجددا كليا خلال ما يقرب من أربع سنين ، كمـا تتغير جميع ذرات الجسم الانسانى فى بضع سنين . ونخرج من هـذا بأن الجسم الانسانى ليس كهيكل ، وانما هو كالنهر الجارى ، أى أنـه « عمل مستمر » . ومن ثم تبطل جميع النظريات القائلة بأن علة الموت هى وهن الجسم وفقده لقوته ، فانالأشياء التى فسدت أو تسممت من الجسم أيام الطفولة أو الشباب قد خرجت من الجسم منذ زمن طويل ، ولا معنى لأن نجعلها سبب الموت ، فسبب الموت موجود فى مكان آخر ، وليس فى الأمعاء والانسجة البدنية والقلب .

ويدعى بعض العلماء أن الأنسجة العصبية هى سبب الموت ، لأنهـا تبقى فى الجسم الى آخر الحياة ولا تتجدد . ولو صح هذا التفسير القائل بأن النظام العصبى هو نقطة الضعف فى الجسم الانسانى ، فمن الممكن أن نزعم أن أى جسم خال من (النظام العصبى) لابد أن يحيا عمرا أطول من الأجسام ذات النظام العصبى ، ولكن المشاهدة العلمية لا تؤيدنا ، فان هذا النظام لا يوجد مثلا فى الأشجار ، وبعضها يعيش لأطول مدة ، ولكن شجرة القمح التى لا يوجد بها هذا النظام العصبى لا تعيش أكثر من سنة ، وليس فى كائن « الأميبا » جهاز عصبى ، وهى مع ذلك لا تبقى على قيد الحياة أكثر من نصف ساعة ، ومقتضى هذا التفسير أيضا أن تلك الحيوانات التى تعد من (نسل أعلى) ، والتى تتمتع بنظام عصبى أكمل واجود ، لابد أن تعيش مدة أطول من تلك التى هى أحقر نسلا وأضعف

---

(١) وهو حائز على جائزة نوبل للعلوم .

نظاما . ولكن الحقائق لا تؤيدنا فى هذا أيضا ، فان السلحفاة والتمساح وسمكة « باتيك » أطول عمرا من أى حيوان آخر ، وكلها من النوع الثانى — حقير النسل ، وضعيف النظام .

* * *

لقد أخفقت تماما تلك البحوث التى استهدفت أن تجعل من الموت أمرا غير يقينى ، يمكن ألا يقع ، فبقى الاحتمال ، الذى أكدته الأزمان ، وهو أن يموت الانسان فى أى عمر ،وفى أى زمن ، ولم نستطع العثور على أى امكان يمنع الموت ، رغم جميع الجهود .

لقد بحث الدكتور « الكسيس كيرل » هذه المشكلة فى مقال طويل بعنوان « الزمن الداخلى » ، فذكر الجهود المخفقة التى بذلت فى هذا الصدد ، ثم قال :

« ان الانسان لن يسأم أبدا من البحث عن (الخلود) والسعى وراءه، مع أنه لن يظفر به الى الأبد ، فتركيبه الجسمانى يخضع لقوانين معينة، انه يستطيع أن يوقف الزمن (الفسيولوجى) لأعضاء الجسد ، حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة ، ولكنه لن يتغلب على الموت أبدا »(١) .

(ب) ظواهر وأمثلة طبيعية :

فى ضوء هذه الوقائع لم تعد مسألة نهاية العالم غير مفهومة ، فنحن على علم بالقيامات الصغرى التى تقع على سطح الأرض ، وهى التى ستحدث مرة أخرى على نطاق أوسع ، حتى تشمل الأرض المأهولة كلها .

ان الظاهرة الأولى التى تنذرنا بامكان القيامة هى الزلازل .. فبطن الأرض يحتوى على مادة شديدة الحرارة ، نشاهدها عندما ينفجر البركان ، وهذه المادة تؤثر على الأرض بشتى الطرق ، فمنها ما تصدر عنه أصوات مروعة رهيبة ، وما نحس به من الهزات الأرضية ، التى نسميها « الزلازل » انها لا تزال كلمة رهيبة فى حياة الانسان المعاصر ، رغم تقدم العلوم والتكنولوجيا ، كما كانت رهيبة فى حياة الانسان القديم . هذه الزلازل هى حملة الطبيعة ضد الانسان ، الذى لا يملك ازاءها شيئا ، فالخيار كله فى يد الفريق الأول . ان الانسان لا يملك شيئا يقاوم به الزلازل،فهى نذير يذكره دائما بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة جهنمية، لا يفصله عنها سوى قشرة جبلية رقيقة ، لا يزيد سمكها عن خمسين كيلو مترا ، وهذه القشرة ليست ، بالنسبة الى الكرة الأرضية ، الا بمثابة القشرة من ثمرة التفاح .

يقول عالم الجغرافيا (جورج جاموف) : « أن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء ، ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان ، وبكلمة أخرى : نحن واقفون على ظهر لغم « ديناميت » عظيم ، ومن الممكن أن ينفجر فى أى وقت ، ليدمر النظام الأرضى بأكمله »(٢) .

---

(١) Man the Unknown, p. 175.

(٢) Biography of the Earth, p. 62.

وهذه الزلازل تجتاح جميع نواحى الأرض ، ولا تخلو الجرائد أى صباح من أخبارها ، ولكن يكثر وقوعها فى الأماكن التى توجد بها البراكين لاعتبارات جغرافية . وأقدم زلزال رهيب سجله التاريخ هو زلزال اقليم (شنسى) الصينى ، الذى وقع عام ١٥٥٦ م . ولقى أكثر من ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة مصرعهم فى هذه الكارثة . وقد وقع زلزال فى « لشبونة » عاصمة البرتغال عام ١٧٥٥ م ، فدمر المدينة كلها ، وأباد ثلاثين ألفا من الناس فى ست دقائق . وقد قيل : أن هذا الزلزال هز ربع أوروبا . ومن هذا النوع من الزلازل ما وقع فى ولاية (آسام) الهندية عام ١٨٩٧ م ، وهو يعد من الزلازل الخمسة الكبرى فى التاريخ ، فقد أحدث دمارا وخرابا عظيمين فى منطقة كبيرة من شمالى الهند ، كما غير اتجاه النهر العملاق (برهام بوترا) ، وطفرت هضبة (ايفرست) بجبال الهملايا ، فارتفعت مائة قدم !

ان هذه الزلازل (قيامة) على نطاق غير واسع .. فعندما تنفجر الأرض بصوتها المخيف ، ودويها الرهيب ، وعندما تتساقط الجدران ، وسقف الأبنية المسلحة الفخمة ، حتى كأنها أوراق « الكوتشينة » وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها ، وأسفلها أعلاها ، وعندما تحل الخرائب الموحشة محل المدن العامرة الكبرى فى ثوان معدودة ، وعندما تسير طوابين النعوش ، وتتراكم على ساحات المدن وطرقها تراكم الأسماك على ساحل البحر — فتلكم هى قيامة الزلزال .

وفى تلك اللحظة يشعر الانسان بعجزه أمام قوى الطبيعة ، فان الزلازل لا تقرع أبواب المدن الا بغتة ، دون سابق اذن أو انذار ، والبلية كل البلية فى أن الانسان لا يستطيع أن يتنبأ بمكان الزلازل ، ولا بموعد وقوعها ، وهى فى نفسها تنبىء عن قيامة كبرى ، سوف تفجؤنا غداة يوم على غرة منا ، ان هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق الأرض قادر على تدميرها ، كما يشاء .

وهذه هى حال الفضاء الخارجى ، فالكون فضاء لا حدود له ، تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها ، هى (السيارات والنجوم) ، ومثالها كملايين الخذاريف(١) التى تدور على سطح معين بأقصى سرعة يمكن تخيلها . وهذا الدوران يمكن أن يتحول فى أى يوم الى صدام عظيم لا يمكن تصوره . وفى تلك اللحظة الرهيبة يكون ما فى الكون أشبه بآلاف من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية ، وهى تواصل رحلتها فى الجو ، ثم تصطدم كلها مرة واحدة ! ان اصطدام الأجرام السماوية ليس بغريب مطلقا ، بل الغريب حقا هو عدم وقوع هذا الاصطدام ، فدراسة علم الفلك تؤكد امكان اصطدام الأجرام السماوية ، والحديث عن وجود النظام الشمسى يدور حول وقوع صدام كبير بين بعض الأجرام السماوية قديما ، فاذا استطعنا أن نتصور هذا التصادم على نطاق أوسع لاستطعنا أن نفهم جيدا ذلك (الامكان) الذى نحن بصدده .. فهذا الواقع هو بعينه ما نسميه .. « القيامة » .

---

(١) جمع خذروف ، وهى لعبة من الخشب ، مخروطية الشكل ، يسميها الاطفال(النحلة) (المراجع)

ان فكرة (الآخرة) التى تقرر أن نظام الكون الموجود حاليا سوف يدمر يوما ، لا تعنى سوى أن واقع الكون ، الذى نشاهده فى صورة صغيرة أولية ، سوف يتجلى يوما فى صورة نهائية كبرى . فالقيامة حقيقة معلومة فى أعماقنا ، ونحن اليوم نعرفها فى حد (الامكان) ، ولسوف نلقاها غدا فى صورة الواقع .

* * *

(ج) الحياة بعــد الموت :

المسألة الثانية فى هذا البحث هى مسألة الحياة بعد الموت .

« هل هناك حياة بعد الموت ؟؟ » هذا سؤال يتردد دائما فى العقــل الحديث ، ثم يستطرد قائلا : « لا ... لا حياة بعد الموت ، لأن الحياة التى أعرفها لا توجد الا فى ظروف معينة من تركيب العناصر المادية . وهذا التركيب الكيماوى لا يوجد بعد الموت ، اذن فلا حياة بعد الموت » .

ويعتقد « ت. ر. مايلز » بأن : « البعث بعد الموت حقيقة تمثيلية ، وليس بحقيقة لفظية » . ثم يضيف قائلا :

« انها قضية قوية عندى أن الانسان يبقى حيا بعد الموت ، وهــذه القضية من الممكن — لفظيا — أن تكون حقيقة ، وهى قابلة لاختبار صحتها أو بطلانها بالتجربة ، ولكن المسألة الرئيسية فى طريقنا هى أننا لا نملك وسيلة لمعرفة الاجابة القطعية عن هذا السؤال الا بعد الموت ، ولذلك يمكننا أن نقيس » .

وحيث ان قياسه لا يصدق هذه القضية ، فهى ليست بحقيقة لفظية . وقياسه كما يلى :

« بناء على علم الأعصاب (Neurology) لا يمكن معرفة العالم الخارجى، والاتصال به ، الا عندما يعمل الذهن الانسانى فى حالته العادية ، وأما بعد الموت ، فهذا الادراك مستحيل ، نظرا الى بعثرة تركيب النظـــام الذهنى»(١) .

ولكن هناك قياسات أخرى أقوى من هذا القياس ، وهى تؤكد أن بعثرة الذرات المادية فى الجسم الانسانى لا تقضى على الحياة ، فان « الحياة » شىء آخر ، وهى مستقلة بذاتها ، باقية بعد فناء الذرات المادية وتغيرها.

ومن المعلوم أن الجسم الانسانى يتألف من أجزاء (ذرات) ، تسمى « الخلايا » ، ومفردها : خلية (Cell) . وهى ذرات صغيرة جدا ومعقدة، يزيد عددها فى الجسم الانسانى العادى ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٢٦٠ خلية. ويبدو أن هذه الخلايا مثل الطوب الصغير ، ينبنى منه هيكل أجسامنا . ولكن الفرق بين طوب أجسامنا والطوب الطينى شاسع جدا . فطوب الطين الذى يستخدم فى العمارات يبقى كمـــا هو — نفس الطوب الذى صنع فى المصنع ، واستخدم فى البناء للمرة الأولى .. بينما يتغير طوب هياكلنا فى كل دقيقة ، بل فى كل ثانية ، ان خلايا أجسامنا تنقص بسرعة ،

---

(١) Religion and Scientific Outlook, p. 206.

كالآلات التى تتآكل باحتكاكها واستهلاكها ، ولكن هذا النقص يعوضه الغذاء ، فهو يهيىء للجسم قوالب الطوب التى يحتاج اليها بعد نقص خلاياه واستهلاكها(١) . فالجسم الانسانى يغير نفسه بنفسه بصفة مستمرة ، وهو كالنهر الجارى المملوء دائما بالمياه ، لا يمكن أن نجد به نفس الماء الذى كان يجرى فيه منذ برهة ، لأنه لا يستقر ، فالنهر يغير نفسه بنفسه دائما ، ومع ذلك فهو نفس النهر الذى وجد منذ زمن طويل ، ولكن الماء لا يبقى ، بل يتغير .

وجسمنا مثل النهر الجارى ، يخضع لعملية مستمرة ، حتى انه يأتى وقت لا تبقى فيه أية خلية قديمة فى الجسم ، لأن الخلايا الجديدة أخذت مكانها . هذه العملية تتكرر فى الطفولة والشباب بسرعة ، ثم تستمر بهدوء ملحوظ فى الكهولة . ولو حسبنا معدل التجدد فى هذه العملية فسوف نخرج بأنها تحدث مرة كل عشر سنين . ان عملية فناء الجسم المادى الظاهرى تستمر ، ولكن الانسان فى الداخل لا يتغير ، بل يبقى كما كان: علمه ، وعاداته ، وحافظته ، وأمانيه ، وأفكاره ، تبقى كلها كما كانت. انه يشعر فى جميع مراحل حياته بأنه هو « الانسان السابق » ، الذى وجد منذ عشرات السنين ، ولكنه لا يحس بأن شيئا من أعضائه قد تغير، ابتداء من أظافر رجليه حتى شعر رأسه .

ولو كان الانسان يفنى بفناء الجسم ، لكان لازما أن يتأثر على الأقل بفناء الخلايا وتغيرها الكامل ، ولكننا نعرف جيدا أن هذا لا يحدث ، وهذا الواقع يؤكد أن « الانسان » أو « الحياة الانسانية » شىء آخر غير الجسم ، وهى باقية رغم تغير الجسم وفنائه ، **وهو كنهر مستمر فيه سفر الخلايا بصفة دائمة !** وهذا هو الأمر الذى دعا عالما أن يصف الانسان:بشىء مستقل بذاته ، وباق غير متغير،رغم التغيرات المتسلسلة. فهو يعتقد :

« ان الشخصية هى عدم التغير فى عالم التغيرات » — «Personality is Changelessness in Change»

ولو كان الموت فناء « للانسان » ، فمن الممكن أن نقول — بعد كل مرحلة من مراحل حدوث هذا التغير الكيماوى الذى يجرى فى الجسم — ان الانسان قد مات ، وانه يعيش حياة أخرى جديدة بعد موته ! ومعناه أن الرجل الذى أراه فى الخمسين من عمره ، وهو يمشى فى الشارع على رجليه ، قد مات خمس مرات فى هذه الحياة القصيرة ، فاذا لم يمت هذا الانسان بعد فناء أجزاء جسمه المادية خمس مرات ، فكيف أستطيع أن أعتقد بأنه مات فى المرة السادسة على وجه اليقين ؟ ولا سبيل له الآن الى الحياة ؟

ان بعض الناس لن يسلموا بهذا الاستدلال ، وسيقولون : ان العقل، أو الوجود الداخلى الذى نسميه « انسانا » ليس بشىء آخر ، ولم يوجد الا نتيجة علاقة الجسم بالعالم الخارجى ، وان الأفكار والأمانى لا توجد

---

(١) لم نشبه الخلية بالطوب الا لشبه ظاهرى ، والحقيقة أن « الخلية » عملية معقدة للغاية ، وهى فى ذاتها جسم كامل ، ويبحث منها فى علم الخلايا Cystology.

خلال العمل المادى الا كالحرارة التى توجد نتيجة احتكاك قطعتين من حديد !

ان الفلسفة الحديثة تنكر (الروح) بشدة ، ويعتقد السير جيمز : أن « الشعور » لا يوجد كوحدة Entity ، وانما هو وظيفة Function ، وتفاعل وتنسيق Process .. وقد أصر الكثيرون من فلاسفتنا المحدثين على أن (الشعور) فى ذاته ليس الا التفاعل والرد العصبى لما يحدث من حركة ونشاط فى العالم الخارجى . وبناء على هذه النظرية لا مجال للتساؤل عن امكان الحياة بعد الموت ، نظرا لتحلل النظام الجسمانى ، ولأن المركز العصبى فى الجسم لم يعد له وجود ، وهو الذى كان يتفاعل وينسق مع العالم الخارجى ، وهم يعتقدون بناءا على هذا أن نظرية الحياة بعد الموت أصبحت غير ذات أساس عقلى أو واقعى .

سوف أقول : انه لو كانت هذه هى حقيقة الانسان ، فلنجرب أن نخلق انسانا حيا ذا شعور ، ونحن ــ اليوم ــ نعرف بكل وضوح جميع العناصر التى يتألف منها جسم الانسان ، وهذه العناصر توجد فى الأرض وفى الفضاء الخارجى ، بحيث يمكننا الحصول عليها ، وقد علمنا دقائق بناء النظام الجسمانى ، وعرفنا هيكله وأنسجته ، ولدينا فنانون مهرة يستطيعون أن يصنعوا أجساما كجسم الانسان ، بكل مواصفاتها ، فلنجرب ــ لو كان معارضو الروح يصرون على حقيقة مبدئهم ــ ولنصنع مئات من أمثال هذه الأجسام ، ولنضعها فى شتى الميادين ، فى بقعة الأرض الفسيحة ، ثم لننتظر ذلك الوقت الذى تمشى فيه هذه الأجسام وتتكلم وتأكل « بناء على تأثيرات العالم الخارجى » ؟ !

* * *

فهذا عن امكان بقاء الحياة بعد الموت .

ثانيا ــ ضرورة الآخرة :

لنفكر الآن فى الأسباب التى أقام الدين عليها دعوته الى الايمان بهذه النظرية : ان الحياة ، كما نتصور ، ليست « غدوا ورواحا » ، كما يراها الفيلسوف الألمانى (نيتشه) ، والتى تمتلىء وتخلو كالساعة ، ولا هدف لها أكثر من ذلك .. ان الحياة « الآخرة » ذات هدف عظيم ، هو المجازاة على أعمال الدنيا ، خيرا كانت أو شرا . وهذا الجزء من نظرية الآخرة يكاد يتضح جليا حين نعلم أن أعمال كل انسان تحفظ وتسجل بصفة دائمة ، وبغير توقف . وللانسان ثلاثة أبعاد ، يعرف من خلالها ، هى : نيته ، وقوله ، وعمله . وهذه الأبعاد الثلاثة تسجل بأكملها . فكل حرف يخرج عن لساننا ، وكل عمل يصدر عن عضو من أعضائنا ــ يسجل فى الأثير (الفضاء) ، ويمكن عرضه فى أى وقت من الأوقات بكل تفاصيله ، لنعرف ــ اذا شئنا ــ كل ما قاله ، أو فعله أى انسان فى هذه الحياة الدنيا ، من خير أو شر .

ان الأفكار تخطر على بالنا ، وسرعان ما ننساها ، ويبدو لنا أنها انتهت، فلم يعد لها وجود ، ولكنا ، بعد فترة طويلة ، نراها رؤى خلال النوم ، أو نذهب نتكلم عنها فى حالات الهستيريا أو الجنون ، دون أن ندرى شيئا مما نقول . وهذه الوقائع تثبت قطعيا أن العقل أو الحافظة ليست تلك

التى نشعر ونحس بها فحسب ، وانما هناك أطراف أخرى من هـذه الحافظة لا نشعر بها ، وهى ذات وجود مستقل ، وذات كيان قائم بنفسه.

ولقد أثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحفظ فى شكلها الكامل ، ولسنا قادرين على محوها ابدا ، وأثبتت هذه التجارب أيضا أن الشخصية الانسانية لا تنحصر فيما نسميه « الشعور » بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية الانسانية تبقى وراء الشعور ، يسميها فرويد : « ما تحت الشعور » ، أو « اللاشعور » . وهذه الأجزاء تشكل جانبا كبيرا من شخصيتنا ، بل هي الجانب الأكبر منها ، ومثلها كمثل جبل من الجليد فى أعالى البحار ، أجزاؤه الثمانية مستكنة تحت الماء ، على حين لا يطفو منه الا الجزء التاسع . وتلك هى ما نسميه : (تحت الشعور) ، الذى يسجل ويحفظ كل ما نفكر فيه ، أو ننتويه .

يقول (فرويد) فى محاضرته الحادية والثلاثين :

« ان قوانين المنطق ، بل أصول الأضداد أيضا ، لا تحول دون عمل (اللاشعور) I.D. وان الأماني المتناقضة موجودة فيه جنبا الى جنب، دون أن تقضى واحدة منها على الأخرى ، ولا شىء فى اللاشعور يشبه أن يكون « رفضا » لشىء من هذه المتناقضات . اننا نتحير لما نشاهده من أن اللاشعور يبطل رأى فلاسفتنا القائلين بأن جميع أفعالنا العقلية الشعورية تتم فى زمن محدد ، ولكن لا شىء فى اللاشعور يطابق الفكر الزمنى ، ولا يوجد فيه اى رمز لمضى الوقت وسريانه ، وهى حقيقة محيرة . ولم يحاول الفلاسفة أن يتأملوا حقيقة ، هى أن مضى الزمن لا يحدث أى تغيير فى العمل الذهنى ، أن الدوافع الحبيسة (Conative impulses) التى لم تخرج قط عن اللاشعور ، وحتى التأملات الخيالية التى دفنت فى اللاشعور — تكون أزلية فى الحقيقة والواقع ، وتبقى محفوظة لعشرات السنين ، وكأنها لم تحدث الا بالأمس »(١) .

وقد سلم علماء النفس بهذه النظرية بصفة عامة اليوم ، ومعناها أن كل ما يخطر على بال الانسان من الخير والشر ، ينقش فى صفحة اللاشعور ، فلا يزول الى الأبد ، ولا يؤثر فيه تغير الزمان ، وتقلب الحدثان ، ويحدث هذا على رغم الارادة الانسانية — طوعا أو كرها .

ولم يستطع (فرويد) أن يدرك ما يكمن خلف هذه العملية من أسباب وعلل ، وأية خدمة تؤديها فى مصنع الكون ؟ ولهذا نراه يدعو الفلاسفة الى التفكير والتأمل . ولكننا لو قارنا هذا الواقع مقرونا الى نظرية الآخرة لاستطعنا أن نصل الى حقيقتها بسرعة ، ان هـذا الواقع يؤكد بكل صراحة امكان وجود سجل كامل لأعمال الانسان فى حياته ، عندما يبدأ حياته الأخرى ، فان وجوده نفسه سوف يشهد على الأعمال والنيات التى عاشها .

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد »(٢) .

---

(١) New Introductory Lectures on Psycho-Analysis, London 1949, p. 99.

(٢) ق : ١٦ .

(أ) مسألة القول :

ولنتناول هنا مسألة « القول » : ان نظرية الآخرة تقول بأن الانسان مسئول عن (أقواله) ، فجميع ما نلفظه من كلام ، حسنا كان أو قبيحا ، حمدا أو سخطا ، وسواء استعملنا اللسان فى ابلاغ رسالة الحق ، أو استعملناه فى ابلاغ رسالة الشيطان ، كل ذلك يحفظ فى سجل كامل : « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد »(١) . وهذا السجل سوف يعرض أمام محكمة الآخرة ليتم حساب الانسان .

وامكان وقوع هذا لا ينافى العلم الحديث ، فنحن نعرف قطعا أن أحدا عندما يحرك لسانه ليتكلم ، يحرك بالتالى موجات فى الهواء ، كالتى توجد فى الماء الساكن عندما نرمى فيه بقطعة من الحجر . انك لو وضعت جرسا كهربائيا فى زجاج محكم الاغلاق من كل جانب ، ثم تضغط عليه ، فلن تسمع صوته ، رغم أن الجرس على مرأى منك .. لأنه لا يرسل الموجات الى الخارج ، فهو مكتوم داخل الزجاج ، وهذه الموجات فى الظروف العادية تصطدم بطبلة الأذن ، التى تقوم آليا بارسال هذه الموجات الى العقل ، فما نفهمه من المعنى ، يسمى « سماعا » ! .

ولقد ثبت قطعيا أن هذه الموجات تبقى كما هى فى « الأثير » ، الى الأبد ، بعد حدوثها للمرة الأولى ، ومن الممكن سماعها مرة أخرى . ولكن علمنا الحديث عاجز حتى الآن عن اعادة هذه الأصوات ، أو بعبارة أصح : عن أن يضبط هذه الموجات مرة أخرى ، مع أنها لا تزال تتحرك فى الفضاء من زمن بعيد . ولم يبد العلماء اهتماما خاصا بهذا المجال حتى الآن ، بعد أن سلموا — نظريا — بامكان ايجاد آلة لالتقاط أصوات الزمن الغابر . كما يلتقط المذياع الأصوات التى تذيعها محطات الارسال . على أن المسألة الكبرى التى نواجهها فى هذا الصدد ، ليست هى التقاط الأصوات القديمة ، وانما التمييز بين الأصوات الكثيرة — الهائلة الكثرة — حتى نتمكن من سماع كل صوت على حدة .. وهذه هى مسألة الاذاعة التى وصلنا فيها الى حل ، فان آلاف المحطات الاذاعية فى العالم تذيع برامج كثيرة ليل نهار ، وتمر موجات هذه البرامج فى الفضاء ، بسرعة ١٨٦٫٠٠٠ ميلا فى الثانية . وكان من المعقول جدا عندما نفتح المذياع أن نسمع خليطا هائلا من الأصوات لا نفهم منه شيئا ، ولكن هذا لا يحدث ، لأن جميع محطات الاذاعة ترسل برامجها على موجات يختلف طولها ، فمنها ما يرسل برامجه على موجات طويلة ، ومنها ما يرسل على موجات قصيرة ، ومتوسطة . وهكذا تمر هذه البرامج فى الفضاء بموجات مختلفة طولا ، فتستطيع أن تسمع أية موجة من المذياع ، بمجرد أن تدير عقربه الى المكان المطلوب .

***

ان علماءنا لم ينجحوا فى اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم ، ولولا ذلك لكنا قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمان بأصواته . وبناء على هذا يثبت امكان سماع الأصوات القديمة فى المستقبل ، فيما لو نجحنا فى اختراع الآلة المطلوبة ، ومن ثم لا تبقى نظرية الآخرة بعيدة عن القياس ، وهى القائلة بأن كل ما ينطق به الانسان يسجل ، وهو محاسب عليه يوم الحساب .

---

(١) ق : ١٨ .

وربما كان قياسا مع الفارق الكبير أن نذكر هنا ما حدث عندما كان الدكتور مصدق رئيس وزراء ايران الأسبق مسجونا أثناء محاكمته عام ١٩٥٣ ، فقد ركبت فى غرفته آلة للتسجيل تتحرك آليا ، وسجلت هذه الآلة كل ما نطق به الدكتور مصدق فى غرفته ، وقد عرضوا أشرطة التسجيل أمام المحكمة ، شهادة عليه . وهو نموذج لما يمكن أن يحدث فى الآخرة .

ان مناقشتنا لجوانب المسألة لا تنفى وجود ملائكة لله — أو بلفظ آخر — وجود « مسجلين » غير مرئيين ، ينقشون على صفحة الفضاء كل ما ننطق به من كلام ، وهو ما يصدق قول الله سبحانه « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » .

* * *

(ب) مسألة العمل :

ولننظر الآن فى مسألة (العمل) : ومعلوماتنا فى هذا الصدد تصدق بصورة مدهشة امكان حدوث الآخرة .

فالعلم الحديث يؤكد ايمانه بأن جميع أعمالنا — سواء أباشرناها فى الضوء، أم فى الظلام ، فرادى ، أم مع الناس — كل هذه الأعمال موجودة فى الفضاء فى حالة الصور ، ومن الممكن فى أية لحظة تجميع هذه الصور ، حتى نعرف كل ما جاء بهانسان ما من أعمال الخير والشر طيلة حياته ، فقد أثبتت البحوث العلمية أن كل شىء — حدث فى الظلام أو فى النور ، جامدا كان أو متحركا — تصدر عنه « حرارة » بصفة دائمة ، فى كل مكان ، وفى كل حال ، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماما ، كالأصوات التى تكون عكسا كاملا للموجات التى يحركها اللسان . وقد تماختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التى تخرج عن أى كائن ، وبالتالى تعطى هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية (Heat Waves) . ومثاله أننى أكتب الآن فى مكتبتى ، وسوف أغادرها بعد ساعة ، ولكن الموجات الحرارية التى خرجت من جسدى أثناء وجودى ههنا ستبقى دائما ، ويمكن الحصول على تسجيل كامل لجلستى فى المكتبة فى أى وقت بوساطة تلك الآلة ، غير أن الآلات التى تم اختراعها الى الآن ، لا تستطيع تصوير الموجات الحرارية الا خلال ساعات قليلة من وقوع الحادث . أما الموجات القديمة ، فلا تستطيع هذه الآلة تصويرها ، لضعفها .

وتستعمل فى هذه الآلة (أشعة انفرارد) التى تصور فى الظلام والضوء ، على حد سواء . ولقد بدأ العلماء فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية استغلال هذه الآلة فى تحقيقاتهم ، وذات ليلة حلقت طائرة مجهولة فى سماء نيويورك ، فصوروا الموجات الحرارية لفضاء نيويورك بهذه الآلة ، وأدى ذلك الى معرفة طراز الطائرة ونوعها (١) .. ولقد أطلق على هذه الآلة اسم : « آلة تصوير الحرارة Evaporagraph. ونشرت جريدة هندوستان تايمس الهندية تعليقا بمناسبة هذا الاختراع ، تقول : « اننا بفضل هذه الآلة سوف نستطيع أن نشاهد تاريخنا على شاشة السينما فى المستقبل ، ومن الممكن أن تنتهى هذه العملية الى كشوف عجيبة ، تغير أفكارنا عن التاريخ من جذورها .. » .

---

(١) Reader's Digest, November, 1960.

واننى أعتبر هذا الاختراع عجيبا كل العجب ، فمعناه أن حياة كل منا تصور على مستوى عالمى ، كما تسجل آلات التصوير الأوتوماتيكية السريعة جميع تحركات الممثلين السينمائيين . انك لو صفعت فقيرا ، أو حملت عبئا عن أحد الغرباء ، أو شغل بالك أمر من الخير أو الشر .. فان جميع تحركاتك تسجل على شاشة الكون ، حيث لا يسعك منعها أو الهرب منها ، سواء أكنت فى الظلام أم فى النور . فحياتك كالقصة التى تصور فى الاستديو ، ثم تشاهدها على شاشة السينما بعـد حقب طويلة من الزمن ، وعلى بعد كبير من مكان التسجيل ، ولكنك تشعر كأنك موجود فى مكان الأحداث ، وهكذا شأن كل ما يقترفه الانسان ، وشأن الأحـداث التى يعيشها ، فان فيلما كاملا لتلك الأحداث سوف يوضع بين يدى كل فرد يوم القيامة ، حتى يصرخ النـاس قائلين :

* * *

« يا ويلتنا !! ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها (١) ؟»

والتفاصيل العلمية التى أوردنا بعضها فى الصفحات الماضية يتضح منها جليا أن أجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل لكل أعمال الانسان ، فكل ما يدور فى أذهاننا يحفظ الى الأبد ، وكل ما ننطق به من الكلمات يسجل بدقة فائقة ، فنحن نعيش أمام كاميرات تشتغل دائمـا ، ولا تفرق بين الليل والنهار .. وجميع أعمالنا ، القلبية منها واللسانية والعضوية ، كلها تسجل بدقة تامة .. ولا يسعنا — ونحن نشرح هذه الظاهرة العلمية الخطيرة — الا أن نسلم بأن قضية كل منا سوف تقدم أمام محكمة الهية .. وبأن هذه المحكمة هى التى قامت باعداد هذا النظام العظيم **لتحضير الشهادات التى لا يمكن تزويرها .**

ولا يستطيع أى عالم أن يدلى بتفسير أدق عن هذه الظاهرة سوى ما قلناه .. فلو لم تستطع هذه الوقائع الصريحة الساخنة أن تجعـل البشر يحسون بمسئوليتهم ازاء المحكمة الجبـارة التى ستقام يوم الحسـاب ، فلا أدرى ما الواقع الذى قد يجعل هؤلاء يفتحون أعينهم ؟ !

* * *

ثالثا : الحاجة الى الآخرة :

لقد بحثنا فى الصفحات الماضية فيما اذا كان حدوث شىء من مثل الآخرة ، التى يدعيهـا الدين ، « ممكنا » ؟ ولقـد ثبت ما علمنا أن الآخرة ممكنة الحدوث .. والمسألة التى نقف أمامها الآن هى : البحث فيما اذا كان هذا العالم فى حاجة — فعلا — الى شىء من قبيل الآخرة ؟ وهل يقتضى الكون — فى هيكله الحالى — وقوعها ؟؟

* * *

(أ) الجانب النفسى :

لنتناول أولا (الجانب النفسى) من المسألة .

يقول البروفيسور (كنجهام)فى كتابه: Plato's Apalogy : « ان عقيدة الحياة بعد الموت « لا أدرية مفرحة Cheerful Agnosticism» ، ومن

(١) الكهف : ٤٩ .

الممكن اعتبار هذا القول خلاصة أفكار فلاسفتنا الملحدين المعاصرين ، فهم يرون أن عقيدة الآخرة اخترعتها عقلية الانسان الباحثة عن عالم حر ، مستقل عن حدود هذا العالم ، وعن مشكلاته ، ملىء بالأفراح . وانما يدفعه الى الايمان بهذه العقيدة أمله فى الحصول على حياته المفضلة ، التى لا جهد فيها ولا كدح .. وأن هذه العقيدة تنتهى بالانسان الى عالم مثالى وخيالى ، حيث يحلم بأنه سوف يظفر به بعد الموت . ولكن الحقيقة — كما يراها الفلاسفة — أن لا وجود لشىء كهذا العالم الثانى فى الأمر الواقع !

وفى رأيى : أن هذا المطلب الانسانى — فى حد ذاته — « دليل نفسى » قوى على وجود عالم آخر ، كالظمأ ، فهو يدل على الماء ، وعلى علاقة خاصة باطنة بين الماء وبين الانسان . وهكذا فان تطلع الانسان — نفسيا — الى عالم آخر دليل فى ذاته على أن شيئا مثل ذلك موجود فى الحقيقة ، أو أنه — على الأقل — خليق أن يوجد . وهذا المطلب النفسى يؤكد علاقة مصيرنا بهذه الحقيقة ، ويدلنا التاريخ على وجود هذه الغريزة الانسانية منذ أقدم العصور على مستوى انسانى ، وهو أمر لا أستطيع فهمه : كيف يمكن أن يؤثر أمر باطل على البشر فى هذا الشكل الأبدى ، وعلى مستوى انسانى ؟ وهذا الواقع نفسه يدلنا على قرينة قوية بامكان وجود العالم الآخر . وانكار هذه الحاجة النفسية ، بدون أدلة ، يعتبر جهلا وتعصبا .

ان الذين ينكرون حاجة نفسية عظيمة مثل هذه زاعمين انها باطلة ، هم من أعجز الناس حقا عن تفهم أى « واقع » على سطح الأرض بعد هذا .. ولو كانوا يزعمون الفهم فى الواقع فلا أدرى بأى دليل ؟ .. وعن أى برهان ؟

ولو كانت هذه الأفكار نتاج المجتمع ، كما يزعمون ، فكيف لا تزال تطابق التفكير الانسانى ، بهذه الصورة المدهشة ، من أقدم العصور ؟ هل تجدون مثالا لأية أفكار انسانية أخرى ظلت باقية الى العصر الحاضر ، وبهذا التسلسل الرائع منذ ألوف السنين ، هل يستطيع أذكى أذكيائكم أن يخترع فكرا واهيا ، ثم يدخله الى النفس الانسانية ، وكأنه موجود بها منذ الأزل ؟

ان لكل انسان أمانى كثيرة لا تكلل بالنجاح فى حياته ، انه يتمنى حياة أبدية ، ولكن الحياة التى أعطيت له تخضع لقانون الموت . والعجيب أن الانسان عندما يكون على أبواب حياة ناجحة عظيمة ، بعدما كسب من العلم والمعرفة ، والخبرة والتجارب الثمينة ، حينئذ تداهمه دعوة الموت .. ولقد أكدت احصائية عن تجار لندن الناجحين أن أمرهم يستقر فيما بين ٤٥ — ٦٥ سنة من أعمارهم ، ثم يبدأون يربحون ما بين خمسة آلاف الى عشرة آلاف جنيه فى السنة ، وفى ذلك الوقت الثمين — فجأة — تتوقف حركات قلوبهم ذات مساء ، أو ذات صباح ، فيرحلون الى عالم مجهول ، تاركين تجارتهم الممتدة الى ما وراء البحار ..

يقول الأستاذ وينوود ريد (Winwood Reade) :

« انه لأمر هام يدعونا الى التفكير فيما اذا كانت لنا علاقة شخصية مع الاله ؟ هل هناك عالم غير عالمنا هذا ؟ وهل سوف نلقى جزاء أعمالنا فى ذلك العالم ؟ ان هذا السؤال ليس بعقدة فلسفية عظيمة فحسب ، وانما

هو فى نفس الوقت أعظم أسئلتنا العملية أيضا . انه سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة ، فحياتنا الراهنة قصيرة جدا ، أفراحها عادية موقوتة ، اذ أننا عندما نظفر بما نحلم به ، يفاجئنا الموت ، ولو استطعنا الاهتداء الى طريق خاصة تجعل أفراحنا دائمة وأبدية ، فلن يرفض العمل به أحد غير البله والمجانين منا »(١) .

ولكن الكاتب نفسه يستطرد فينكر ذلك المطلب النفسى الكبير من أجل أمور لا وزن لها ولا قيمة ، فهو يقول : « ان هذه العقيدة كانت معقولة جدا حين كنا لا نبحث جوانبها بعمق وجد . . ولكن بعد هذا البحث اتضح لنا أنها أمر سخيف ، ويمكن اثبات سخافته بسهولة ، فالفلاح المحروم العقل الجاهل لا يتحمل مسئولية خطاياه ، وسيدخل الجنة ، ولكن العباقرة مثل (جوته) ، و (روسو) ، سوف يحترقون فى نار الجحيم ، فلأن يخلق الانسان محروم العقل خير له من أن يكون من أمثال جوته وروسو !! ان هذا الكلام تافه وسخيف»(٢) .

وما أشبه هذا الموقف بالذى اتخذه (اللورد كلوين) تجاه التحقيق العلمى الذى قام به (ماكسويل) ، فقد زعم اللورد أنه لا يستطيع أن يفهم نظرية ما الا بعد وضع نموذجها الميكانيكى ، وبناء على هذا الفرض أنكر نظرية ماكسويل عن البرق والمغناطيس ، لأنها لم تحل فى أحد نماذج اللورد المادية ! ان مثل هذه المواقف والادعاءات الخرافية أصبحت غريبة فى عالم الطبيعة الحديثة . ويتساءل العالم الكبير (سوليفان) :

« كيف يروق لأحد أن يدعى أن الطبيعة لابد أن تكون كما يضعها مهندس القرن التاسع عشر فى معمله(٣) ؟ » .

وسوف أوجه هذا الكلام الى الأستاذ (وينوود) :

« كيف يجوز لفيلسوف القرن العشرين أن يرى : أن يكون الكون الخارجى ، فى حقيقة الأمر مطابقا لما يزعمه هو ؟ » .

ان كاتبنا لم يستطع أن يفهم أمرا فى غاية البساطة : هو أن الحقيقة لا تحتاج الى الواقع الخارجى ، وانما الواقع الخارجى هو الذى يكون فى حاجة الى « الحقيقة » . . فالحقيقة أن لهذا الكون الها ، وسوف نمثل أمامه يوم الحساب . فلابد لكل منا — سواء أكان روسو أم كان مواطنا عاديا — أن يكون وفيا ومطيعا لالهه ، فنجاتنا لن يحققها جحودنا ، بل هى تكمن فى ايماننا وطاعتنا . . والغريب أن كاتبنا لم يرق له أن يطالب (جوته) و (روسو) أن يسلكا مسلك الحق ، وانما طالب الحق بالتغير ! ولما لم يطع الحق راح ينكره !! وهذا أشبه بمن ينكر قانون حفظ الأسرار العسكرية ، الذى يكرم أحيانا جنديا بسيطا ، ويعدم عالما ممتازا ، مثل « روزنبرج وعقيلته الحسناء » بالكرسى الكهربائى ! !

* * *

انه لا يوجد على سطح الأرض من يفكر فى (الغد) غير الانسان . فهو يتميز عن سائر الحيوانات بدوام تفكيره فى المستقبل ، وجهاده المتواصل ،

---

(١) Martyrdom of Man, p. 414. (٢) Ibid, p. 415.

(٣) JWN Sullivan, The Limitations of Science, p. 9.

وسعيه الدائب فى سبيل تحسين أحواله . ولا شــك اننا قــد نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها ، كالنمل الذى يدخر غــذاءه للشتاء القادم ، والطيور التى تصنع أعشاشا يسكنها أولادها بعد فقسهم ، ولكن هذا العمل لدى الحيونات يعتبر « غريزيا » فهو صادر عن غير شعور بالمسئولية ، انها لا تقوم بهذه الأعمال لقلقها من مشكلات الغد ، وانما تأتى بها طبيعيا ، ومن ثم تنتفع بها فى المستقبل فالتفكير فى المستقبل يتطلب فكرا مدركا واعيا ، وهو من ميزات الانسان فحسب ، ولا يتمتع به شىء من الحيوانات غيره .

هذا الفرق الكبير بين الانسان والحيوان يؤكد أنه لابد أن تكون للانسان مواقع أكثر بالنسبة الى أى نوع آخر للانتفاع بها ، فحياة الحيوانات هى ما تسمى « حياة اليوم » ، ففكرة الغد لا توجد عندها ، ولكن مطالعة حياة الانسان تقتضى « غدا » ، ولو أنكرنا هذه الحاجة لخالفنا الطبيعة .

ويعتقد بعض العلماء والفلاسفة أن خيبة آمال الانسان فى حياته الراهنة هى التى تجعله يفكر فى حياة أفضل ، وهم يرون أن هذا الفكر سوف يتلاشى لو أتيح للانسان مجتمع رفاهى كامل . فقد اعتنق عدد كبير من أسرى الروم المسيحية لأنها وعدتهم بأفراح السماء .. ولذا تتوقع هذه الطائفة من العلماء والفلاسفة أن سعادة الانسان ورفاهية المجتمع سوف تزداد أكثر فأكثر ، الى أن تقضى نهائيا على نظرية « العالم الآخر » .

ولكن تاريخ الأربعمائة سنة الأخيرة ــ التى ازدهرت فيها العلوم والتكنولوجيا ــ يكذب هذا التوقع ، فان أول ما هيأ التقدم التكنولوجى للانسان أنه أتاح له وسائل عديدة ، احتكرتها أيد محدودة ، قامت بدورها باستغلالها ، وقضت على صغار العمال والحرفيين ، وحولت تيار الثروات الى كنوزها ، وخزائنها ، وجعلت من الشعب عمالا فقراء معوزين ، ويمكن مطالعة هذه المناظر القبيحة التى جاءت نتيجة للتقدم التكنولوجى ، فى كتاب كارل ماركس « رأس المال » ، الذى يعتبر ضجيجا للطبقة العمالية التى عاشت القرنين الثامن والتاسع بعد الألف ، ثم بدأت تدور فعل هذا الضجيج ، وتبعه كفاح طويل ، قامت به المنظمات العمالية ، حتى تحسنت الأحوال الى حد ما . ولكننى أرى أن التغير الذى طرأ على أحوال العمال ليس الا ظاهريا ، فعامل اليوم يتقاضى أكثر مما كان يتقاضاه بالأمس ، أما السعادة الحقة ، فانه أكثر افتقادا لها من سلفه .. ذلك أن النظام التكنولوجى لم يعط الانسان أكثر من مظاهر مادية ، فهو لا يملك القيم الروحية ، حتى يمنح لأتباعه السعادة والطمأنينة القلبية ، وما أصدق ما قاله الشاعر (Blake) عن انسان الحضــارة الحديثة :

A mark in every face I meet
Marks of weakness, marks of woe.

« كل وجه ترى عليــه سمات　　فيه ضعف ، وفيه ذل وحقــد »

لقد اعترف « برتراند راسل » قائلا « ان حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح ، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة ، ولكنهم محرومون من نعمتها فى عالمنا الحديث »(١) . واليوم كما يقول راسل ، أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة : السعادة (٢) ! !

(١) Conquest of Happiness, p. 11.
(٢) Ibid, p. 93.

انك عندما تزور نيويورك ، تشاهد أبنيتها الضخمة مثل عمارة « امباير ستيت » ، التى تتكون من ١٠٢ طابقا ، وهى عالية جدا ، حتى أن درجة الحرارة فى أدوارها العليا تكون منخفضة جدا بالنسبة الى أدوارها السفلى ، وعندما تخرج منها وتراها من الشارع فلن تصدق أنك كنت فوق هذا العملاق الذى يرتفع ١٢٥٠ قدما فوق سطح الأرض ، ولا يستغرق المصعد الكهربائى للصعود من أسفلها الى أعلاها أكثر من ثلاث دقائق !! وبعد مشاهدة هذه العمارات والمظاهر تذهب الى النوادى وتشاهد الرجال والنساء يرقصون ملتصقين .. وتفكر : « ما أسعد هؤلاء الناس ! » ، ثم تأوى الى مقعد تشاهد الرقص المثير ، ولن تقضى وقتا طويلا حتى تأتيك حسناء من هؤلاء القوم ، وتجلس على المقعد المواجه لمقعدك ا أنها تبدو كئيبة ، فتسألك دون مقدمات :

— أيها السائح ، هل أنا قبيحة المنظر ؟

— اننى لا أرى ذلك ..

— ولكننى أفهم أننى فقدت « روعة الجمال » ، أليس كذلك ؟

— لا .. فى رأيى أنك تملكين الكثير من الفتنة وروعة الجمال .

— شكرا أيها السائح الكريم ! ولكن الشبان لا يبالون بى ، ولا يواعدوننى. لقد أصبحت الحياة بالنسبة الى مملة موحشة ..

ان ما رأيته فى نيويورك لم يكن الا منظرا مقتضبا من مسرحية الانسان فى العصر الحديث .

لقد أقامت العلوم والتكنولوجيا أبنية شامخة ، ولكنها نزعت السعادة من قلوب ساكنيها ، انها أقامت مصانع تتحرك بآلات هائلة ، ولكنها حرمت عمالها الراحة التى يطمحون اليها ، وهذه هى نتيجة التاريخ العلمى والتكنولوجى . فكيف بنا اذن نطمح ونتوقع عالما يسوده السلام والسعادة ، من « صنع التكنولوجيا ؟ ! » .

* * *

(ب) الضرورة الأخلاقية :

وعندما ندرس المسألة من الوجهة الأخلاقية نرى أنه لابد من « الآخرة » ، فان التاريخ الانسانى لن يكون له أى معنى بدونها .

ان فطرة الانسان تميز بين الخير الشر ، والصالح والطالح ، والظلم والعدل ، وهذه الفطرة هى التى تميز الانسان عما سواه ، ولكن ها هو ذا الانسان الذى كرمه ربه ، يهدر فطرة الله أكثر ممن لا يتمتعون بها ، انه يظلم بنى جنسه ، يقتلهم ويشردهم ، ويوجه اليهم كل شر مستطاع ..

ان الحيوانات لا تظلم فصائلها ، فالأسد ليس فى الأسود أسدا ، والنمر ليس فى العرين نمرا .. ولكن الانسان أصبح يفترس اخوانه ، حتى الأقربين منهم ، مما لا يوجد له مثيل فى قانون الغابة ..

ولا مرية اننا وجدنا أضواء الحق والعدالة فى التاريخ الانسانى ، وأننا نقدرها حق قدرها ، ولكن الجزء الأكبر من التاريخ يفيض بقصص الظلم

والفساد والعدوان . ان المؤرخ ليصاب بيأس بالغ عندما يرى أن أحداث التاريخ تتعارض تماما مع الضمير الانسانى .

ولنقتبس هنا بعض الأقوال :

فولتير : « ان التاريخ الانسانى ليس الا صورة للجرائم والمصائب »(١) .

هربرت سبنسر : « ان التاريخ تهريج ، وكلام فارغ لا جدوى منه » .

نابليون : « ان التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعنى شيئا » .

ادوارد جبن : « ان تاريخ الانسان لا يعـــدو أن يكون سجلا للجرائم ، والحماقة ، وخيبة الأمل » .

هيكل : « ان الدرس الوحيد الذى تعلمته الحكومة والشعب من مطالعة التاريخ هو أنهم لم يتعلموا من التاريخ شيئا »(٢) .

هل قامت مسرحية العالم كلها لتنتهى الى كارثة أليمة ؟ ان فطرتنا تقول : لا .. فدواعى العدالة و الانصاف فى الضمير الانسانى تقتضى عدم حدوث هذا الامكان ، لابد من يوم يميز بين الحق والباطل ، ولابد للظالم والمظلوم أن يجنيا ثمارهما ، وهذا مطلب لا يمكن اقصاؤه من مقومات التاريخ ، كما لا يمكن ابعاده عن فطرة الانسان .

ان هذا الفراغ الشاسع الذى يفصل ما بين الواقع والفطرة يقتضى ما يشغله ، فان المسافة الهائلة بين (ما يحدث) و (ما ينبغى أن يحـــدث) تدل على أن مسرحا آخر قد أعد للحياة ، وأنه لابد من ظهوره . فهذا الفراغ العظيم يدعو الى تكميل الحياة . وانى لأتحير عندما يؤمن الناس بفلسفة الروائى الانجليزى « هاردى » القائلة : بأن العالم مكان للظلم والوحشية ، ولكننى أصـــاب بحيرة أكبر عنـــدما أرى أن هذه الحالة البالغة السوء لا تقودهم الى الايمان بأن : ما ليس بموجود اليوم ويقتضيه العقل ، لابد من حدوثه غدا .

« اذا لم تكن هنـــاك قيامة فمن ذا الذى ســـوف يكسر رؤوس هؤلاء الطواغيت الطغاة ؟ » ــ كلمة كثيرا ما تخرج من شفتى مصحوبة بأنين مرير ، عندما أطالع الجرائد ، فجرائدنا صورة مصغرة لمـــا يحدث كل يوم على الأرض ، والصورة التى تحملها الجرائد الينا رهيبة .. انهـــا تتكلم عن الاغتيالات ، والخطف ، والنهب ، والاتهامات الكاذبة ، والتجارة السياسية ، والدعايات الباطلة التى تتلعب بالألفاظ . ان هذه الجرائد تخبرنا كيف نكل الحاكم الفلانى بمعارضيه الضعفاء ، باسم مصالح الأمة ، ودواعى الأمن القومى ؟ ! وكيف سيطر ذلك الشعب على أرض لم يملكها طيلة التاريخ بقوة السلاح !! وليست هذه الجرائد الا حكايات لمأساة الضعيف والقوى ، والسلطان والرعاع !!

ان الأحـــداث التى وقعت فى بلادى أخـــيرا ، وبخاصة تلك الاغتيالات الجماعية ، وعمليات النهب والحرق المخططة التى جرت فى مناطق جبل

---

(١) Story of Philosophy, Will Durant, p. 220.

(٢) Western Civilisation, E. Menall Burns, p. 871.

بور ، وجمشيدبور ، وراؤركيلا ، وكلكتا ــ يبدو بعدها أن المرء لا ينبغى ان يستبعد وقوع أية جريمة على هذه الأرض ، سواء أمكنه تصورها أم لا !! فان قوما يرفعون شعارات (العلمانية) و (الجمهورية) و (اللاعنف) يستطيعون ــ فى نفس الوقت ــ أن يرتكبوا أبشع أنواع الطائفية ، وأشنع الوان الدكتاتورية ، وأسوأ صور العنف ، كما لم يشهده التاريخ . وكل هذه الجرائم البشعة ــ التى تأسى لحدوثها السباع المفترسة ، والذئاب الكاسرة ، والخنازير الوحشية ــ قد جرت فى عهد زعيم أطلق عليه لقب : « معلم الانسانية ورسول السلام »(١) !! وليت المأساة توقفت عند هذا الحد ، فلقد ارتكبت فى هذا العصر الذى ازدهر فيه النشر والاذاعة ، جرائم شنيعة ، وأحداث مروعة ، من نهب ، وقتل ، واحراق أقوام بأسرهم ، ودامت المأساة أشهرا طويلة ، بل سنين عديدة فى بلاد شاسعة جدا من الهند ، والصحافة العالمية لا تنشر عنها شيئا ما ، وقد امحت تماما هذه الجرائم من صفحات التاريخ ، كأن لم تكن مأساة الأمس القريب !!

هل خلق هذا العالم ليكون مسرحا للمآسى ، والشيطنة ، والهمجية والقرصنة ، ثم لا يلقى الظالم والمظلوم جزاءهما ؟ ! ان عالما ــ من هذا القبيل ــ اعلان فى حد ذاته عن أنه ناقص ، وهذا النقص فى ذاته يقتضى ما يكمله .

(ج) مشكلة السلوك :

ولندرس هذا من ناحية أخرى . لقد شغلت مسألة هامة الذهن الانسانى من أقدم العصور ، وهى كيفية اجبار الناس على سلوك طريق الحق ، فاذا افترضنا أن بعض أفراد المجتمع قد منحوا سلطة سياسية من أجل تحقيق هذا الهدف ، فمن الممكن أن يمتنع الرعايا خوفا من العذاب . ولكن ما الذى يدفع أولئك الذين يتمتعون بالسلطة السياسية الى تحقيق العدل والانصاف ؟ ولو أننا استنجدنا القانون ، واستصرخنا المحكمة ، فكيف اذن يمكن أن نبلغ بهما تلك الأماكن والجوانب التى لا تخضع للشرطة والقانون ؟ ولو أننا خضنا معارك الدعاية ، وناشدنا اهل الشر أن يكفوا عن الجرائم ، فمن ذا الذى ينصت الينا ؟ ويتخلى عن فائدة يجنيها دون كلفة ؟ ان رهبة عقاب الدنيا لن تنجح فى قمع انحرافات الانسان ، فنحن جميعا نعرف أن الكذب ، والرشوة ، والمحسوبية ، واستغلال النفوذ ، وما الى ذلك من الوسائل المعروفة ، سوف تحول دون أى امكان للعقاب .

انه لن يفلح شىء فى قمع الجرائم غير الدافع المنبعث من داخل قلب الانسان ــ الضمير ، الضمير الذى لو دخل ارادة الانسان فلن يسقطه عامل خارجى أيا كان ، وهذه الميزة غير متاحة الا فى عقيدة الآخرة .. فان دافعا قويا يكمن فى هذه العقيدة ، ويجعل من اتقاء الجرائم مصلحة ذاتية لكل انسان . انها مصلحة يهتم بها الجميع ، فالكل رئيسا كان أم مرءوسا ، فى الظلام كان أو فى الضوء ــ ينطلق يفكر فى أنه لا بد من يوم للقاء الله ، والكل يشعر بأن الله يراه ، وسوف يحاسبه حسابا عسيرا . وهذه الأهمية الكبرى

---

(١) الاشارة الى جواهر لال نهرو ، وقد جرت الأحداث البشعة التى اشار اليها المؤلف خلال الاعوام ١٩٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ولم ينشر عنها شىء بفعل التآمر العالمى (**المراجع**) .

فى عقيدة الآخرة هى التى جعلت القاضى ماتيوهالوس (Mathew Halos) ، وهو من كبار قضاة القرن السابع عشر يقول :

« ان القول بأن الدين خدعة ، هو بمثابة ابطال لجميع المسئوليات التى تقع على عاتقنا لاستقرار النظام الاجتماعى »(١) .

ألا ما أهم هذا الجانب من نظرية الآخرة !!

وانا لنستطيع أن ندرك أبعاد هذه النظرية لو تأملنا أن كثيرا من علمائنا الملحدين ، الذين لا يعتقدون أن الآخرة أمر واقع ، قد اضطروا — بناء على تجارب التاريخ — الى القول بأنه لا يوجد شىء غير « الآخرة » لمراقبة الانسان ، واخضاعه لسلوك طريق الحق والعدل فى جميع الظروف .

لقد أنكر الفيلسوف الألمانى « كانت » فكرة (الاله) ، قائلا (انه لا يجد ادلة شافية على وجوده) . فهوينكر « الصواب النظرى » فى الدين ، ولكنه ، فى نفس الوقت ، يضطر الى أن يسلم « بالصواب العملى » فى الدين ، من الناحية الأخلاقية (٢) .

و « فولتير » أيضا لا يؤمن بحقائق ما وراء الطبيعة ، ولكنه يرى :

« أن أهمية الاله والحيـــاة الآخرة عظيمة جدا ، حيث انهما أساسان لاقامة « المبادىء الأخلاقية » .. وهو (فولتير) يرى أن هذه العقيدة وحدها كفيلة بايجاد اطار أخلاقى أفضل للمجتمع . ولو أن هذه العقيدة زالت فلن نجد دافعا للعمل الطيب ، وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعى »(٣) .

ان الذين يرون أن « الآخرة » فكرة خيالية ينبغى أن يفكروا : كيف أصبحت فكرة خيالية ذات أهمية قصوى بالنسبة الى واقع حياتنا ؟

لماذا لا نستطيع بدونها اقامة نظام اجتماعى سليم ؟

ولمـــاذا تنهار قيم حياتنا عندما نتخلى عن هذه الفكرة ؟

هل يمكن أن تحتل فكرة خيالية هذه الأهمية الكبرى فى الحياة ؟

هل وجدتم مثالا ما فى الكون لفكرة خيالية غير كائنة ، أصبحت تتمتع بهذه الأهمية الحقيقية فى الحياة ، رغم أنها لا علاقة لها بواقعنا ؟ !

ان حاجتنا الملحة الى الآخرة لتنظيم الحياة ، واقامتها على أسس عادلة حقيقية ، هى — فى حد ذاتها — تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون ، ولست أبالغ اذا قلت : ان هذا الجانب المنطقى من الاستدلال يثبت حقية هذه النظرية ، على مستوى التحقيق المعملى العلمى ..

* * *

(د) الضرورة الكونية :

ولننظر الى هذه القضية من جهة ثالثة ، تلك التى أسميها : « الضرورة الكونية » . لقد تكلمت فى الصفحات الماضية عن وجود الاله فى الكون ،

(١) Religion without Revelation, p. 115.

(٢) Story of Philosophy, N.Y., 1954, p. 279

(٣) Windelband, History of Philosophy, p. 496.

وقدثبت جليا أن الدراسة العلمية والفكرية هى التى تدعونا الى القول بوجود اله لهذ الكون . وبقى أن نسأل : لو كانت هناك علاقة بين الاله والانسان لما كان بد من ظهورها ، فمتى ستظهر هذه العلاقة جليا ؟

أما بالنسبة الى عالم اليوم ، فمن الممكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر بعد ، فالرجل الذى لا يؤمن بالاله ، يصيح قائلا : « اننى لا أخاف من الله »، ثم هو لا يصاب بأذى ، بل قد يحصل على الزعامة ، ويتسلم مقاليد الحكم ! !

أما الذين يبلغون رسالات الله ، فان السلطات توقف نشاطهم بحجة أنه « غير شرعى » وهنالك أيضا مكاتب ومؤسسات تشغلها — ليل نهار — الدعاية لأولئك الذين يقولون : « لقد ذهب صاروخنا الى القمر ولم يتشرف بلقاء الهكم ! » ، وجميع أجهزة الدعاية الرسمية تدعم هذه المؤسسات ، فاذا ما نهض أصحاب الدعوات برسالتهم ردهم علماء العصر قائلين : انكم رجعيون تتخبطون فى الظلمات !

يولد الأطفال ، ثم يشبون ، ويموتون .

تصل الشعوب الى أوج مجدها ، ثم تنقرض .

تقع الثورات ، ثم تزول .

تشرق الشمس وتغرب ، ولكن لا تظهر آيات وجود الله .

وفى هذه الحالة تطالبنا عقولنا وقلوبنا بالايمان بوجود الله ، أو انكار هذا الوجود . فلو آثرنا الايمان بالله ، فلا مناص لنا من الايمان بالآخرة . فليست هناك طريق أخرى لتبيين علاقة الانسان بالاله .

لقد سلم (داروين) بأن لهذا الكون « خالقا » . ولكن « تفسير الحياة » الذى قدمه لا يتضمن أدنى ربط بين الخالق ومخلوقه ، كما أنه لا يحس بالحاجة الى « نهاية » لهذا الكون ، حاجة تدفعه الى تقرير هذا الربط ، ولست أدرى كيف سيملأ (داروين) هذا الفراغ الكبير فى نظريته البيولوجية ؟ ان عقلى يستنكر الها لا علاقة له بأمور الكون ، ولا يشهده عباده فى مظهر الخالق أبدا . وما أعجب « خالق داروين » — هذا الذى يأتى بكون عملاقا هكذا ، ثم ينهيه ، دون ابداء الأسباب التى دفعته الى هذا الخلق ، ودون تعريف مخلوقيه بصفاته العديدة !!

اننا لو أعطينا هذه المسألة الخطيرة شيئا من تفكيرنا ، فسوف نجد قلوبنا تصرخ : « ان الساعة آتية لا ريب فيها .. » (١) .

بل اننا لو تأملنا فسنراها مسرعة الينا ، سوف نراها ثقيلة ، وشيكة الانفجار ، كأنها الوليد فى بطن الحامل . وما أقرب ما تفتك بنا — فجأة — ذات عشية وضحاها :

« يسئلونك عن الساعة أيان مرسها . قل انما علمها عند ربى . لا يجليها لوقتها الا هو . ثقلت فى السموات والأرض . لا تأتيكم الا بغتة »(٢) .

---

(١) غافر/٥٩ .

(٢) الأعراف/١٨٧

رابعا ـ الشهادة التجريبية :

نواصل الآن بحثنا فى الجانب الآخر من هذا الموضوع : (الاخرة) ، وهو : هل هناك شهادة تجريبية تثبت الحياة بعد الموت ؟

ان أول دليل على الحياة الثانية هو حياتنا الأولى فى حد ذاتها ، فان الذين ينكرون الحياة الثانية يقرون ، بداهة ، الحياة الأولى . والحياة ، تلك التى ظهرت مرة واحـــدة ، كيف تعجز عن اعادة نفس العمليـــة مرة أخرى ؟ هذه التجربة التى نعيشها نحن اليوم ، كيف يستحيل حدوثها ثانية ؟؟ انه لا شىء أكثر عداء للمنطق والعقل الانسانى من أن نسلم بوقوع حادث فى « الحال » ، وننكره فى « المستقبل » ! !

ياله من تناقض عجيب .. ان الانسان يدعى أن « الآلهة » التى اخترعها هو بقدراته الخارقة لتفسير الكون تستطيع اعادة وقائع الكون مرة أخرى ، ولكنه يرفض بعنـــاد تلك النظرية المماثلة التى يتقـــدم بها الدين ، ويعبر « السير جيمس جينز » عن نظرية هؤلاء القوم قائلا :

« لا غرابة اذا كانت أرضنا قد جاءت صدفة نتيجة بعض الحوادث . واذا بقى كوننا على حاله الراهنة لمدة طويلة مماثلة (لمدة حدوثه صدفة) ، فلا نستبعد حدوث أى شىء يمكننا قياسه على الأرض »(١) .

وترى نظرية النشوء والتطور أن جميع أنواع الحيوانات تنحدر من نوع بدائى واحد ، وانهـــا ارتقت الى ما هى عليه الآن خـــلال مراحل تطورية متطاولة . وبناء على هذا التفسير الذى قام بوضعه « داروين » ـــ صاحب هذه الفكرة ـــ فان « الزراف » ، الموجود حاليا ، كان فى بدء الأمر من عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف ، ولكن هذا الحيوان ، من خلال العمليات الطويلة التى أعقبت التوالد والتناسل ، والتغيرات والفوارق الصغيرة التى طرأت على الجنس الحيوانى ، استطاع أن يحصل على هذ الهيكل العظيم غير العادى ، الذى نشهده اليوم ..

يقول « داروين » موضحا نظريته فى الباب التاسع من كتابه :

« ومن الأمور الحتمية عندى أنه ـــ اذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل ، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذى ظلف عادى حيوانا مثل الزراف »(٢) ..

وهكذا اضطر جميع العلماء ، الذين حاولوا شرح الكون والحياة ، بطريق طبيعية ، الى أن يسلموا بأنه لو هيئت نفس الأحوال ـــ التى ساعدت فى خلق الحياة الأولى ـــ فمن الممكن حدوث الحياة ولوازمها مرة أخرى . ان امكان حدوث الحياة الأخرى أقوى ـــ نظريا ـــ من امكان الحياة الأولى ، الذى قد وقع فعلا ، واى شىء نسلم به أنه خلق الحياة ـــ مهما كان هذا الخالق ـــ فلابد لنا من الاقرار بصفةبدهية بأن ذلك الخالق يستطيع بالتأكيد اعادة نفس الحوادث التى أنشأها للمرة الأولى ، ولابد لنا من هذا الاعتراف ، اللهم الا اذا أنكرنا الحياة الأولى (الموجودة الآن) .. فنحن نفقد جميع الأسس

(١) Modern Scientific Thought, p. 3.
(٢) Origin of Species, p. 169.

التى قد نبنى عليها دعائم انكارنا للحياة الأخرى ، عندما نسلم بوجود الحياة الأولى !

* * *

خامسا ـ البحث النفسى :

لقد أثبت البحث النفسى ، الذى ذكرناه آنفا ، أن جميع أفكار الانسان ـ أو بعبارة أخرى : جميع خلايا مخه ـ تبقى بصفة دائمة . وهذا الواقع يثبت بصراحة أن عقل الانسان ليس بجزء من جسمه ، فان جميع خلايا وانسجة الجسم تتغير تغيرا كاملا فى بضعة أعوام ، ولكن سجل اللاشعور لا يقبل أى تغير أو مغالطة أو شبهة على رغم مرور مئات السنين . ولو كان هذا السجل الحافظ كائنا فى الجسم فلا أدرى أين مكانه منه ؟ وفى أى جزء يكمن على وجه الخصوص ؟ ولو كان فى أحد أجزاء هذا الجسم ، فلماذا لا يزول عندما تزول هذه الأجزاء بعد سنوات عديدة ؟ **ما أعجب هذا السجل الذى تتحطم جميع لوحاته تلقائيا ، ولكنه لا يفنى ولا يزول ! ؟**

ان هذه البحوث الجديدة فى علم النفس تؤكد ، بصفة قاطعة ، أن الوجود الانسانى لا تنحصر حقيقته فى ذلك الجسم المادى الذى يخضع دوما لعمليات التحطم والاحتكاك والفناء ، بل هو شىء آخر ، غير هذا كله ، وهو لا يفنى ، بل يبقى مستقلا ، ولايزول .

ويعلم من هذا أيضا أن الحواجز وقوانين الزمن لا وظيفة لها الا فى عالمنا هذا ، ولو كان هناك عالم آخر ، يبدأ عند فناء جسمنا المادى ، فهو يخلو تماما من هذه الحواجز والقوانين . ان كل ما نباشره من الأعمال والأفعال الشعورية يخرج فى نطاق هذه القوانين والحواجز . ولو كانت هناك « حياة عقلية أخرى » ـ كما يعتقد فرويد ـ فمعناه أن هذه الحياة الجارية لن تفنى أبدا ، بل ستستأنف مسيرتها بعد الموت ، وسوف تكون على قيد الحياة ، فان هذا الموت لم يكن الا نتيجة من نتائج هذه الحواجز والقوانين الزمنية . أما وجودنا الحقيقى ـ وهو اللاشعور ، كما يقول فرويد ـ فهو حر مستقل عن هذه الحواجز والقوانين ، ولا يطرأ عليه الموت ، بل يأتى (الموت) على الجسد العنصرى المادى ، ويبقى اللاشعور ـ وهو الانسان الحقيقى ـ كما هو .. ومثاله أن حادثا وقع قبل ربع قرن ، أو فكرا خطر ببالى قبل عشرين سنة ، وقد نسيت كليهما قاطبة ، ومع ذلك فانى أراهما فى أحلامى اليوم . وتفسير ذلك عند علماء النفس هو أنهما كانا محفوظين فى «اللاشعور» بأكمل صورهما وجزئياتهما ، كأنما حدثا بالأمس !!

وقد نتساءل هنا : وأين هذا اللاشعور ؟ فلو كان منقوشا على الخلايا ـ كالصوت مسجلا على الاسطوانات ـ فان تلك الخلايا ، التى سجلت ذلك الحادث قبل ربع قرن ، أو هذه الفكرة قبل عشرين سنة ، قد تحطمت وزالت منذ سنين طويلة ، ولا علاقة لها ، فى أى صورة ، بجسدى الموجود الآن . فأين هذا الفكر من جسدى ؟ تلك شهادة تجريبية تثبت ـ قطعيا ـ أن هناك عالما آخر خارج أجسامنا المادية ، مستقلا بذاته ، ولا يفنى بفناء الجسم ، أو جزء من أجزائه .

* * *

سادسا ــ البحوث الروحية :

أثبتت « البحوث الروحية » Psychical Researches الحياة بعد الموت ، على المستوى التجريبى والعملى . ان الأمر الذى يدفعنا الى ابداء مزيد من الاعجاب بهذه البحوث هو أنها لا تثبت « بقاءا محضا » لروح ما ، بل انها تثبت أيضا بقاء الشخصيات التى كنا نعرفها بذاتها ، قبل أن تموت !!

ان هناك خصائص كثيرة يتمتع بها الانسان من قديم الأزمان ، ولكنا لم نلق الضوء عليها الا حديثا . ومن هذه الخصائص : « الرؤيا » ، التى تعد من أقدم مميزات الجنس البشرى . والحقائق المثيرة التى تعد أيضا من أقدم مميزات الجنس البشرى . والحقائق المثيرة التى كشفها علماء النفس عن هذه الميزة لم يكن قدماؤنا على علم بهـــا .

وهناك مظاهر أخرى درسناها أخيرا ، وأجرينا بحوثا واحصاءات فى مختلف أنحاء العالم حولها ، وجاءت البحوث بنتائج غاية فى الأهمية .

ومن هذه البحوث ما نسميه « بالبحوث الروحية » .. وهى فرع من علم النفس الحديث ، وهدفها محاولة الكشف عن الميزات الانسانية غـــير العادية ، وقد أقيم أول معهد لاجراء هذا النمط من البحوث عام ١٨٨٢ م فى انجلترا . وبدأ علماء المعهد عملهم سنة ١٨٨٩ م ، بعد أن قاموا بمســـح واسع النطاق على ١٧ ألفا من المواطنين ، ولا يزال هذا المعهد موجودا باسم « جمعية البحوث الروحية » . وقد انتشرت الآن معاهد كثيرة فى مختلف بلدان العالم . وأثبتت هذه المعاهد ، بعد بحوثها وتجاربها الواسعة النطاق ، أن الشخصية الانسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادى ، فى صورة غريبة ..

كان وكيل متنقل لشركة أمريكية يسجل طلبات عملائه . جالسا فى حجرته فى فندق سانت جوزيف ، بولاية ميسورى ، فاذا به يشعر أن أحدا يجلس عن يمينه . ويقول الرجل : « فحولت وجهى بسرعة فوجدت أنها أختى ! » .

وكانت أخته هذه قد ماتت منذ تسع سنين .. وبعد برهة اختفى وجـــه أخته . وكان الوكيل قد أفزعه هذا الحادث ، لدرجة أنه بدلا من أن يستأنف جولته ، قرر مغادرة (ميسورى) الى بيته فى بلدة (سانت لويس) . وفى البيت ذهب يقص على أقربائه الحادث بالتفصيل كما رآه ، وعندما وصل أثناء كلامه الى هذه الجملة : « وشاهدت على خدها الأيمن جرحا واضحا أحمر اللون ».. فاذا بأمه تصرخ وتقوم مرتعدة ، وهى تقول : « اننى انا السبب فى ذلك الجرح الذى رأيته ، وقد حدث ذلك عن غير قصد منى ، وقد ندمت لذلك الحادث وآلمنى المنظر ، فأزلت كل آثار الجرح ، ووضعت فى مكانه شيئا من البودرة ! » وأضافت الأم قائلة :

« ومنذ ذلك اليوم لم أفض بهذا السر الى أحد أبدا »(١) .

ان هذه الوقائع وأمثالها لا تختص بأمريكا وأوروبا ، وانما تحدث بكثرة فى كل منطقة من العالم . ولكن حيث ان أكثر البحوث العلمية الحديثة قد

(١) Human Personality and its Survival of Bodily Death, FWH Myers, N.Y., 1903, Vol. II, pp. 27-30.

أجريت فى تلك المنطقة من العالم ، فلابد لنا أن نأتى بالشهادات التجريبية من تلك المناطق أيضا . ولو كان عند بعض علمائنا شىء من الطموح والثقة بالنفس ، وبدءوا هذا العمل فى مناطقهم ، فمن الممكن أن نجمع شهادات لا حصر لها فى بلادنا الآسيوية والافريقية . وأنا شخصيا على علم بكثير من وقائع مماثلة تدعم هذه النظرية بصفة مدهشة ، ولكنا بكل أسف تعوزنا الهمم للقيام بمثل هذه البحوث العلمية ، وما يلزمها من قدرة على الانفاق ، وبذل الوقت المطلوب .

* * *

ان هناك وقائع لا تحصى من هذا القبيل ، وهى تؤكد وجود « شخصيات معروفة » بعد موتها . ولا سبيل أمامنا لاعتبار هذه الوقائع والحقائق : « أوهاما وخيالات » ، كما اعتاد بعض الناس القول ببساطة فى مثل هذه المسائل ، فان سر الجرح على خد الفتاة الأيمن — وقد ماتت منذ حقبة من من الزمن — لم يكن أحد يعرفه غير الفتاة وأمها . .

وهناك وقائع أخرى تؤكد بقاء الحياة بعد الموت ، وهى وقائع تتعلق بأولئك الذين نسميهم : « بالمتحركين آليا » Automatists (١) . ويطلق هذا الاسم على الذين تصدر عنهم أفعال رغم ارادتهم الذاتية ، وهذه الوقائع تدل على أن أرواحا — لأشخاص قد ماتوا — تسكن فى أجسام هؤلاء الأحياء . ويكشف هؤلاء الناس اثناء أعمالهم عن جزئيات لا يعرفها الا الموتى ، أصحاب الأرواح .. ثم يظهر بعد شهور وسنين أن تلك الجزئيات كانت حقائق واقعية . .

وهناك أيضا رجال يتكلمون ويكتبون فى آن واحد ، ولا يكون للمكتوب أية علاقة بالقول ، كما أن الكاتب لا يعلم بنفسه ماذا كتب ، الا بعد الاطلاع على ما كتبه ، « وهذا الواقع يثبت أن روحا — غير روحه الشخصية — تسكن فى جسده ، وهى التى تجعله يكتب(٢) .

* * *

ان كثيرين من علمائنا المحدثين يرتابون فى قبول هذا الاستدلال ، كما يقول « براد » .

« ان أى فرع من فروع العلوم الحديثة لا يؤكد امكان الحياة بعد الموت ، اللهم الا ذلك الاستثناء المشتبه فيه من البحوث الروحية »(٣) .

بيد أن الاستدلال يشبه عندى أن أقول : « ان « التفكير » استثناء مشتبه فى أمره ، لأن أحدا من ملايين الحيوانات على سطح الأرض لم يصدق هذه الظاهرة غير الانسان !! » .

* * *

ان بقاء الحياة وفناءها يتعلق بعلم النفس ، لكونه مسألة نفسية بحتة .

---

(١) ربما كان من بين هؤلاء من نصفهم بلغتنا الدارجة بأنهم : (ركبهم الجن) ، فهم مسلوبو الارادة ، يتكلمون بلسان غيرهم من العفاريت . (المراجع)

(٢) A Philosophical Scrutiny of Religion, pp. 407-10.

(٣) Religion, Philosophy & Physical Researches, London, 1953, p. 235.

فلا تصلح دراسته الا فى علم النفس ، اما أن نبحث عنه فى اقسام اخرى من العلوم . فهو بمثابة أن نطالب علمى (النبات) و (الفلزات) باثبات ظاهرة التفكير . ولا نستطيع — أيضا — أن نجعل دراستنا داخل الجسم الانسانى حكما فى هذه المسألة الخطيرة ، وسببه أن الجزء الذى ندعى بقاءه واستمراره فى الحياة — وهو الروح — لا يوجد فى هذا الجزء المادى ، بل فى جسم آخر سواه .

وهذا هو الأمر الذى دفع الكثيرين من علمائنا الى الاعتراف بأن « الحياة بعد الموت » واقع حقيقى ، بعد أن قاموا بأبحاث علمية طويلة غير منحازة . وقد ألقى « البروفسور دوكاس » ، وهو أستاذ الفلسفة بجامعة براون ، ضوءا على الجوانب النفسية والفلسفية من مسألة الحياة بعد الموت ، فى الباب السابع عشر من كتابه . والدكتور دوكاس لا يؤمن بالحياة بعد الموت كعقيدة دينية ، وانما وجد — أثناء بحوثه — شواهد كثيرة ، اضطر — على أثرها — أن يؤمن بالحياة الآخرة ، مجردة عن قضايا الدين . وهو يكتب فى آخر الباب السابع عشر من كتابه قائلا :

« لقد قام رهط من أذكى علمائنا وأكثرهم خبرة بمطالعة الشهادات المتعلقة بالمسألة ، وفحصوها بنظرة نقد ثاقبة ، وقد توصلوا آخر الأمر الى أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة « بقاء الروح » نظرية معقولة ، وممكنة الحدوث .. وهم يرون أنه لا يمكن تفسير تلك الشواهد الا على هذا النحو . ومن هؤلاء الكبار الذين قاموا بهذه البحوث نستطيع أن نذكر : الأساتذة الفريد راسل واليس ، والسير وليام كروكس ، وف. و. ه مايرز ، وسيزار لومبرازو ، وكميل فلاماريون ، والسير أوليفر لوج ، والدكتور ريتشارد هوجسن ، والمستر هنرى سيدويك ، والبروفيسور هيسلوب » .

ويستطرد الدكتور دوكاس قائلا :

« ويتضح من هذا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت — التى يؤمن بها الكثيرون منا كعقيدة دينية — ليس من الممكن أن تكون واقعا فحسب ، وانما لعلها هى الوحيدة ، من عقائد الدين الكثيرة ، التى يمكن اثباتها بالدليل التجريبى . ولو صح هذا فمن الممكن أيضا أن نجد معلومات قطعية فى هذا الموضوع ، بغض النظر عن الأفكار التى افتراها رجال الدين عن نوعية الحياة بعد الموت ، ولن نحتاج حينئذ الى الايمان بالوجهة الدينية من هذه النظرية(١) .

ويكاد الدكتور دوكاس — بعد الوصول الى هذا الحد من وضوح قضية الحياة بعد الموت ، ثم الجحود بوجهتها الدينية — أن يكون مثله مثل الفلاح الذى يصر على انه لا سبيل الى الحديث بينه وبين أحد أقربائه ، الذى يسكن فى بلدة نائية .. فاذا وصلت خط التليفون مع قريبه هذا فى البلدة النائية ، وأعطيته السماعة .. اذا به يقول لك ، بعد فراغه من الكلام : « ليس من الضرورى أنه كان صوت قريبى ، فمن الممكن أنه كان يخرج من احدى الماكينات ! » .

* * *

(١) A Philosophical Scrutiny of Religion, p. 412.

الباب السادس

إثبات الرسالة

من العقائد الهامة فى الدين ، بعد الايمان بالله ، عقيدة الايمان بالرسالة ، أو الوحى والالهام . ومعناها : أن الله تعالى **ينزل** كلامه على انسان يختاره من بين الناس ، ليخبر الناس بما يرضى الله تعالى .

وحين عجزنا عن رؤية أى **خط اتصال ساخن** ، بين الله سبحانه وبين الرسول ، أنكرناه . ولكنا اليوم نستطيع أن نفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل الحقائق المعلومة .

ان هناك وقائع كثيرة جدا تجرى من حولنا فى كل لحظة ، ونحن نعجز عن ادراكها ، أو سماعها ، أو الاحساس بها بوساطة أجهزتنا العصبية ، وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا ادراكها بفضل الأجهزة العلمية التى اخترعناها . وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال ، وكأنه يطير عند اذنك !

ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه الى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية فى الفضاء !!

لقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع ادراك كثير جدا من الأحداث التى لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية .

وهذه الطاقة غير العادية للسماع لا تخص الآلات العلمية الحديثة ، وانما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضا . ومما لا شك فيه أن جهاز سماع الانسان محدود جدا ،ولكن أجهزة بعض الحيوانات تختلف كل الاختلاف ، فالكلب ، مثلا ، يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذى مر من الطريق ، ومن ثم استغلت الكلاب فى البحث عن الجرائم والمجرمين .. فالقفل الذى كسره اللص يشمه الكلب المدرب ، ثم ينطلق مقتفيا أثر الرائحة المعينة التى وجدها عند القفل المكسور ، وفجأة نراه يمسك باللص من بين الألوف .

وهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتا تخرج عن نطاق أسماعنا ، ولقد أثبتت البحوث فى هذا الميدان أن بعض الحيوانات يتمتع بقوة « الاشراق » Telepathy . فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (Moth) ، أو (العثة) ، وهى حشرة مجنحة — على نافذة مفتوحة ، فستحدث صوتا يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جدا ، ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضا بطريقته .

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى « الجندب » ، يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريق غير عادية ، **ويسمع** على مبعدة نصف ميل ، وهو

يحرك فى هذه العملية ستمائة طن من الهواء ، ليدعو زوجه ، وهذه الزوج ترسل أيضا وهى ساكنة بلا حراك جوابا لا نعرفه ، وانما يعرفه الجندب الذكر ، ثم يلحق بها أينما كانت .

وقد أثبتت البحوث أيضا أن « أبو النطيط » العادى Grasshoper لديه قدرة خارقة على السماع ، حتى انه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التى تحدث فى نصف قطر من ذرة الهيدروجين !

وهناك أمثلة أخرى كثيرة ، تؤكد امكان وجود وسائل غير مرئية لدى ذوى الحواس الخاصة .

واذا كان الأمر كذلك ، فما وجه الغرابة فى ادعاء انسان أنه يسمع صوتا من لدن ربه ، لا يدركه عامة الناس (؟) ما دام من الممكن أن توجد فى هذا العالم حركات وأصوات لا تسمعها آذان الانسان ، ولكن تسجلها الآلات ؟ وما دامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى ؟

ما هو جانب التعجب والاستبعاد ؟

ان الله تعالى — لحكمة يعلمها — يرسل رسائله بوسائل خافتة خفية الى الانسان المختار للرسالة ، بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها . فليس هناك من تصادم فى الحقيقة ، بين مشاهداتنا وتجاربنا العلمية ، فهو واقع من الوقائع الكثيرة التى نشاهدها ونجربها فى أمكنة وطرق مختلفة ، فالوحى امكان وجدناه فى شكل الواقع بعد التجربة .

* * *

وقد تبين أن تجارب الاشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات ، وانما توجد فى الانسان « بالقوة » ، يقول الدكتور اليكسيس كيريل(١) : « ان حدود الفرد فى اطار الزمان والمكان هى مجرد افتراض »(٢) . فيستطيع عامل الاشراق أن يجعلك تنام ، وتضحك ، أو تبكى ، كما يستطيع أن ينقل اليك كلمات أو خواطر ، لست على علم بها . انها عملية لا تستعمل فيها أية وسائل ولا يشعر بها غير عامل الاشراق وصاحبه .

كيف يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربه ؟ اننا بعد الايمان بالله ، والاطلاع على هذه التجارب الكثيرة بما فى ذلك الاشراق ، لا نجد أساسا لانكار الوحى والالهام .

* * *

وقد حدث سنة ١٩٥٠ أن المسئولين فى « بافاريا » رفعوا قضية ضد أحد النمسويين ، واسمه (فرنتر ستروبيل) ، بتهمة التدخل فى برامج الاذاعة عن طريق الاشراق .

وكان فرنتر ستروبيل يستعرض أعماله فى فندق ريجنا ، بميونيخ ، عندما ناول أوراق لعب الكوتشينة الى أحد المتفرجين ، وطلب اليه اختيار ورقة ما ، وادعى أنه سوف ينقل اسم تلك الورقة واسم الفندق مع ترتيبهما ، كما هما

---

(١) Man the Unknown. p. 244.

(٢) أى لا نهاية لهذه الحدود من حيث الامكان . (المعرب)

فى ذهن المتفرج ، الى المذيع الذى كان يقرأ الأخبار من اذاعة ميونيخ المحلية ، دون أن يعرف المذيع نفسه شيئا من هذا !!

بعد ثوان سمع الناس صوت مذيع مرتعش ، وهو يقول : « فندق ريجنا ـ بنت البستونى » وكان الترتيب واسم الورقة صحيحين ، كما أراد المتفرج .

وكان الارتعاش والرهبة واضحين فى صوت المذيع ، ولكنه واصل قراءة الأخبار . استغرب الكثيرون من المستمعين من سكان ميونيخ ، واتصل مئات منهم تليفونيا بالاذاعة يستفسرون عن السر الغامض .. فكان من الصعب عليهم ادراك علاقة الأخبار « بفندق ريجنا ـ بنت البستونى » : وحضر طبيب الاذاعة للكشف على المذيع ، فوجده فى حالة اضطراب خطيرة ، وأدلى المذيع ببيانه قائلا : « اننى شعرت بصداع شديد فى رأسى ، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك ! » .

* * *

وقد عرض العلماء نظريات عديدة لشرح هذه الصور من عملية الاشراق ، ومنها أن أمواجا تصدر من المخ وتنتشر فى العالم أجمع بسرعة فائقة ، ولذلك سموها بنظرية الموجة المخية Brain Wave Theory (١) .

ونحن نقول : انه لما كان الانسان يستطيع تحويل الأفكار بأكملها الى انسان آخر ، على بعد غير عادى ، وبدون استعمال أى واسطة مادية ظاهرية ، فلماذا تستحيل نفس العملية بين الاله وعباده ؟ ان هذا المظهر من كفاءة قوى الانسان ـ وأمثلته كثيرة لا تحصى ـ ليس الا قرينة تجريبية تجعلنا نفهم علاقة الألفاظ والمعانى التى تربط العبد بالاله عندما يرسل رسالاته .

ان الاشراق أمر معروف لدى الناس ، وهو يدلنا على فهم ذلك النظام الاشراقى العظيم بين الاله والعباد ، والذى يكون فى أكمل صوره حين يبلغ درجة « الوحى » ، وهذا الوحى لا يعدو أن يكون « اشراقا كونيا » ، من نوع الاشراقات التى عهدناها فى حياتنا على مستويات محدودة .

* * *

أولا ـ ضرورة الرسالة :

وينبغى ـ بعد وضوح امكان الوحى والالهام ـ أن نبحث عما اذا كان « ضروريا » أن يخاطب الله انسانا ، ليبلغ كلامه الى الناس ؟

ان أكبر دليل على هذه الضرورة هو أن الأمر الذى يخبر عنه الرسول من أهم الأمور التى تتعلق بحياة الانسان ومصيره ، والانسان لا يستطيع أن يصل الى تلك الحقائق بجهوده الشخصية ، انه يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون كى يفهم أسرار بدء الحياة ونهايتها ، وحقائق الشر والخير ، وكيفية صوغ الانسان من أجل الانسانية ، وتنظيم أجهزة الحياة حتى تستطيع الانسانية ان تسير قدما فى طريق الخير والرفاهية .. ولم تكلل هذه الجهود بالنجاح الى يوم الناس هذا . فقد كشفنا عن أسرار الحديد والبترول ، وتعرفنا

(١) Religion, Philosophy and Physical Research.
C.D. Broad, pp. 47-48; Man the Unknown, pp. 244-49.

على حقائق الطبيعة بعد جهد قصير ، ولكننا عاجزون عن كشف « علم الانسان » ، رغم أن جهود أعظم عقولنا العبقرية تواصل البحث عن هذا العلم ، ولم تستطع ، حتى الآن ، تحديد مبادئه وأسسه . ان هذا هو أكبر دليل على أن الانسان يحتاج الى هدى الله من أجل أن يعرف نفسه !

* * *

ومن المسلم عند الانسان الجديد أنه لم يفلح بعد فى كشف لغز الحياة ، ولكنه على كل حال يأمل فى أن يساعده القدر يوما لرفع القناع عن هذا السر المعقد ، ولا ريب أن عجز مجتمع العلم والصناعة عن اشباع الحاجات النفسية للانسان يؤكد الفكرة التى تقول : « اننا أعطينا أهمية غير عادية للعلوم المادية ، على حين تركنا العلوم الانسانية فى مراحلها البدائية » ، أما الذين دفع بهم طموحهم الجارف الى العمل فى هذا المجال ، مجال (العلوم الانسانية) فهم كذلك لم يستطيعوا كشف شىء ما ، بل لجوا فى ضلالهم يعمهون ، يقول الدكتور الكسيس كيريل (الحائز على جائزة نوبل للعلوم) :

« ان مبادىء الثورة الفرنسية ، وأفكار ماركس ، ولينين ، لا تنطبق الا على الانسان العقلى المثالى . ومن الواجب أن نشعر بصراحة تامة بأن قوانين العلاقات الانسانية لم تكشف بعد . أما الاجتماع والاقتصاد وما أشبههما ، فهى علوم افتراضية محضة ، بدون أدلة يمكن اثباتها »(١) .

ولا شك أن علومنا الجديدة قد فتحت مجالات أمام الانسان ، ولكنها فى نفس الوقت جعلت المسألة أكثر تعقيدا ، ولم تساعد فى حل الأزمة فى أية مرحلة .

ويقول الأستاذ ج. و. ن. سوليفان :

« ان الكون الذى كشفه العلم الحديث هو أكثر غموضا وابهاما من التاريخ الفكرى بأكمله ، ولا شك فى أن علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة من أى عصر مضى ، ولكن هذه المعلومات كلها غير مقنعة ، فنحن نواجه اليوم الابهام والمتناقضات فى كل ناحية »(٢) .

هذه الكارثة المؤسفة التى نقف أمامها ، بعد بحث طويل فى العلوم المادية عن سر الحياة ، تدلنا على أن ادراك سر الحياة لن يتاح للانسان(٣) .

ان أحوالنا تحتم علينا معرفة سر الحياة ، اذ أننا لا نستطيع مواصلة الحياة فى أكمل صورها دون معرفتها ، ولذلك كان خير ما نتمنى بقلوبنا أن ندركه ، ولا يرضى أسمى جزء من شخصيتنا ، وهو العقل ، أن يطمئن بدونه . فحياتنا مبعثرة لفقداننا هذه الحقيقة .

سر الحياة هو ضرورتنا الكبرى ، هذا من ناحية ، ولكننا ، من ناحية أخرى ، لا نستطيع أن نظفر به بجهودنا وحدها .

هذه الحالة وحدها تكفى لنتبين حاجتنا الشديدة الى « الوحى » ، فأهمية

---

(١) Man the Unknown, p. 37.

(٢) Limitations of Science, p. 1.

(٣) انظر للتفصيل كتاب الدكتور كيريل ، ص ١٦ — ١٩ .

سر الحياة ، ثم خروج هذا السر عن دائرة قوى الانسان ، يدل على أنه لابد أن تأتى المعرفة من الخارج أيضا ، كالضوء والحرارة اللذين تتوقف عليهما حياة الانسان ، ولكنهما هيئا من الخارج(١) .

* * *

ان مهمتنا ، بعد التسليم بامكان الوحى وضرورته ، هى أن نبحث عن الانسان الذى يدعى أنه نبى .. هل هو صاحب الوحى فى الحقيقة ؟ .. لقد نصت العقيدة الدينية على مجىء عدد كبير من الأنبياء ، ولكننا سوف نبحث فى هذا الباب عن نبوءة رسول الاسلام : سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، فان نبوة سائر الأنبياء من قبله تثبت تلقائيا لو ثبتت نبوته ، لكونه آخر الأنبياء ، ولأنه يصدقهم ولا ينكرهم ، ولأن نجاة البشرية ، أو هلاكها فى معركة الحياة رهن بايمانها بهذا النبى ، أو تكذيبها اياه.

* * *

لقد ولد الطفل بمكة صبيحة يوم ٢٩ أغسطس من عام ٥٧٠ م ، وعندما بلغ الأربعين من عمره ، أعلن أن الله تعالى أرسله خاتما للنبيين ، وكلفه بابلاغ رسالته الى جميع فئات الجنس البشرى ، وأن من اتبعه نجا فى الحياة الآخرة ، ومن كذبه فهو فى خسران مبين .

ان أصداء هذا الصوت تمر فوق رؤوسنا اليوم بأشد قوتها ، وهو ليس بصوت عادى تتجاهله الآذان .. فهو أكبر نداء فى تاريخنا يدعونا الى تفكير دقيق ، وعلينا أن ندرسه بدقة ، فاما قبلناه وهو صادق ، واما رفضناه لو وجدناه كاذبا .. وهيهات .

* * *

ثانيا ــ مقياس الرسالة :

كل فكر يمر بثلاث مراحل ، حتى يصبح حقيقة علمية :

المرحلة الأولى : الفرض Hypothesis

المرحلة الثانية : الملاحظة Observation

المرحلة الثالثة : التحقق Verification

والمرحلة الأولى من الحقائق هى أن نفترضها ، ثم نشاهدها وندرسها ، لنتبين صدقها أو كذبها ، فان وجدناها صحيحة فى ضوء الدراسة ، قبلناها ، لتصبح حقيقة علمية ، وقد ينقلب هذا الوضع ، فاننا فى بعض الأحيان نشاهد أشياء نتوصل بها الى نظرية ،ثم نبدأ البحث فى ضوئها .

وبناء على هذا الأساس فان دعوى النبوة (فرض) . وعلينا أن نفتش عما اذا كانت (الملاحظات) تؤيد هذا الفرض ؟ فاذا أيدته المشاهدات أصبح (حقيقة) مصدقة ، يلزمنا قبولها ..

ولكن ما الملاحظات التى نحتاج اليها لاختبار هذا الفرض ؟

وما المظاهر الخارجية التى تؤيد كون محمد (صلى الله عليه وسلم) نبيا حقا ؟

---

(١) سوف نبحث هذه المسألة بتوضيح أكثر فى الفصول القادمة .

وما الخصائص والميزات التى اجتمعت فى الرسول ، ولا نجد لها تفسيراً الا اذا قلنا : انه كان نبيا !

فى رأيى أنه لابد من **مقياسين** لاختبار الأنبياء :

أولا : أن يكون رجلا مثاليا بصورة غير عادية ، فان الذى يصطفى ليكون كليم الله ، وليكشف للانسان برنامج الحياة وسرها ، لابد أن يكون أسمى شخصية فى النوع الانسانى ، كما لابد أن يكون حاملا مثل الحياة العليا . فاذا كانت حياته الذاتية متصفة بهذه الصفات فهى أكبر دليل على ما يقول ، اذ لو كانت دعواه باطلة لما كان ممكنا أن تتجلى هذه الحقيقة الكبرى فى حياته الذاتية ، حتى تسمو به فوق سائر الانسانية ، خلقا وشمائل .

ثانيا : أن يكون كلامه ورسالته مملوئين بجوانب يستحيل حصولها للانسان العادى ، ولا **تؤمل** الا ممن ظفر بمعرفة رب الكون ، بحيث لا يمكن للعامة محاكاة ما جاء به النبى من وحى الله .

اننا سوف نبحث عن الرسول فى ضوء هذين المقياسين .

* * *

لقد شهد التاريخ بكل قطعية أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يتمتع بسيرة غير عادية ، ومن الممكن للمتعصبين انكار أية حقيقة ، مهما كانت واضحة ، كما أن من الممكن للمنكرين ادعاء أى شىء فى سبيل الاستغلال ، اذا كانوا غير راضين بالنتيجة ، مهما كانت صادقة وبدهية ! وحسبنا أن نذكر على ذلك موقفا من حياتنا الحديثة ! فقد شاهدنا منذ سنين قليلة مثالا ساخرا لهذا المبدأ ، عندما هاجمت الصين الشعبية حدود الهند الدولية ، وأخذت الصين ازاء احتجاج الهند تتهم الهند نفسها بالعدوان !!

وفى الخطاب الذى أرسله رئيس وزراء الصين الى الهند ، والذى أذيع نصه بدلهى فى يناير عام ١٩٦٠ ، ادعت الصين أن لها حقا فى أراض هندية تبلغ مساحتها ٠٠٠ر٢٢٠ كم مربعا !! ويقول رئيس وزراء الصين : ان القوات الصينية لم تتقدم الا لتدفع بالقوات الهندية المحتلة الى الوراء !!

أليس هذا منطق التعصب والاستغلال !!

أما الذى لا يشكو من داء التعصب ، ويهيىء عقله لمطالعة الحقائق بقلب مفتوح واع ، فانه سيسلم بعد دراسته بأن حياة محمد صلى الله عليه وسلم كانت أرقى ، وأحلى حياة شهدها البشر .

* * *

لقد أخبر محمد بن عبد الله بالنبوة ، وهو فى الأربعين من عمره ، وكان قد اشتهر قبل هذا بدور أخلاقى ممتاز ، حتى لقبه الناس « بالصادق الأمين » ، وكانت قريش قد أجمعت على أنه يستحيل أن يكذب ، أو يخون الأمانة .

ومن الأحداث التى جرت قبل اعلانه النبوة بخمس سنين أن أهل مكة أرادوا بناء الكعبة من جديد ، وكانت قريش هى صاحبة الأمر ، فاختلفت فيمن سيضع الحجر الأسود فى مكانه ، واستمر الخلاف أربعة أيام أو خمسة ، وأوشكت السيوف أن تبرز ، وكاد القوم أن يتناحروا ، ثم اتفقوا على أن يكون الفيصل فى هذه القضية أول من يدخل البيت الحرام صباح غد ، وفى اليوم

التالى شاهدوا أن الانسان الأول الذى دخل البيت كان محمدا ، فنادوه قائلين : « هذا الأمين ، رضينا »(١) .

اننا لا نعرف شخصية فى التاريخ الانسانى تمتعت بهذا الاجلال والتكريم والتقدير ، وبهذه السيرة غير العادية ، ثم أصبحت موضع نزاع بعد مضى أربعين سنة من عمرها .

* * *

وعندما نزل عليه الوحى لأول مرة ، وهو فى غار حراء ، اعتبره حادثا غريبا لم يعهده من قبل ، فرجع الى بيته يرجف فؤاده ، وقص كل ما حدث على زوجه : خديجة التى كانت أكبر منه سنا ، فقالت : « يا أبا القاسم والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » .

وكان أبو طالب عم النبى ، قد أبى أن يؤمن ، ولكنه حين علم أن ابنه « عليا » أسلم ، قال له : أى بنى :ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ فقال : يا أبت ، آمنت بالله ، وبرسول‌الله ، صليت معه واتبعته ، فقال ابوطالب : أما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه »(٢) .

وعندما جمع الناس لأول مرة بعد النبوة فى رحاب « جبل الصفا » ، سألهم : « يا بطون قريش ! أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ » فعلت الأصوات من كل الحناجر ، وهى تقول : « نعم ، ما جربنا عليك كذبا ! » .

ان هذا السجل التاريخى الممتاز لحياة الرسول قبل اعلان النبوة ، ليس له مثيل فى العالم ، ولم يسبق أن أحرز مثله أى شاعر ، أو فيلسوف ، أو مفكر، أو كاتب !!

وعندما أعلن محمد (صلى الله عليه وسلم) النبوة ، لم يكن صدقه موضع شك ، أو بحث مطلقا لدى أهل مكة ، فانهم كانوا على علم تام بحياته الكاملة ، ولذلك لم يرمه أحد بتهمة الكذب أو الاحتيال ، بل ذهبوا يدعون أنه فقد وعيه ، أو أنه شاعر أو ساحر ، أو أن الجن استولت على أعصابه ، وما الى ذلك من الدعاوى التى تحفل بذكرها الكتب التاريخية ، ولكن هذه الكتب لا تشير الى أية محاولة جرؤ صاحبها على النيل من أمانته وصدقه . بل يسجل التاريخ أنه : « ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه الا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته »(٣) .

وفى السنة الثالثة عشرة من النبوة ، صمم بعض شبان قريش على قتله ، وحاصروا بيته لاغتياله ، وفى تلك الساعة الخطرة الحرجة قرر الهجرة الى يثرب ، ولكنه أوصى ابن عمه (عليا) أن يرد جميع الأمانات الى أصحابها فى الصباح !

وهذا النضر بن الحارث ، وقد كان من أكبر المعارضين للنبى ، وكان يعد من الخبراء المحنكين بمكة — وقف يوما ، فألقى خطبة فى جمع من قريش ، وقال :

---

(١) صحيح البخارى ، باب ما ذكر فى الحجر الأسود .

(٢) Ideal Prophet, p. 58. ، وانظر سيرة ابن هشام ٢٦٥/١ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ، ص ٩٨ .

« يا معشر قريش ، انه ، والله قد نزل بكم أمر ما اتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ، ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم : كاهن ، لا والله ، ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم . وقلتم : شاعر ، لا والله ، ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه . وقلتم : مجنون ، لا والله ، ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه . يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فانه ، والله ، لقد نزل بكم أمر عظيم » .

« وكان هذا النضر من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة »(١) .

وكان أبو لهب عم النبى من الد أعدائه ، وقال له ذات مرة : « يا محمـــد ، اننى لا أقول : انك كاذب ، ولكن الأمر الذى تقوم بتبليغه باطل »(٢) .

ان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت عامة لسائر أهل الأرض ، غير مقصورة على الجزيرة العربية ، ولذلك أرسل كتابات الى ملوك البــلاد القريبة ، وقد تلقى امبراطور الروم « هرقل » كتابا من الرسول ، يدعوه الى اعتناق الدين الجديد ، فأمر رجاله باحضار رجل من قوم الرسول فى ديوانه(٣) . وكان بعض التجار من قريش يقومون برحلة تجارية فى بلاد الشام، فجىء بهم الى ديوان القيصر ، وسألهم هرقل عمن كان أقربهم نسبا بالرسول ، فأجاب أبو سفيان : « أنا أقربهم نسبا » . ثم جرى حديث تاريخى هام بين هرقل وأبى سفيان ، نقتبس هنا منه شيئا :

« **هرقل :** هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : هل يغدر ؟

أبو سفيان : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

فقال **هرقل :** قد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله » .

وعندما دار هذا الحديث لم يكن أبو سفيان قد آمن بالرسول بعد ، بل كان من خصومه ، الذين ألبوا عليه العرب ، وشنوا ضده الحروب ، وقال ، وهو يروى هذا الحادث : « والله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه »(٤) .

ان التاريخ على طوله لم يشهد رجلا أدلى خصومه بآراء مثالية عن سيرته وحياته مثلما أدلى به خصوم رسول الاسلام .

---

(١) المرجع السابق ٣١٩/١ .

(٢) الترمذى .

(٣) كان قيصر الروم هرقل حينئذ فى بيت المقدس يشكر الله لغلبته على الفرس ، وقد تلقى هذا الكتاب هناك .

(٤) صحيح البخارى : كيف كان بدء الوحى .

ان هذا الواقع هو الآخر دليل فى حد ذاته على حقيقة دعوة النبى العربى . وسوف أنقل هنا ما قاله الدكتور ليتز عن الرسول :

« اننى لأجرؤ بكل أدب أن أقول : ان الله الذى هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها ، لو كان يوحى الى عباده فدين محمد هو دين الوحى ، ولو كانت آيات الايثار ، والأمانة ، والاعتقاد الراسخ القوى ، ووسائل التمييز بين الخير والشر ، ودفع الباطل هى الشاهدة على الالهام ، فرسالة محمد هى هذا الالهام »(١) .

* * *

لقد عانى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، من صنوف الأذى ، وضروب العنت والاضطهاد عندما بدأ دعوته ، وحاربه قومه أشد الحرب وأقساها ، فوضعوا فى طريق مروره الأشواك ، وصبوا على جسمه الطاهر أكواما من النجاسة .. بل ووجدناه ذات مرة بينما كان يؤدى صلاته ، واذا (عقبة بن أبى معيط) يلببه بردائه بشدة حتى وقع النبى على الأرض ..

ولكن هذه الاستفزازات لم تؤثر فى مهمة النبى ، فاتبعوا معه أسلوبا آخر ، وذلك حين قاطعوه هو وعشيرته من بنى هاشم ، وأجبروهم على أن يعتزلوا الناس ، فلجأوا الى **شعب** بنى هاشم ، ومنعوا عنهم الطعام ، وحرموا التعامل معهم ، ومضى على هذه المقاطعة والحصار التاريخى ثلاث سنين ، وهم يأكلون أوراق شجر (الطلح) الجبلية المرة ، لسد حاجة البطن الى الطعام . ويروى أحد الصحابة فى هذا الحصار أنه حصل مرة على قطعة جافة من الجلد ، فغسله بالماء ووضعه على النار ، ثم بلله بالماء ثانية وأكله .

وبعد الخروج من هذا الحصار ذهب النبى صلى الله عليه وسلم الى أهل الطائف ، وكانت تبعد أربعين ميلا عن مكة ، وكان يقطنها الأعيان والأثرياء من ثقيف ، واستخدم هؤلاء لغة بالغة السوء مع الرسول . وذهب أحدهم يقول متحديا : « هو يمرط (يمزق) ثياب الكعبة ، ان كان الله أرسلك » ، وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك » . وقال الثالث : « والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله ، كما تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك » .

ولم يكتف هؤلاء بهذا الاستهزاء ، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يستبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس يرمونه بالأحجار ، الى أن سقط على صخرة مثخنا بالجراح ، وحين جلس ليستريح من الجراح والعنت ، رموه حتى نهض مبتعدا عنهم ، وهم يتابعونه بالسب والايذاء والتصفيق .. ولم يزل هذا المشهد حتى أقبل المساء ، وأوى الرسول الى حائط لعتبة بن ربيعة ، فجلس فى ظل كرمة ، وهو جريح ملطخ بالدماء . وهذا هو الواقع الذى كان الرسول يذكره للسيدة عائشة فى قوله :

« لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة »(٢) .

---

(١) Life of Mohammad, by Abul Fadl.

(٢) نص هذا الحديث : قالت عائشة : يارسول الله ، هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، اذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى الى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم استفق الا بقرن الثعالب . فرفعت رأسى فاذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فاذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : ان الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث اليك ملك الجبال .. الخ — **المراجع** .

وعلى الرغم من هذا الأذى الشديد ، فقد ظل الرسول يدعو الى الحق ، حتى اجتمعت قريش على أنه لا سبيل الى التخلص منه الا بالقتل . وبناء على مؤامرة دبروها ، أحاط عدد من رؤسائهم وشبيبتهم ببيت الرسول ، وفى أيديهم سيوفهم المسلولة ، استعدادا لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما يخرج من بيته لتأدية صلاة الصبح ، ولكنه باذن من الله ، خرج من البيت دون أن يصاب بأذى ، وهاجر الى المدينة المنورة .

ثم أعلنت قريش قتالا منظما ضد النبى واعوانه ، وجروه الى الحرب ، وورطوه فى هذه الحروب زهاء عشر سنين ، وقد سقطت فى معاركها أسنانه الكريمة ، وكسرت رباعيته ، كما استشهد عدد كبير من صحابته ، وعانى مع أصحابه كل ما تعانيه الشعوب الضعيفة بعد اعلان الحرب عليها .

وهكذا دارت رحى التاريخ خلال ثلاثة وعشرين عاما من الكفاح ، وقبيل نهاية رسالته بعامين فتحت مكة ، ويومها وقف أمامه ألد خصومه ، لا يجدون نصيرا ولا معينا .. فهم يعرفون كيف يعامل المنتصر المغلوبين ، ولكن الذى لقبه ربه بأنه « رحمة للعالمين » سألهم :

ــ « يا معشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » .

ــ فقالوا : « خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم » .

ــ فأعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم .

« اذهبوا فأنتم الطلقاء ! »

ذلكم ، ولا شك ، أعظم مثل للرحمة والعفو ، وهو معجزة من معجزات التاريخ الانسانى . ولو كان هذا الحدث من أحداث ما قبل التاريخ ، أو لم يكن مسلما به تاريخيا ، لكذبه المكذبون الذين فى قلوبهم زيغ ، وقالوا : انها أسطورة من أساطير التاريخ ، فلم يخلق انسان بهذه الشيم !

وما أصدق ما قاله البروفيسور بورسورث سميث :

« عندما ألقى نظرة اجمالية استعرض فيها صفاته وبطولاته ما كان منها فى بدء نبوته ، وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذى نفخ فيهم روح الحياة ، وكم من البطولات المعجزة أحدثوا ــ أجده أقدس الناس ، وأعلاهم مرتبة ، حتى ان الانسانية لم تعرف له مثيلا (١) .

ان المثل الأعلى الذى ضربه النبى فى حياته الكاملة ، من الأخلاق العالية ، والزهد فى الأموال والملذات ، شىء لا مثيل له فى التاريخ .

لقد كان تاجرا ناجحا فى مكة ، وكانت زوجه السيدة خديجة من أثرى نساء العرب ، ولكن كل تجارته ، وثراء زوجته ، ذهبا فى سبيل الدعوة ، ثم ابتلى ببلاء شديد ، حتى انه قال مرة :

« لقد **أخفت** فى الله ، وما يخاف أحد (أى مثل ما أخفت) ، ولقد أوذيت فى الله ، وما يؤذى أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين ليلة ويوم ، ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد ، الا شىء يواريه ابط بلال »(٢) .

---

(١) Mohammad & Mohammadanism, p. 340

(٢) الترمذى عن أنس رضى الله عنه .

وما عانى النبى كل هذا الا لأجل دعوته ، لقد كان من الممكن أن يعيش حياة أخرى ، تختلف كل الاختلاف عن الحياة البائسة التى عاشها فى سبيل رسالته ، ولقد عرضت عليه ، حين كان بمكة ، عروض مغرية تكفل له العيش الرخى ، والمجد السنى ، فأوفد اليه رؤساء قريش « عتبة بن ربيعة »، الذى جاء ليقول له :

« يا ابن أخى ، انك منا ، حيث قد علمت من **السطة** فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، فاسمع منى ، أعرض عليك أمورا ، تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . فقال له : قل يا أبا الوليد أسمع ، قال : يا ابن أخى : ان كنت انما تريد ، بما جئت به من هذا الأمر ، مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا ، سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا : وان كان هذا الذى يأتيك **رئيا** تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه » . حتى اذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ ، قال نعم ، قال :

فاستمع منى ، فقال : أفعل .. فقرأ عليه الآيات الأولى من سورة (فصلت) ، فلما وصل الى قوله تعالى : « مثل صاعقة عاد وثمود » أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم أن يكف »(١) .

* * *

وفى المدينة المنورة ، كان النبى صلى الله عليه وسلم رئيسا لدولة المسلمين ، وكان يتمتع بمساعدين مثاليين ، يبذلون حياتهم لأجله ، ولم يعرف لهم نظراء على مدى التاريخ ، ولكن الوقائع التاريخية أثبتت أنه — حتى فى آخر أيام حياته ، حين أظلت رايته الجزيرة العربية كلها — بقى رجلا عاديا ، غير ملتفت الى شهوات الدنيا ومغرياتها ، حتى لحق بالرفيق الأعلى .

وقد روى سيدنا عمر بن الخطاب أنه دخل حجرة النبى صلى الله عليه وسلم: « فاذا هو مضطجع على رمال حصير ، ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمل بجنبه ، متكئا على وسادة حشوها ليف .. قلت : يا رسول الله ادع الله ، فليوسع على أمتك ، فان فارس والروم قد وسع عليهم ، وهم لا يعبدون الله . فقال : أو فى هذا أنت ، يا ابن الخطاب ؟ أولئك عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ، وفى رواية ، أما ترضى عن أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة »(٢) .

ومما تحكى السيدة عائشة أنه « كان يمر الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما توقد فى أبيات الرسول صلى الله عليه وسلم نار ، فسألها عروة بن الزبير : فما كانت معيشتكم،يا خالة ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء . وقالت : وكان لنا جيران من الأنصار ، لهم ربائب يسقوننا من لبنها ، جزاهم الله خيرا . » . وقد جاء فى حديث آخر : أنها ذكرت « أن آل محمد

(١) سيرة ابن هشام ٣١٣/١ — ٣١٤ .
(٢) متفق عليه .

لم يشبعوا ثلاثة أيام متوالية من طعام بر ، حتى مضى النبى صلى الله عليه وسلم ، لسبيله »(١) .

* * *

لقد عاش النبى هذه الحياة القاسية ، رغم كونه قادرا ، كل القدرة ، على أن يعيش حياة النعيم والترف . وعندما انتقل الى رحمة الله لم يورث أهله شيئا ، لا دراهم ولا دنانير ، ولا غنما ولا ابلا ، حتى انه لم يكتب أية وصية . بل ان النبى العظيم ، الذى كان على معرفة تامة بأن حدود دولته الاسلامية سوف تمتد عابرة افريقية وآسيا ، حتى تصل الى قلب أوروبا — قال : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث ، ما تركنا صدقة » .

* * *

ان هذه الوقائع التى أوردناها ، من الايثار ، والاخلاص ، وسمو الأخلاق ، ليست حوادث استثنائية فى حياة الرسول ، وانما هى حياته بأكملها ، بل هى بالحرى ، صورة مصغرة وموجزة عن الوقائع التى كانت تحدث فى حياته المثالية ، لقد ارتفع بالانسانية الى أسمى قمة تحلم بها ، حتى انه لو لم يوجد ، لاضطر المؤرخون الى القول : بأنه لم يوجد انسان من هذا الطراز ، ولن يوجد فى التاريخ .

* * *

فليس غريبا ، مطلقا ، أن يقال : انه كان نبى الله ، ولكن الغريب أن ينكره أحد منا عنادا وغرورا .

ونحن عندما نسلم بدعواه يمكننا أن نفسر سر حياته المعجزة .

أما اذا أنكرنا نبوته ، فسنفقد أى أساس لتفسير منبع أوصافه العجيبة ، التى لم نجد لها مثيلا فى التاريخ .. وقد اعترف البروفيسور « بوسورث سميث » بهذه الحقائق ، حتى انه ليدعو البشرية كلها الى الايمان برسالة النبى :

« لقد ادعى محمد لنفسه فى آخر حياته نفس ما ادعاه فى بداية رسالته ، وانى لأجدنى مدفوعا الى الاعتقاد بأن كلا من الفلسفة العليا والمسيحية الصادقة سوف تضطران ، يوما ما ، الى التسليم بأنه كان نبيا .. نبيا صادقا من عند الله(٢) .

* * *

أما الناحية الأخرى فى قضية اثبات الرسالة المحمدية ، فهى ذلك الكتاب الذى جاء به صاحب الرسالة ، مدعيا انه منزل من عند الله تعالى .

وهذا الكتاب يفيض بخصائص ومزايا تدل صراحة على أنه كلام غير انسانى ، وأنه من عند الله . ولما كان البحث فى هذه الناحية ذا طبيعة خطيرة — نظرا لأهميته — فقد قررنا أن ندرسه فى باب مستقل ..

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٤٠٠ وما بعدها .

(٢) Mohammad & Mohammadanism, p. 344.

الباب السابع

القـــرآن صوت الله

عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ((**ما من الأنبياء نبى الا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله الى ، فأرجو انى أكثرهم تابعا يوم القيامة**))(1) ..

ان هذا الحديث النبوى يعين جوانب بحثنا الصحيحة ، فهو يقول : ان أهم وسائلنا لمعرفة النبى هو الكتاب الذى جاء به ، مدعيا أنه من عند الله ، والقرآن هو ، رسالة الرسول بين ظهرانينا ، كما أنه يبرهن على صدقه .

فما الخصائص التى تبرهن على أن القرآن من عند الله ؟

انها متعددة الجوانب كثيرة ، نستطيع أن نلخصها فى الفصول التالية :

أولا — اعجاز القرآن :

أول خاصة يتنبه اليها الباحث فى العلوم القرآنية هى ذلك التحدى الصريح الذى وجهه القرآن الى الناس كافة ، منذ أربعة عشر قرنا ، وبخاصة أولئك الذين ينكرون رسالة القرآن ، ولم يستطع أحد من عباقرة البشر أن يرد التحدى الى الآن . لقد أعلن القرآن ، بصوت عال ، لا ابهام فيه ولا غموض :

((**وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين**))(2) .

انه أغرب تحد فى التاريخ ، وأكثره اثارة للدهشة ، فلم يجرؤ أحد من الكتاب فى التاريخ **الانسانى** — وهو بكامل عقله ووعيه — أن يقدم تحديا مماثلا ، فان مؤلفا ما لا يمكن أن يضع كتابا ، يستحيل على الآخرين أن يكتبوا مثله ، أو خيرا منه .. فمن الممكن اصدار مثيل من أى عمل انسانى فى أى مجال ، ولكن حين يدعى أن هناك كلاما ليس فى امكان البشر الاتيان بمثله ، ثم تخفق البشرية على مدى التاريخ فى مواجهة هذا التحدى ، حينئذ يثبت تلقائيا أنه كلام غير انسانى ، وأنها كلمات صدرت عن صميم المنبـــع الالهى Divineorigin ، وكل ما يخرج من المنبع الالهى لا يمكن مواجهة تحدياته .

* * *

---

(1) صحيح البخارى : الاعتصام .
(2) ســورة البقرة : 23 .

وفى صفحات التاريخ بعض الوقائع ، غر أصحابها الغرور ، فانطلقوا يواجهون هذا التحدى .

وأولى هذه الوقائع ما حدث من الشاعر العربى لبيد بن ربيعة ، الشهير ببلاغة منطقه ، وفصاحة لسانه ، ورصانة شعره . فعندما سمع أن محمدا يتحدى الناس بكلامه قال بعض الأبيات ردا على ما سمع ، وعلقها على باب الكعبة ، وكان التعليق على باب الكعبة امتيازا لم تدركه الا فئة قليلة من كبار شعراء العرب ، وحين رأى أحد المسلمين هذا أخذته العزة ، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم ، وعلقها الى جوار أبيات لبيد ، ومر لبيد بباب الكعبة فى اليوم التالى ، ولم يكن قد أسلم بعد ، فأذهلته الآيات القرآنية ، حتى انه صرخ من فوره قائلا : (والله ما هذا بقول بشر ، وأنا من المسلمين)(١) .

وكان من نتيجة تأثر هذا الشاعر العربى العملاق ببلاغة القرآن أنه هجر الشعر ، وقد قال له عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يوما : ياأبا عقيل: أنشدنى شيئا من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعرا بعد اذ علمنى الله سورة البقرة وآل عمران(٢) .

وأما الحادث الثانى فهو أغرب من الأول ، وهو عن ابن المقفع ، أورده المستشرق (ولاستن) فى كتابه ، وعلق عليه قائلا :

« ... ان اعتداد محمد بالاعجاز الأدبى للقرآن لم يكن على غير أساس ، بل يؤيده حادث وقع بعد قرن من قيام دعوة الاسلام »(٣) .

والحادث كما جاء عن لسان المستشرق ، هو أن جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن الكبير فى عامة الناس ، فقرروا مواجهة تحدى القرآن ، واتصلوا لاتمام خطتهم بعبد الله بن المقفع (٧٢٧ م) ، وكان

---

(١) هذا الخبر عن لبيد أورده المؤرخ ج. ساروار فى كتابه Mohammad The Holy Prophet ص ٤٨٨ — كراتشى ، وهو على هذا النحو غير مسلم ، لان لبيدا لم يسلم الا فى السنة التاسعة للهجرة ، حين وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ضمن وفد كلاب (أنظر : الطبقات الكبرى ٣٣/٦ ، وأيضا ٣٠٠/١ — ط بيروت ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٥/١ — تحقيق الشيخ أحمد شاكر) . وانما كان الذى حدث قريبا من هذا الذى ذكره المؤلف مع استبعاد رواية اسلامه ، فقد ذكر الحافظ أبو نعيم فى الحلية ١٠٣/١ أن عثمان بن مظعون رضى الله عنه كان فى أول الاسلام يعيش فى جوار الوليد بن المغيرة ، فلما رأى ما يحدث لاخوانه من أذى المشركين عز عليه أن يعذبوا دونه ، فرد جوار الوليد ، ثم مضى الى الكعبة فوجد لبيد بن ربيعة فى المجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد وهو ينشدهم :

(ألا كل شىء ما خلا الله باطل) ...

فقال عثمان : صدقت . فقال :

(وكل نعيم لا محالة زائل)

فقال عثمان : كذبت ، نعيم أهل الجنة لا يزول ، فقال لبيد : يا معشر قريش والله ماكان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث فيكم هذا ؟ الى آخر الخبر ، ومفهوم هذا أن لبيدا قد بقى على جاهليته حتى أسلم سنة تسع ، ويذكر ابنه قتيبة انه لم يقل فى اسلامه غير بيت واحد هو :

الحمد لله اذ لم يأتنى أجلى ∴ حتى كسانى من الاسلام سربالا

وقيل هو قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه .. والمرء يصلحه الجليس الصالح (المراجع)

(٢) أنظر فى هذا الخبر : الشعر والشعراء لابن قتيبة السابق .

(٣) Mohammad : His life Doctrine, p. 143.

اديبا كبيرا ، وكاتبا ذكيا . يعتد بكفاءته فقبل الدعوة للقيام بهذه المهمة .. وأخبرهم أن هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة ، واشترط عليهم أن يتكفلوا بكل ما يحتاج اليه خلال هذه المدة ..

ولما مضى على الاتفاق نصف عام ، عادوا اليه ، وبهم تطلع الى معرفة ما حققه اديبهم لمواجهة تحدى رسول الاسلام ، وحين دخلوا غرفة الأديب الفارسى الأصل ، وجدوه جالسا والقلم فى يده ، وهو مستغرق فى تفكير عميق ، وأوراق الكتابة متناثرة أمامه على الأرض ، بينما امتلأت غرفته بأوراق كثيرة ، كتبها ثم مزقها .

لقد حاول هذا الكاتب العبقرى أن يبذل كل مجهود ، عساه أن يبلغ هدفه ، وهو الرد على تحدى القرآن المجيد .. ولكنه أصيب بأخفاق شديد فى محاولته هذه ، حتى اعترف أمام أصحابه ، والخجل والضيق يملكان عليه نفسه ، أنه ، على الرغم من مضي ستة أشهر ، حاول خلالها أن يجيب على التحدى ، فانه لم يفلح فى أن يأتى بآية واحدة من طراز القرآن ! وعندئذ تخلى ابن المقفع عن مهمته ، مغلوبا مستخذيا ..(١) .

❋ ❋ ❋

وهكذا لا يزال تحدى القرآن الكريم قائما ومستمرا على مر القرون والأجيال ، وهى خاصة عظيمة ورائعة فى صالح القرآن ، تثبت ، دون مرية ، أنه كلام من هو فوق الطبيعة . وأى انسان يتمتع بكفاءة التفكير والامعان ، فى حقيقة الأمر ، يكفيه ذلك ليؤمن بهذا الكتاب .

ومما لاشك فيه أن العرب — وهم الذين لم يعرف لهم مثيل فى التاريخ ، فى البلاغة والبيان ، حتى أطلقوا على غيرهم اسم « العجم » لشدة اعتزازهم ببيانهم — قد اضطروا أن يركعوا أمام القرآن ، معترفين بعجزهم عن الاتيان بمثله ، فلزمتهم بذلك الحجة ..

ومما جاء فى كتب الحديث عن ابن عباس أن (ضمادا) قدم مكة . وكان من أزدشنوءة . وكان يرقى(٢) من هذه الريح (الجنون ومس الجن) . فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : ان محمدا مجنون . فقال : لو أنى رأيت هذا الرجل ، لعل الله يشفيه على يدى . قال : فلقيه ، فقال : يا محمد ! انى أرقى من هذه الريح ، وان الله يشفى على يدى من شاء ، فهل لك ؟ فقال رسول الله : « ان الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، واشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد . » قال : فقال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، قال : فقال : «لقد

---

(١) وردت فى التاريخ أمثلة أخرى حاول أصحابها مواجهة هذا التحدى ، غير انهم اخفقوا أخفاقا ذريعا ، ومن هؤلاء : مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وطليحة بن خويلد الأسدى ، والنضر بن الحارث ، وابو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندى ، وابو الطيب المتنبى ، وأبو العلاء المعرى ، صاحب كتاب « الفصول والغايات فى مجاراة السور والآيات»، أنظر للتفصيل كتاب الرافعى : اعجاز القرآن — **المترجم** .

(٢) من الرقية ، وهى العوذة التى يرقى بها صاحب الآفة .

سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناعوس البحر (قعره الأقصى)(١) .

ان هناك عددا لايحصى من الاعترافات التى أدلى بها أرباب الشعر والأدب والفكر ، فى شأن القرآن الكريم ، سطرت فى صفحات التاريخ القديم ، كما أنها توجد بكثرة فى تاريخ العصر الحاضر .

ثانيا — نبوءات القرآن :

الجانب الثانى من عظمة القرآن الكريم يتجلى فى تنبؤاته المختلفة ، التى ثبتت صحتها فيما بعد بطرق عجيبة .

ان عددا كبيرا من أذكياء الناس ، ومن العباقرة ، قد جرؤوا على أن يتنبأوا عن أنفسهم أو عن غيرهم . ولكننا نعرف أن الزمان لم يصدق هذه النبوءات مطلقا ، بل جاء يكذبها بكل قسوة ، ولقد تحفز الفرص المواتية ، والأحوال المساعدة ، والكفاءات العالية ، وكثرة الأعوان والأنصار ، والنجاح الخارق فى البداية الكثيرين — وهم يرون أنهم يسيرون تجاه نتائج مرضية — أن يتنبأوا بنتيجة معينة بكل يقين ، ولكن الزمن يبطل هذه الدعاوى ويكذبها دائما . . والزمن نفسه هو الذى أثبت صحة ما جاء فى القرآن من التنبؤات فى حين أنها جميعا جاءت فى أحوال غير مواتية ، ان هذه التنبؤات — وقد وقعت فعلا على ما يحدثنا التاريخ — تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها . وما دمنا ندرسها فى ضوء علومنا المادية . فلن نستطيع ادراك حقائقها ، الا أن ننسبها الى مصدر غير بشرى .

* * *

كان نابليون بونابرت من أعظم قواد الجيوش فى عصره ، وقد دلت فتوحاته الأولى على أنه سوف يكون ندا لقيصر ، والاسكندر المقدونى . وترتب على ذلك أن وجد الغرور منفذه الى رأس نابليون ، فأصبح يتوهم أنه هو مالك القدر . وازداد هذا الشعور لديه . حتى انه ترك مستشاريه ، وادعى أنه لم يكتب فى قدره غير الغلبة الكاملة على من فى الأرض . ولكنا جميعا نعرف النهاية التى كتبت له فى لوح القدر .

سار **نابليون** من باريس يوم ١٢ من يونية ، سنة ١٨١٥ ، مع جحفله العظيم ، ليقضى على أعدائه وهم فى الطريق . ولم تمض غير ستة أيام حتى ألحق « دوق ولنجتون » شر هزيمة بجيش نابليون الجبار ، فى « ووترلو » بأراضى بلجيكا . وكان (الدوق) يقود جنود انجلترا وألمانيا وهولندا . ولما يئس نابليون ، وأيقن من مصيره المحتوم ، فر هاربا من القيادة الفرنسية

---

(١)صحيح مسلم ٥٩٣/٢ — حديث رقم ٨٦٨ طبعة محمد فؤاد عبد الباقى . وبقية الحديث كما فى الصحيح : قال : فقال : هات يدك أبايعك على الاسلام ، قال : فبايعه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وعلى قومك » ، قال : وعلى قومى . قال : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فمروا بقومه ، فقال صاحب السرية للجيش : هل أصبتم من هؤلاء شيئا ؟ فقال رجل من القوم : أصبت منهم مطهرة ، فقال : ردوها فان هؤلاء قوم ضماد .

وتفسير (ناعوس البحر) بأنه : قعره الأقصى — منقول عن صحيح مسلم ، من اضافة شارحه ، وهى كلمة غير معروفة من كلام العرب ، قال ابن الأثير فى (النهاية فى غريب الحديث ٨١/٥) عن أبى موسى : « هكذا وقع فى صحيح مسلم ، وفى سائر الروايات : (قاموس البحر) أى : وسطه ولجته » أقول : ولعلها لهجة ضماد .

(المراجع)

متوجها الى أمريكا ولم يكد يصل الى الشاطىء حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه ، وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية ، وانتهى به القدر الى أن أرسل الى جزيرة غير معمورة بجنوب الأطلنطى ، هى جزيرة « سانت‌هيلينا » ، ومات القائد العسكرى فى هذه الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشقاء والوحدة ، فى ٥ مايو سنة ١٨٢١ .

والبيان الشيوعى المعروف ، الذى صدر سنة ١٨٤٨ ، تنبأ بأن أول البلاد التى ستقود الثورة الشيوعية هى (ألمانيا) ، ولكن ألمانيا ، على الرغم من مضى مائة وعشرين عاماً من هذه النبوءة ، لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة . .

ولقد كتب **كارل ماركس** فى مايو سنة ١٨٤٩ قائلا : « ان الجمهورية الحمراء تبزغ فى سماء باريس ! » ورغم أنه قد مر على هذه النبوءة أكثر من قرن ، فان شمس الجمهورية الحمراء البازغة لم تشرق على أهالى باريس !

وقد قال **أدولف هتلر** فى خطابه الشهير الذى ألقاه بميونيخ فى ١٤ من مارس سنة ١٩٣١ :

« اننى سائر فى طريقى ، واثقا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبا لى »(١) . والعالم بأجمعه يعرف اليوم أن الذى كتب فى قدر الجنرال الألمانى العظيم كان هو الهزيمة والانتحار . .

وقد شاهدنا وقائع عديدة من هذه النبوءات المضحكة فى « الهند » . . فقد أعلن زعيم الشيوعيين : س. ب. جوشى ، فى المؤتمر الثالث للحزب الشيوعى الهندى ، الذى انعقد فى (مدوراى) بجنوب الهند ، فى يناير سنة ١٩٥٤ ، بأن الحزب الشيوعى سوف يحكم ، مستقلا بنفسه ، فى الانتخابات العامة القادمة ، فى ولايات : ترانكو — كوتشين (كيرالا) ، ومدراس ، وآندهرا ، والبنغال الغربيـــة ، وآسام . وقد أجريت ثلاثة انتخابات عامة (وانتخابات تكميلية أخرى) فى هذه المدة الطويلة ، ولم يستطع الحزب الشيوعى تأليف وزارة مستقلة فى أية ولاية من ولايات الهنـــد(٢) .

وسط هذه الجحافل من المتنبئين والنبوءات ، لا نجد غير « القرآن » الذى تحققت نبوءاته حرفا حرفا . وهذا الواقع يكفى فى ذاته لاثبات أن هذا الكلام صادر من عقل وراء الطبيعة يمسك بزمام الأحوال والحوادث ، وهو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الأزل الى الأبد .

وسوف نورد هنا خبرين من التنبؤات الكثيرة التى أدلى بها رسول الاسلام، وتحققت بكاملها . والشهادتان اللتان سنذكرهما ، تتعلق احداهما بغلبة الاسلام نفسه ، على حين تتعلق بغلبة الروم مرة أخرى . .

(أ) عندما بدأ النبى صلى الله عليه وسلم دعوته وقفت الجزيرة العربية كلها ضده ، وكان على النبى مواجهة ثلاث جبهات فى وقت واحد :

---

(١) A study of History Abridgment p. 447.

(٢) تمكن الحزب الشيوعى من تأليف وزارة ائتلافية فى كيرالا فى الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧ ، كما تمكنت « الجبهة المتحدة » فى البنغال الغربية من تأليف وزارة ائتلافية فى الانتخابات التكميلية التى اجريت فى الولاية فى ١٩٦٩ ، وكان الشيوعيون يتمتعون بالأغلبية فى الجبهة المتحدة . (المترجم)

أولاها : القبائل المشركة ، بعد أن أصبحوا أعداء حياته .

وثانيتها : الرأسمالية اليهودية .

وثالثتها : أولئك المنافقون الذين تسربوا داخل المسلمين للقضاء على حركتهم ، من داخل معاقلهم .

وكان الرسول يجاهد فى سبيل رسالته السامية على كل هذه الجبهات : قوة المشركين ، والرأسمالية اليهودية ، والطابور الخامس . وقد وقف أمام هذا الطوفان الطاغى وقفات رائعة لا مثيل لها ، ولم يسانده فى مواقفه غير حفنة من المهاجرين والأنصار ، وجماعة أسلمت من العبيد . ومما لاشك فيه أنه قد انضم اليه بعض كبار قريش ، ولكن سرعان ما انقطعوا عن أهلهم وذويهم ، وعادتهم قريش كمعاداتها للنبى .

وقد سارت هذه الحركة بمكة قدماً ، تكافح وتناضل ، حتى أصبحت الأمور غاية فى السوء ، واضطر النبى وأصحابه أن يهاجروا الى جهات مختلفة ، حتى اجتمع شملهم فى المدينة المنورة ، وهم فى أشد حالات العوز والفقر ، بعد ما تركوا ثرواتهم فى مكة — موطنهم الأصلى . ويمكن قياس بؤس هؤلاء المهاجرين بتلك الجماعة التى عاشت فى المسجد النبوى ، حيث لم تكن لديهم بيوت ، وكانوا ينامون على « صفة » فى فناء المسجد النبوى ، فأطلق عليهم : « أهل الصفة » . ومما روى فى كتب التاريخ أن تعداد هؤلاء الصحابة الكرام ، الذين عاشوا على « الصفة » بلغ فى بعض الأحيان اربعمائة صحابى .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون فى ثوب ، فمنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من هو أسفل من ذلك ، فاذا ركع أحدهم قبض عليه ، مخافة أن تبدو عورته ..

وعنه (أبى هريرة) رضى الله عنه أنه قال : « لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها ، فيقول الناس : انه مجنون ، وما بى جنون ، ما بى الا الجوع ! » .

وفى هذه الحالة البائسة ، حيث كان المسلمون فى أسوأ أحوالهم ، مكشوفين فى عراء المدينة المنورة ، خائفين ، يترقبون الأعداء من كل جانب ، مخافة أن يتخطفوهم فى أى وقت ، فى هذه الحالة نجد القرآن يبشرهم مرة بعد أخرى :

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلى »(1) .

وقال أيضا :

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون »(2) .

ولم تمض على هذه البشرى أيام طويلة ، حتى وجد المسلمون الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم ، فقد انتصرت أقلية ضئيلة لا تملك الخيول ولا الأسلحة ، على أعداء يملكون الجيوش الكبيرة ، والعدة ، والعتاد .

---

(1) المجادلة /21 .

(2) الصف /8 و 9 .

وليس بوسعنا تفسير هذه التنبؤات فى ضوء المصطلحات المادية ، الا أن نسلم بأن صاحب هذا الاخبار بالغيب لم يأت به من عند نفسه ، وانما كان خليفة عن الله ، فلو أنه كان انسانا عاديا لاستحال كل الاستحالة أن تصنع كلماته أقدار التاريخ . وكما قال البروفيسور (ستوبارت) « انه لا يوجد مثال واحد فى التاريخ الانسانى بأكمله يقارب شخصية محمد . » .

وهو يضيف قائلا :

« ألا . . ما أقل ما امتلكه من الوسائل المادية ، وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة ، ولو اننا درسنا التاريخ من هذه الناحية ، فلن نجد فيه اسما منيرا هذا النور ، وواضحا هذا الوضوح ، غير اسم النبى العربى »(١) .

ان هذا الأمر هو أعظم دليل على كونه صلى الله عليه وسلم مرسلا من لدن الحق تبارك وتعالى . وقد اعترف السير وليام ميور ، ذلك العدو اللدود للاسلام ، بهذا الأمر بطريقة غير مباشرة ، حين قال :

« لقد دفن محمد مؤامرات أعدائه فى التراب ، وكان يثق بانتصاره ليل نهار ، مع حفنة من الانصار والأعوان ، رغم أنه كان مكشوفا عسكريا من كل ناحية ، وبعبارة أخرى : كان يعيش فى عرين الأسد ، ولكنه أظهر عزيمة جبارة ، لا نجد لها نظيرا غير ما ذكر فى الانجيل ، من أن نبيا قال لله تعالى : « لم يبق من قومى الا أنا(٢) ! » .

(ب) أما النبوءة الثانية التى وردت فى القرآن ، فهى الاخبار بغلبة الروم على الفرس وقد جاء فى أول سورة الروم قوله تعالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » .

كانت الامبراطورية الفارسية تقع شرقى الجزيرة العربية ، على الساحل الآخر للخليج العربى ، على حين كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من غربى الجزيرة على ساحل البحر الأحمر الى ما فوق البحر الأسود . وقد سميت الأولى — أيضا — بالامبراطورية الساسانية ، والأخرى بالبيزنطية . وكانت حدود الامبراطوريتين تصل الى الفرات ودجلة ، فى شمال الجزيرة العربية . وكانتا أقوى حكومتين شهدهما ذلك العصر .

ويبدأ تاريخ الامبراطورية الرومانية — كما يرى المؤرخ « جبن » — فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وكانت تتمتع حينئذ بمكانتها كأرقى دولة حضارية فى العالم .

وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم ، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى(٣) . وليس يغنى كتاب من الكتب التى ألفت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى ، ولكن يمكن اعتبار كتاب المؤرخ « ادوارد جبن » : « تاريخ

---

(١) Islam & Its Founder, p. 228.

(٢) Life of Mohammad, p. 228. — وربما يذكرنا هذا الاقتباس بقول القرآن حكاية على لسان موسى عليه السلام : « رب انى لا أملك الا نفسى وأخى » — المائدة / ٢٥ (المراجع)

(٣) Western Civilization, p. 210.

سقوط واندحار الامبراطورية الرومانية »(1) أكثرها تفصيلا وثقة ، وقد ذكر المؤرخ فى الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة ببحثنا هنا .

* * *

اعتنق الملك « قسطنطين » الدين المسيحى عام ٣٢٥ م ، وجعله ديانة البلاد الرسمية ، فآمنت بها اكثرية رعايا الروم . وعلى الجانب الآخر ، رفض الفرس — عباد الشمس — هذه الدعوة .

وكان الملك الذى تولى زمام الامبراطورية الرومانية فى أواخر القرن السابع الميلادى هو « موريس » ، وكان ملكا غافلا عن شئون البلاد والسياسة ، ولذلك قاد جيشه ثورة ضده ، بقيادة « فوكاس Phocas . واصبح فوكاس ملك الروم ، بعد نجاح الثورة ، والقضاء على العائلة الملكية بطريقة وحشية، وارسل سفيرا له الى امبراطور ايران « كسرى أبرويز الثانى » ، وهو ابن « أنو شيروان » العادل .

وكان « كسرى » هذا مخلصا للملك « موريس » ، اذ كان قد لجأ اليه عام ٥٩٠ — ٥٩١ م ، بسبب مؤامرة داخلية فى الامبراطورية الفارسية، وقد عاونه « موريس » بجنوده لاستعادة العرش . ومما يروى أيضا أن « كسرى » تزوج بنت « موريس » ، أثناء اقامته ببلاد الروم ، ولذلك كان يدعوه « بالأب » .

ولما عرف بأخبار انقلاب الروم ، غضب غضبا شديدا ، وأمر بسجن السفير الرومى ، وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة .

وأغار « كسرى أبرويز » على بلاد الروم ، وزحفت جحافله عابرة نهر الفرات الى الشام . ولم يتمكن « فوكاس » من مقاومة جيوش الفرس التى استولت على مدينتى « أنطاكية والقدس » ، فاتسعت حدود الامبراطورية الفارسية فجأة الى وادى النيل . وكانت بعض الفرق المسيحية — كالنسطورية واليعقوبية — حاقدة على النظام الجديد فى روما ، فناصرت الفاتحين الجدد ، وتبعها اليهود ، مما سهل غلبة الفرس .

* * *

وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية الى الحاكم الرومى فى المستعمرات الافريقية يناشدونه انقاذ الامبراطورية ، فأرسل الحاكم جيشا كبيرا بقيادة ابنه الشاب « هرقل » ، فسار بجيشه فى الطريق البحرية ، بسرية تامة .. حتى ان « فوكاس » لم يدر بمجيئهم الا عندما شاهد الأساطيل ، وهى تقترب من السواحل الرومانية ، واستطاع هرقل — دون مقاومة تذكر — أن يستولى على الامبراطورية ، **وقتل** « فوكاس » الخائن .

بيد أن هرقل لم يتمكن — برغم استيلائه على الامبراطورية ، وقتله « فوكاس » — من ايقاف طوفان الفرس .. فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد فى شرقى العاصمة وجنوبيها . لم يعد العلم الصليبى يرفرف على العراق والشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى ، بل علتها راية الفرس : « درفش كاويانى » !! وتقلصت الامبراطورية الرومانية فى عاصمتها ،

---

(1) The History of the Decline and Fall of the Roman. Empire, by Edward Gibbon.

وسدت جميع الطرق فى حصار اقتصادى قاس ، وعم القحط ، وفشت الأمراض الوبائية ، ولم يبق من الامبراطورية غير جذور شجرها العملاق . وكان الشعب فى العاصمة خائفا يترقب ضرب الفرس للعاصمة ، ودخولهم فيها ، وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق ، وكسدت التجارة ، وتحولت معاهد العلم والثقافة الى مقابر موحشة مهجورة .

وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم للقضاء على المسيحية .. فبدءوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة ، ودمروا الكنائس ، وأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ من المسيحيين المسالمين ، وأقاموا بيوت عبادة النار فى كل مكان ، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار ، واغتصبوا الصليب المقدس وأرسلوه الى « المدائن » .

ويقول المؤرخ « جبن » فى المجلد الخامس من كتابه :

« ولو كانت نوايا « كسرى » طيبة فى حقيقة الأمر ، لكان اصطلح مع الروم ، بعد قتلهم « فوكاس » ، ولاستقبل « هرقل » كخير صديق أخذ بثأر حليفه وصاحب نعمته « موريس » ، بأحسن طريقة ، ولكنه أبان عن نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب » (١) .

ويمكن قياس الهوة الكبرى التى حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه « كسرى » الى « هرقل » ، من بيت المقدس ، قائلا :

« من لدن الاله كسرى ، الذى هو أكبر الآلهة ، وملك الأرض كلها ، الى عبده اللئيم الغافل : هرقل : انك تقول : انك تثق فى الهك ! فلماذا لا ينقذ الهك القدس من يدى ؟ ! » .

واستبد اليأس والقنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة ، وقرر العودة الى قصره الواقع فى « قرطاجنة » على الساحل الافريقى .. فلم يعد يهمه أن يدافع عن الامبراطورية ، بل كان شغله الشاغل انقاذ نفسه . وأرسلت السفن الملكية الى البحر ، وخرج « هرقل » فى طريقه ليستقل احدى هذه السفن الى منفاه الاختيارى .

وفى هذه الساعة الحرجة تحايل كبير أساقفة الروم باسم الدين والمسيح ، ونجح فى اقناع « هرقل » بالبقاء ، وذهب « هرقل » مع الأسقف الى قربان « سانت صوفيا » يعاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت الا مع الشعب الذى اختاره الله له .

وباشارة من الجنرال الايرانى سين (Sain) أرسل « هرقل » سفيرا الى « كسرى » طالبا منه الصلح ، ولكن لم يكد القاصد الرومى يصل الى القصر ، حتى صاح « كسرى » فى غضب شديد : « لا أريد هذا القاصد ! وانما أريد « هرقل » مكبلا بالأغلال تحت عرشى ، ولن أصالح « الرومى » حتى يهجر الهه ، الصليبى ، ويعبد الشمس الهتنا : »(٢) .

وبعد مضى ستة أعوام على الحرب ، رضى الامبراطور الفارسى أن يصالح

---

(١) كتاب جبن/مجلد/ ٥ ص ٧٤ .
(٢) (ص — ٧٦ — ج ٥) .

هرقل على شروط معينة هى أن يدفع ملك الروم « ألف تالنت(١) من الذهب ، وألف تالنت من الفضة ، وألف ثوب(٢) من الحرير ، وألف جواد ، وألف فتاةعذراء » .

ويصف « جبن » هذه الشروط بأنها « مخزية » دون شك ، وكان من الممكن أن يقبلها « هرقل » ، لولا المدة القصيرة التى أتيحت له لدفعهـا من المملكة المنهوبة ، والمحدودة الأرجاء ، ولذلك آثر أن يستعمل هذه الثروة كمحاولة أخيرة ، ضد أعدائه .

* * *

وبينما سيطرت على العاصمتين الفارسية والرومية هذه الأحداث ، فقد سيطرت على شعب العاصمة المركزية فى شبه الجزيرة العربية — وهى « مكة » المكرمة — مشكلة مماثلة : كان الفرس مجوسا من عباد الشمس والنار ، وكان الروم من المؤمنين بالمسيح ، وبالوحى ، وبالرسالة ، وبالله تعالى . وكان المسلمون مع الروم — نفسيا — يرجون غلبهم على الـكفار والمشركين ، كما كان كفار مكة مع الفرس ، لكونهم من عباد المظاهر المادية . وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزا خارجيا للصراع الذى كان يدور بين أهل الاسلام وأهـل الشرك فى « مكة » . وبطريقة نفسـية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجى هى نفس مآل صراعهما الداخلى . فلما انتصر الفرس على الروم عام ٦١٦ م . واستولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم ، انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين ، قائلين : لقد غلب اخواننا على اخوانكم ، وكذلك سوف نقضى عليكم ، اذا لم تصطلحوا معنا تاركين دينكم الجديد !! وكان المسلمون بمكة فى أضعف وأسوأ أحوالهم المـادية ، وفى تلك الحالة البائسة ، صـدرت كلمات من لسان الرسول صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » — الروم : ١ — ٦ .

وتعليقا على هذه النبوءة يكتب « جبن » :

« فى ذلك الوقت ، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة ، لم تكن أية نبـوءة أبعد منها وقوعا ، لأن السنين الاثنتى عشرة الأولى من حكومة « هرقل » كانت تؤذن بانتهاء الامبراطورية الرومانية »(٣) .

ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن على كل الوسائل والأحوال ، ومن بيده قلوب الناس وأقدارهم ، ولم يكد جبريل يبشر النبى بهذه البشرى ، حتى أخذ انقلاب يظهر على شاشة الامبراطورية الرومانيـة ! !

ويرويه « جبن » على النحو التالى :

---

(١) Talent ، ميزان يونانى قديم ، حوالى ستة وعشرين كيلو جراما ، لدى الاثينيين، وقد يطلق على كمية النقود الذهبية أو الفضية التى تزنه — **المراجع** .

(٢) الثوب : ثلاثون مترا من القماش تقريبا — المراجع .

(٣) ص — ٧٤ ، المجلد ٥ .

خريطة الامبراطُوريتين : الفارسية والرومانية

« انها من أبرز البطولات التاريخية ، تلك التى نراها فى « هرقل » . فقد ظهر هذا الامبراطور غاية فى الكسل والتمتع بالملذات وعبادة الأوهام فى السنين الأولى والأخيرة من حكومته ، كان يبدو كما لو كان متفرجا أبله ، استسلم لمصائب شعبه ، ولكن الضباب الذى يسود السماء ساعتى الصباح والمساء ، يغيب حينا من الوقت لشدة شمس الظهيرة ، وهذا هو ما حدث بالنسبة الى هرقل ، فقد تحول « أرقاديوس (١) القصور » الى « قيصر ميدان الحرب (٢) » فجأة ، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنها ضد الفرس . وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة ، تبيانا لأسرار هذه اليقظة والنوم ، وبعد هذه القرون التى مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة ، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية ، فقد انقطع عن كافة الملذات ، حتى انه هجر ابنة أخته « مارتينا » — التى تزوجها لشدة هيامه بها ، رغم أنها كانت محرمة عليه » (٣) .

* * *

هرقل — ذلك الملك الغافل الفاقد العزيمة — وضع خطة عظيمة لقهر الفرس ، وبدأ فى تجهيز العدة والعتاد ، ولكن رغم ذلك كله ، عندما خرج هرقل مع جنوده ، بدا لكثيرين من سكان « القسطنطينية » انهم يرون آخر جيش فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية .

وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة ، ولذلك أعد بحريته للاغارة على الفرس من الخلف . وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود الى « أرمينيا » ، وشن على الفرس هجوما مفاجئا فى نفس الميدان الذى هزم فيه الاسكندر جيوش الفرس ، لما زحف على أراضى مصر والشام . ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الغارة المفاجئة ، فلاذوا بالفرار .

وكان الفرس يملكون جيشا كبيرا فى « آسيا الصغرى » ، ولكن « هرقل » فاجأهم بأساطيله مرة أخرى ، وأنزل بهم هزيمة فادحة ، وبعد احراز هذا النصر الكبير عاد « هرقل » الى عاصمته « القسطنطينية » عن طريق البحر ، وعقد معاهدة مع الأفاريين (Avars) ، واستطاع بنصرتهم أن يسد سيل الفرس عند عاصمتهم .

وبعد الحربين اللتين مر ذكرهما شن هرقل ثلاثة حروب أخرى ضد الفرس فى سنوات ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ م . واستطاع أن ينفذ الى أراضى العراق القديم (ميسو بوتانيا) عن طريق البحر الأسود ، واضطر الفرس الى الانسحاب من جميع الأراضى الرومية ، نتيجة هذه الحروب ، وأصبح « هرقل » فى مركز يسمح له بالتوغل فى قلب الامبراطورية الفارسية ، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية — تلك الحرب التى خاضها الفريقان فى « نينوا » على ضفاف « دجلة » فى ديسمبر عام ٦٢٧ م .

* * *

---

(١) أرقاديوس (٣٧٧ — ٤٠٨ م) ، أحد أباطرة الرومان ، وهو الابن الاكبر لتيودوس الاول ، تولى العرش سنة ٣٩٥ م . واشتهر بالجبن — **المراجع** .

(٢) قيصر أو « سيزار » (١٤٤ — ١٠١ ق.م.) قائد وسياسى رومى عظيم .

(٣) ص — ٧٦ — ٧٧ ، المجلد الخامس .

ولما لم يستطع « كسرى ابرويز » مقاومة سيل الروم ، حاول الفرار من قصره الحبيب « دستكرد » ، ولكن ثورة داخلية نشبت فى الامبراطورية ، واعتقله ابنه « شيرويه » ، وزج به فى سجن داخل القصر الملكى ، حيث لقى حتفه ، لسوء الأحوال فى اليوم الخامس من اعتقاله ، وقد قتل ابنه «شيرويه» ثمانى عشرة من ابناء أبيه (كسرى) أمام عينيه .

ولكن « شيرويه » هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر ، حيث قتله احد أشقائه ، وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكى ، وتولى تسعة ملوك زمام الحكم فى غضون أربعة أعوام . ولم يكن من الممكن ، أو المعقول فى هذه الأحوال السيئة ، أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم .. فأرسل « قباد الثانى » ابن كسرى أبرويز الثانى يرجو الصلح ، وأعلن تنازله عن الأراضى الرومية ، كما أعاد الصليب المقدس ، ورجع « هرقل » الى عاصمته « القسطنطينية » فى مارس عام ٦٢٨ م ، فى احتفال رائع ، حيث كان يجر مركبته أربعة أفيال ، واستقبله آلاف مؤلفة من الجماهير ، خارج العاصمة ، وفى أيديهم المشاعل واغصان الزيتون (١) !!

وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم فى مدته المقررة ، أى فى أقل من عشر سنين ، كما هو المراد فى لغة العرب من كلمة : « بضع » !

وقد أبدى « جبن » حيرته واعجابه بهذه النبوءة ، ولكنه كى يقلل من اهميتها ربطها برسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى « كسرى » .

يقول جبن :

« وعندما أتم الامبراطور الفارسى نصره على الروم وصلته رسالة من مواطن خامل الذكر ، من « مكة » دعاه الى الايمان بمحمد ، رسول الله ، ولكنه رفض هذه الدعوة ومزق الرسالة . وعندما بلغ هذا الخبر رسول العرب ، قال : سوف يمزق الله دولته تمزيقا ، وسوف يقضى على قوته .

« ومحمد ، الذى جلس فى الشرق على حاشية الامبراطوريتين العظيمتين، طار فرحا ، مما سمع عن تصارع الامبراطوريتين وقتالهما ، وجرؤ فى ابان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة أن يتنبأ بأن الغلبة تكون لراية الروم بعد بضع سنين . وفى ذلك الوقت ، حين ساق الرجل هذه النبوءة ، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعا ، لأن الأعوام الاثنى عشر الأولى من حكومة هرقل كانت تشى بنهاية الامبراطورية الرومانية »(٢) .

بيد أن جميع مؤرخى الاسلام يعرفون معرفة تامة أن هذه النبوءة لا علاقة لها بالرسالة التى وجهها النبى الى « كسرى أبرويز » ، لأن تلك الرسالة انما أرسلت فى العام السابع من الهجرة ، بعد صلح الحديبية ، أى عام ٦٢٨ م ، فى حين أن آية النبوءة المذكورة نزلت بمكة عام ٦١٦ م ، أى قبل الهجرة بوقت طويل ، فبين الحدثين فاصل يبلغ اثنى عشر عاما(٣) .

---

(١) جبن : ص — ٩٤ ، ج — ٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٣ — ٧٤ .
(٣) Encyclopaedia of Religion and Ethics :

ثالثا : القرآن والكشوف الحديثة :

والميزة الثالثة التى سوف أدرسها فى هذا الباب للابانة عن صدق القرآن وحقيته ، هى أنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة، لم يتمكن أحد من اثبات أية أخطاء علمية فيه ، ولو أنه كان كلاما بشريا لكان هذا ضربا من المستحيل .

* * *

كانت بعثة لطلبة الصين تدرس بجامعة كاليفورنيا منذ بضع سنين ، وقد ذهب اثنا عشر من هؤلاء الطلبة الى كاهن « كنيسة بركلى » طالبين منه أن ينظم لهم دراسة حول الدين المسيحى فى أيام الأحد ، وقالوا له بكل صراحة : اننا غير راغبين فى اعتناق المسيحية ، ولكننا نريد أن نعرف مدى تأثير هذا الدين على الحضارة الأمريكية ، واختار القسيس عالما فى الرياضة والفلك ، هو البروفيسور « بيتر و. ستونر » ، للتدريس لهؤلاء الشبان . وبعد أربعة أشهر من هذا الواقع اعتنقوا الدين المسيحى !!

أما الدوافع وراء هذا العمل المدهش ، فلنسمعها من الأستاذ نفسه :

« لقد كان السؤال الأول أمامى : ماذا أقول لهم عن الدين ؟ انهم لا يؤمنون بالانجيل اطلاقا،وتدريس الانجيل على الطريقة التقليدية لن يأتى بفائدة ما ، وفى ذلك الوقت تذكرت أنى أثناء دراستى كنت الاحظ علاقة كبيرة بين العلوم الحديثة وسفر التكوين فى الانجيل ، ولذلك رأيت أن أعرض هذا الكلام أمام هذه الجماعة من الشباب .

« وكنا — أنا والطلبة — نعرف بطبيعة الحال أن ما جاء فى هذا الكتاب عن بدء الكون قد كتب قبل آلاف السنين من كشوف العلوم الحديثة عن الأرض والسماء ، وكنا نشعر كذلك أن أفكار الناس فى زمن موسى ستبدو لغوا باطلا ، لو درسناها فى ضوء معلومات العصر الحاضر .

« وقد أمضينا فترة الشتاء كلها ندرس فى سفر التكوين ، وكان الطلبة يكتبون الأسئلة حول ما جاء فى هذا السفر ، ثم يبحثون عن أجوبتها بكل جهد فى مكتبة الجامعة . وعند انتهاء الشتاء أخبرنى القسيس أن الطلبة حضروا اليه ليخبروه أنهم يريدون اعتناق المسيحية ، وقد أقروا أنه ثبت لهم أن الانجيل كتاب موحى من عند الله » (١) .

* * *

وعلى سبيل المثال يقول سفر التكوين عن حالة الأرض فى بداية الأمر :

« لقد غشى على الأغوار ظلام »(٢) .

وهذا هو أحسن تصوير للحالة التى وجدت فى الأرض فى ذلك الوقت ، كما عرفناها من العلوم الحديثة ، فكان سطح الأرض حارا جدا ، وتبخرت المياه بسبب هذه الحرارة ، ولم يصل النور الى سطح الأرض ، لأن مياه بحارنا كانت معلقة فى صورة سحب كثيفة ، فى الفضاء ، وكان ظلام حالك يسود الأرض .

---

(١) The Evidence of God, pp. 137-38.

(٢) تقول الترجمة العربية للتوراة (المنقولة من اليونانية) : « وكانت الارض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة » . الاصحاح : ١ — (المراجع) .

اننا نؤمن بأن الانجيل والتوراة من الكتب الالهية ، مثل القرآن الكريم ، ولذلك توجد فيها قبسات من العلم الالهى ، ولكن النصوص الأصلية قد ضاعت ، وطرأ فارق كبير بين الانجيل الحقيقى وانجيل هذا العصر ، بعد مضى ألفى عام حافلة بعمليات الترجمة من لغة الى أخرى ، ثم بأعمال التحريف البشرى Human Interpolation الذى أصاب النسخة الالهية أكثر ما أصاب ، على حد تعبير العالم الأمريكى « كريسى موريسون »(١) .

ولما كانت هذه الصحائف قد فقدت قيمتها ، نتيجة لما حدث ، فقد أرسل الله تعالى ((**طبعة جديدة**)) من كتابه الى البشر ، وهذا الكتاب هو « القرآن الكريم » وهو يحمل ، من أجل صحته وكماله ، كل الميزات والخصائص التى لا توجد منها سوى لمحات فى الكتب القديمة .

وسوف أستعرض هنا هذه الخاصة دليلا ثالثا من أدلتى على صدق القرآن الكريم ، ولقد أنزل القرآن قبل عصر النهضة ، ولكن أحدا من الناس لم يستطع ابطال شىء مما جاء به ، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر ، لعد ذلك ضربا من ضروب الاحالة .

* * *

نزل القرآن فى عصر لم يكن الانسان يعرف عن الطبيعة الا القليل النادر ، وكانوا يرون أن الأمطار تنزل من السماء وأن الأرض مستوية ، كالفراش ، وأن السماء سقف الأرض ، وكانوا يرون أن النجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة فى قبة السماء ، أو أنها قناديل معلقة فى الفضاء!وكان أهل الهند الأقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرنى « البقرة الأم » ، وهى حين تقوم بنقل ارض من قرن الى آخر يحدث زلزال على البسيطة(٢) . وكان العلماء يرون أن الشمس ساكنة بلا حراك ، وأن الأرض تدور حولها ، الى أن جاء (كوبر نيك» (١٤٧٣ / ١٥٤٣ م) ، وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس .

* * *

وهكذا تقدم العلم رويدا رويدا ، الى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الانسان ، فكشف عن أسرار كثيرة . والآن لانجد جزءا مــا من معلوماتنا عن أجزاء الجسم ، وشعب العلم المختلفة ، الا وقد تغيرت نظرتنا اليه كلية ، وثبت بطلان عقائد العصر القديم .

ويدل هذا بكل صراحة على أنه لا وجود لكلام انسانى تدوم صحته كليا ... لأن الانسان يتكلم عما هو معروف من المعتقدات والعلوم فى عصره ، أنه سوف يسرد ما وجده فى زمنه ، سواء وقع كلامه فى دائرة الشعور أو اللاشعور . ولذلك لا نجد كتابا مضى عليه حين من الدهر الا وهو مملوء بالأغلاط والأخطاء من سائر نواحيه ، نظرا الى الكشوف الجديدة فى كل الميادين .

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية ! فهو حق وصـــادق فى كل ما قال ، كما كان فى القرون الغابرة . ولم يطرأ على مقاله

---

(١) Man Does not Stand Alone, p. 120. ، ومن الثابت أن الاناجيل لم تكتب فى حياة المسيح ، ولا حتى بعد وفاته بنصف قرن كما أن التوراة آخر ما كتب من عصر السبى البابلى (٥٨٦ — ٥٣٨ ق.م. (**المراجع**)

(٢) شاعت هذه العقيدة الخرافية كذلك فى أوساط العوام وأشباه المتعلمين فى شرقنا العربى ، وان كان تيار المعرفة العامة الآن يقضى على مثل هذه الخرافات — (**المراجع**)

أى تغير رغم مضى قرون وعصور طويلة . وهذا فى نفسه دليل على أن منبعه عقل جبار يحيط بالأزل وبالأبد علما ، وهو يعلم سائر الحقائق فى صورها النهائية والحقيقية ، ولا يخضـــع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمـــكان والأحوال . ولو كان هذا الكلام صادرا عن بشر محدودى النظر والعلم لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة ، كمـــا يحدث لكل كلام انســـانى فى مستقبله .

ان المحور الحقيقى لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية ، فهو بذلك لا يدخل فى دائرة أى من علومنا وفنوننا الحديثة . ولكن حيث أنه يخاطب « الانسان » فى حقيقة الأمر ، فهو يمس كل ما هو متعلق بالانســـان ، وهى مسألة دقيقة ، وموقف جد خطير .. لأن المرء حين يكون جاهلا ، أو ناقص المعلومات حول مشكلة ما ، ثم يتجرأ ليتكلم عن تلك المشكلة ـــ ولو اجمالا ـــ فلا بد أن يكبو فى حديثه ، وذلك حين يستخدم كلمات أو عبارات لا عـــلاقة لها بالواقع والحقائق !

وعلى سبيل المثال : قال أرسطو استدلالا على أسبقية الرجل على المرأة : ان فم المرأة يحوى أسنانا أقل عددا من أسنان الرجل !! ومن المعروف أن هذا الكلام لا علاقة له بعلم الأجسام ، بل هو يدل على أن صاحبه جاهل بهذا العلم ، فان عدد الأسنان سواء لدى الرجل والمرأة . ولكن من المدهش حقا أن القرآن ـــ حتى فيما يمس أكثر العلوم الحديثة من ناحية أو أخرى ـــ لا يحتوى كلمة ما أثبت العلم فيما بعد ، أنها من صنع رجل جاهل بذلك الموضوع ، وهذا يوضح صراحة أنه كلام موجود فوق الطبيعة ، وهو على معرفة تامة بكل شىء على حين لم يكن أحد يعلم شيئا ، وهو يعلم أيضـــا كل ما يجهله البشر فى هذا العصر ، مع تقدم العلوم ..

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة التى تدل صراحة على أن القرآن الكريم يحيط بالحقائق التى لم تعرف الا فى عصرنا هذا ، وان كانت احاطته هذه ضمن اشارات غير مقصودة لذاتها .

ويجب أن أقول ، تمهيدا لهذا البحث : ان مطابقة كلمات « القرآن » والفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة موضوع البحث ، فتوفرت لدينا مواد نافعـــة لتفســـير الاشـارات القرآنية فى ذلك الموضوع . ولو أن دراسة المستقبل فى موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كليا أو جزئيا فليس هذا بضائر مطلقا صدق القرآن ، بل معناه أن المفسر أخطأ فى محاولته لتفسير اشارة مجملة فى القرآن ، واننى لعلى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر ايضاحا لاشارات القرآن ، وأكثر بيانا لمعانيه الكامنة .

***

تقسيم لآيات القرآن :

ونستطيع أن نقسم الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب الى نوعين :

الأول : ما عرف عنه الانسان ـــ حتى ذلك العصر ـــ أمورا جانبيـــة وســـطحية .

والثانى : ما لم يعرف عنه ذلك الانسان شيئا ، مطلقا .

ان هناك أشياء كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية ، وكانت معرفتهم هذه ناقصة جدا بالنسبة الى المعرفة التى أتيحت للانسان اليوم ، بفضل الاختراعات الحديثة . وقد واجه القرآن فى هذا الصدد مشكلة كبرى . فهو لم يكن كتابا فى العلوم والهندسة ، ولذلك لو أنه كان بدأ يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس فيما بينهم حول ما جاء فى القرآن ، ولاستحال عندئذ بلوغ الهدف الحقيقى من نزول القرآن ، وهو اصلاح العقل الانسانى وتزكيته . فمن اعجاز القرآن أنه تكلم فى لغة العلم ، قبل كشفه ، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم يستوحشها أذواق الأقدمين ، ولا معارفهم ، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث !

النــوع الأول :

(أ) ذكر القرآن الكريم قانونا خاصا بالمـاء فى سورتين : هما الفرقان والرحمن . وجاء فى السورة الأولى :

« وهو الذى مرج البحرين . هذا عذاب فرات ، وهذا ملح أجاج . وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » (١) .

وأما الآية التى وردت فى السورة الأخرى فهى تقول :

« مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان »(٢) .

ان الظاهرة الطبيعية التى يذكرها القرآن فى هذه الآيات معروفة عند الانسان منذ أقدم العصور ، وهى أنه اذا ما التقى نهران فى ممر مائى واحد فماء أحدهما لا يدخل (أى لا يذوب) فى الآخر . وهناك ، على سبيل المثال ، نهران يسيران فى « تشاتغام » بباكستان الشرقيــة الى مدينــة « أركان » ، فى « بورما » ، ويمكن مشاهدة النهرين ، مستقلا أحدهمــا عن الآخر ، ويبدو أن خيطا يمر بينهما ، حدا فاصلا ، والمـاء عذب فى جانب ، وملح فى جانب آخر . وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل ، فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث « المد البحرى » ، ولكنهما لا يختلطان ، ويبقى المـاء عذبا تحت المـاء الأجاج . وهكذا شاهدت عند ملتقى نهـرى الكنج والجامونا ، فى مدينة « الله آباد » ، فهما رغم التقائهما لم تختلط مياههما ، ويبدو أن خيطا فاصلا يميز أحدهما من الآخر (٣) .

ان هذه الظاهرة ، كما قلت ، كانت معروفة لدى الانسان القديم .. ولكنا لم نكشف قانونها الا منذ بضع عشرات من السنين . فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانونا ضابطا للأشياء السائلة ، يسمى « قانون المط السطحى » Surface Tension ، وهو يفصل بين السائلين ، لأن « تجاذب » الجزئيات يختلف من سائل لآخر ، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله فى مجاله . وقد استفاد العلم الحديث كثيرا من هذا القانون ، الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه : « بينهما برزخ لا يبغيان » . وملاحظة هــذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء ، كما لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة ،

---

(١) الفرقان /٥٣ .

(٢) الرحمن/٢٠ — ٢١ .

(٣) وهو ما كان يشاهد عند التقاء النيل بالبحر الأبيض ، قبل بناء السد العالى — (المراجــع) .

ونستطيع ، بكل ثقة ، أن نقول : ان المراد من « البرزخ » انما هو « المط أو التمدد السطحى » ، الذى يوجد فى الماءين ، والذى يفصل احدهما عن الآخر .

ويمكن فهم هذا المط السطحى بمثال بسيط ، وهو : انك لو ملأت كوبا بالماء ، فانه لن يفيض الا اذا ارتفع عن سطح الكوب قدرا معينا .. والسبب فى ذلك أن « جزئيات » السوائل عندما لا تجد شيئا تتصل به فوق سطح الكوب ، تتحول الى ما هو تحتها ، وعندئذ توجد « غشاوة مرنة » Elastic Film على سطح الماء ، وهذه الغشاوة هى التى تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة ، وهى غشاوة قوية لدرجة أنك لو وضعت عليها ابرة من حديد فانها لن تغوص ! وهذه الظاهرة هى ما يسمى بالمط السطحى ، الذى يحول دون اختلاط الماء والزيت ، والذى يفصل بين الماء العذب والملح .

(ب) وجاءت فى القرآن بيانات مماثلة ، وعلى سبيل المثال :

« الله الذى رفع السموات ، بغير عمد ترونها »(١)

وهذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم ، فانه كان يشاهد عالما كبيرا قائما بذاته فى الفضاء ، مكونا من الشمس والقمر والنجوم ، ولكنه لم ير لها أية ساريات أو اعمدة ، والرجل الجديد يجد فى هذه الآية تفسيرا لمشاهدته ، التى تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عمد فى الفضاء اللانهائى ، بيد أن هنالك « عمدا غير مرئية » ، تتمثل فى قانون « الجاذبية » Gravitation Pull ، وهى التى تساعد كل هذه الأجرام على البقاء فى أمكنتها المحددة .

(جـ) وقد قال القرآن عن **الشمس والنجوم :**

« وكل فى فلك يسبحون »(٢)

وكان الانسان فى العصر الغابر يشاهد أن النجوم تتحرك وتبتعد عن أمكنتها بعد وقت معين . ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآنى موضع دهشتهم واستغرابهم ، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوبا جديدا ، فليس هنالك تعبير أروع ولا أدق من « السباحة » لدوران الأجرام السماوية فى الفضاء البسيط اللطيف !

* * *

(د) وقال القرآن الكريم عن **الليل والنهار :**

(يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثا)(٣)

ان هذه الآية الكريمة تشرح للانسان القديم سر مجىء الليل بعد النهار .. ولكنها تحوى اشارة رائعة الى دوران الأرض محوريا ، وهو الدوران الذى يعتبر سبب مجىء الليل والنهار ، طبقا لمعلوماتنا الحديثة .

---

(١) الرعد/٢ .
(٢) يس/٤٠ .
(٣) الاعراف / ٥٤ .

وسوف أذكر القراء ـــ هنا ـــ بأن من بين المشاهدات التى أدلى بها رجل الفضاء الروسى « جاجارين » ، بعد دورانه فى الفضاء حول الأرض : أنه شاهد « تعاقبا سريعا » Rapid Succession للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحورى حول الشمس .

وهناك بيانات كثيرة جدا من هذا القبيل فى القرآن الكريم ..

* * *

النوع الثانى من الآيات :

وأما النوع الثانى من الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع ، فلم يعرف عنها الرجل القديم شيئا ما على الاطلاق . وقد تناول القرآن تلك الموضوعات ، كاشفا الغطاء عن أسرار بالغة الأهمية ، ثبت صدقها بعد الدراسات الحديثة ، وسوف أعرض فى الصفحات التالية بعض الأمثلة من مختلف فروع العلوم الحديثة .

* * *

أولا : علم الفلك :

يطرح القرآن الكريم فكرة معينة ومحدودة المعالم حول بداية الكون المادى ونهايته ، وكانت هذه الفكرة غير معروفة لدى الانسان الجديد قبل قرن من الزمان .. أما الانسان القديم فلا مجال للقول بأنه كان من الممكن أن يتطرق عقله الصغير الى هذه الفكرة أو أجزائها ، وجاء العلم الجديد ليشهد على ما جاء فى القرآن الكريم .

يعبر القرآن عن **بداية الكون** على النحو التالى :

« أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما »(١) .

أما عن **نهاية الكون** ، فهو يقول :

« يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » (٢) .

فالكون ، بناء على تفسير هذه الآيات كان منضما ومتماسكا (الرتق : منضم الأجزاء) ، ثم بدأ يتمدد فى الفضاء ، ويمكن رغم هذا التمدد تجميعه مرة أخرى فى حيز صغير .

وهذه هى الفكرة العلمية الجديدة عن الكون ، فقد توصل العلماء ، خلال أبحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون ، الى أن « المادة » كانت جامدة وساكنة فى أول الأمر ، وكانت فى صورة غاز ساخن ، كثيف ، متماسك . وقد حدث انفجار شديد فى هذه المادة قبل ٥٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ سنة على الأقل ، فبدأت المادة تتمدد وتتباعد أطرافها . ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمرا حتميا ، لابد من استمراره ، طبقا لقوانين الطبيعة ، التى تقول : ان قوة « الجاذبية » فى هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجيا بسبب تباعدها (ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة) .

ويعتقد العلماء أن دائرة المادة كانت ١،٠٠٠ مليون سنة ضوئية ، فى أول الأمر . وقد أصبحت هذه الدائرة الآن ، كما يقول البروفيسور

---

(١) الأنبياء / ٣٠ .
(٢) السابقة / ١٠٤ .

« ايدنجتون » : عشرة أمثال بالنسبة الى الدائرة الحقيقية . وهذه العملية من التوسع والامتداد مستمرة دون ما توقف . وكما يقول البروفيسور « ايدنجتون » :

« ان مثال النجوم والمجرات : كنقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط ، وهو ينتفخ باستمرار ، وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها بحركاتها الذاتية ، فى عملية التوسع الكونى »(١) .

وأما الأمر الآخر ، فقد ثبت لنا صدقه ، كما ورد فى القرآن . فكان الانسان القديم يرى أن النجوم يبتعد بعضها عن بعض رأى العين ، ولكننا نراها متقاربة لبعدها الهائل عن الأرض وهى فى حقيقة الأمر متباعدة بمسافات قياسية .

ولم يقف الأمر بنا عند هذا الحد ، بل عرفنا أيضا أن تلك الأجسام والأجرام التى كنا نشاهدها فى قديم الزمن ، وكنا نحسبها كاملة وسالمة ، أكثرها يحتوى على فضاء خال . وقد عرفنا أن كل جسم مادى يدور حول نظام له ، مثل النظام الشمسى الذى تدور حوله نجوم وسيارات كثيرة . ومن أمثلته نظام « الذرة » . فنحن نشاهد الفضاء الخالى فى « النظام الشمسى »، ولكننا نعجز عن مشاهدة فضاء « النظام النووى » لصغر حجمه المتناهى .. حتى انه يستحيل مجرد مشاهدة هذا النظام(٢) . ومعنى ذلك أن كل شىء حتى لو بدا متماسكا — يحوى حيزا من الفضاء فى داخله . ومثاله : أننا لو جردنا الفضاء أو المكان (space) من الذرات المادية فى الجسم الانسانى ، ذات الستة الأمتار ، فلن نجد الا كمية قليلة جدا من المادة ، تكاد تكون متناهية الوجود .

وهكذا يرى علماء الطبيعة الفلكية (Astro-Physicists) أننا لو طوينا كل شىء فى الكون بدون أن نترك للفضاء مكانا ، فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفا من حجم الشمس !! ويمكن قياس سعة الكون من أن أبعد مجرة استطاع الانسان الكشف عنها تبعد بضعة ملايين من السنين الضوئية عن النظام الشمسى .

* * *

٣ — لقد توصل العلماء ، خلال أبحاثهم ، الى أنه لابد فى المستقبل القريب — وطبقا لقانون دوران الأجرام السماوية — أن يقترب القمر من الأرض ، حتى ينشق من شدة الجاذبية ، وتتناثر أجزاؤه فى الفضاء(٣) . وسوف تحدث عملية انشقاق القمر هذه بناء على نفس القانون الذى يحكم المد والجزر فى البحار . فالقمر هو أقرب جيراننا فى الفضاء ، ولا يبعد عن الأرض غير ٢٤٠٫٠٠٠ ميلا ، وهذا القرب يؤثر على البحار مرتين يوميا ، حيث ترتفع فيها أحيانا أمواج يبلغ طولها ستين مترا ، وأما تأثير هذه الجاذبية على سطح الأرض فيبلغ عدة بوصات !!

ان المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماما لصالح أهل الأرض . ولو نقص هذا الفاصل الى خمسين الفا من الأميال — على سبيل المثال —

(١) The Limitations of Science, p. 20.

(٢) أنظر التفصيلات عن « الذرة » فى الباب الرابع من هذا الكتاب .

(٣) Man Does not Stand Alone, p. 24.

فسوف يحدث طوفان شديد فى البحار ، وسوف تغطى أمواجها أكثر مناطق الأرض المأهولة ، وسوف يغرق كل شيء ، حتى لتتحطم الجبال من شـــدة تموج البحار ، وسوف تحدث شقوق مروعة على سطح الأرض من وطأة الجـــاذبية !!

ويرى علماء الفلك أيضا أن الأرض قد مرت بكل هذه الأدوار أثنـــاء عملية التكوين ، حتى وصلت الى بعدها الحالى من القمر ، بنـــاء على قانون الفلك ، وهذا القانون هو نفسه سوف يأتى بالقمر قريبا من الأرض مرة أخرى .. ويرون أن من المتوقع حدوث هذا قبل بليون سنة (١) . وعندئذ سوف ينشق القمر ، وسوف يتناثر حول فضاء الأرض فى صـــورة حلقـــة .

أليست هذه النظرية من أعظم موافقات العلم لتلك النبوءة الواردة فى القرآن الكريم ، حول انشقاق القمر ، حين تقترب القيامة (٢) ؟

اقرأوا قوله تعالى :

« اقتربت الساعة وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر (٣) » .

ثانيا ــ علم طبقات الأرض :

١ ــ جاء فى القرآن الكريم ، غير مرة ، أن الجبال ارسيت فى الأرض حفاظا على توازنها ، ومن ذلك قوله تعالى :

« وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم(٤) » .

ولقد ظل العلم جاهلا بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية ، ولكن دارسى الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيـــدا تحت اسم « « قانون التوازن » Isostasy. ولا يزال العلم الحديث فى مراحله البدائية بالنسبة الى أسرار هذا القانون ، ويقول الأستاذ انجلن :

---

(١) هذا مجرد تعبير عن الامكان العلمى ، وحدوده الزمنية . وليس ببعيد أن تقع هذه الظاهرة فى وقت أقل مما حدده الفلكيون ، وكلامهم لا ينفى هذا .

(٢) رويت معجزة « انشقاق القمر » فى الصحيحين وكتب الحديث الأخرى ، بروايات صحيحة الاسناد ، ومنها ما رواه عبد الله بن مسعود (رضى الله تعالى عنه) ، وهو من الشهود العيان لذلك الحادث الخارق ، وبرغم ذلك لا تزال مسألة « انشقاق القمر » موضع خلاف شديد بين المفسرين والعلماء .. فيرى الجمهور أنه حدث فعلا ، « .. وقال بعض المفسرين :سينشق » كما يرى صاحب التفسير « الكبير » ، ومن القائلين به الامام الحسن البصرى ، وقد نقل عنه أبو حيان الأندلسى القول التالى : « ان المعنى اذا جاءت الساعة انشق القمر بعد النفخة الثانية » . البحر المحيط ، ج ــ ٨ ، ص ــ ١٧٣ وهناك فئة ثالثة من العلماء تؤثر « التوفيق » بين الرأيين ، فهم يرون أن معجـــزة شق القمر ، التى جاء ذكرها فى الأحاديث وقعت أمام جمع من المسلمين والمشركين « بمنى » فى مكة ، المكرمة . ويرى الامام الغزالى والشاه ولى الله الدهلوى أنها وقعت «بتصرف البصر » . ومن الممكن أن تكون قد حدثت فعلا نتيجة انشقاق فلكى . وهكذا ستكون الواقعة الأولى آية أولية للأحداث التى سوف يجرى وقوعها قرب القيامة . وفيها يقول المفسر الهندى الكبير العلامة شبير أحمد العثمانى فى تفسيره للقرآن :

« لقد كانت معجزة شق القمر مثالا على أن كل شيء سينشق هكذا عند اقتراب القيامة »

(٣) القمر / ١ و ٢ .

(٤) لقمان / ١٠ .

« من المفهوم الآن أن المـادة ــ الأقل وزنا ــ ارتفعت على سطح الأرض ، على حين أصبحت أمكنة المـادة الثقيلة خنادق هاوية ، وهى التى نراها الآن فى شكل البحار . وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض (١) » .

ويرى عالم آخر من باحثى الجغرافيا :

« وفى البحار ، أيضا ، توجد وديان مثل وديان البر . ولكن وديان البحر أكثر غورا وأبعد عمقا من تلك التى توجد فى البر ، كما أنها بعيـدة عن المجال التجريبى للانسان . ويبدو أنه قد حدثت مغارات عميقة فى البحار . (ويبلغ عمق بعض هذه الوديان ٣٥ ألف قدم عن سطح البحر ، وهـذا العمق أعلى من أعظم جبال العالم ارتفاعا . ويبلغ من عمق هذه الوديان البحرية أحيانا أنه لو وضعت فيها قمة « ايفرست » ، من سلسلة جبال « الهملايا » ، والتى يبلغ طولها ٢٩٫٠٠٢ ، فسيكون سطح البحر فوقهـا بمسافة ميل كامل) !

« ومن الظواهر المحيرة أن هذه الخنادق البحرية توجد قرب السـواحل البرية بدل أن توجد فى أعالى البحار . ومن ذا يستطيع أن يعلم قدر ذلكم الضغط الهائل ، الذى أحدث هذه المغارات السحيقة فى قاع البحـار . ولكن قرب هذه الوديان من الجزر والبراكين يدل على أن هناك علاقة بين طول الجبال والخنادق البحرية .. وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق (فى أجزائها المختلفة) . ويرى بعض كبار علماء الجغرافيا أنه من الممكن أن تكون الأغوار البحرية علامات على جزر قد تظهر فى المستقبل . وسببه أن الرواسب والمخلفات لكل من البر والبحر تترسب فى هذه الوديان ، وقد سويت مناطق كبيرة من هذه الوديان بعد أن ملأتها هذه الرواسب . ولهذا من الممكن ــ بناء على عدم التوازن الذى يحـدث من هذه العملية ــ أن تبرز جبال جديدة فى أى وقت ، أو تظهر سلسلة جديدة من الجزر ، ومما يؤكد ذلك أنه قد وجدت آثار الرواسب البحرية فى بعض الجبال الساحلية .

وعلى كل حال ، لا توجد نظرية ــ فى ضوء المعلومات الحالية للانسان ــ لتقوم بتفسير الوديان البحرية ، وهذه المغارات الدائمة البرودة ، والتى توجد فى ظلام حالك ، وتحت ضغط قدره سبعة أطنان على كل بوصة ــ لا زال ذلك كله لغزا أمام الانسان ، كألغاز البحر الأخرى(٢) !! » .

٢ ــ وقد جاء فى القرآن الكريم أنه قد مضى على الأرض زمن طويل سواها الله خلاله ، قال تعالى :

« والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها »(٣) .

وهذه الآية الكريمة تطابق مطابقة عجيبة أحدث الكشوف العلمية ، وهو: « نظرية تباعد القارات » أو انتشارها (Theory of Drifting Continents) .

---

(١) C.R. Von Anglen, Geomovphology pp. 26-27, (N.Y., 1948)

(٢) The World We Live In, N.Y., 1955.

(٣) النازعات/٣٠ ــ ٣١ .

ومغزى هذه النظرية : أن جميع القارات كانت فى وقت من الأوقات أجزاء متصلة ، ثم انشقت وبدأت « تنقذف » ، أو تنتشر من تلقاء نفسها ، وهكذا وجدت قارات تحول دونها بحار واسعة .

وقد طرحت هذه النظرية فى العالم عام ١٩١٥ ، لأول مرة ، حين أعلن خبير طبقات الأرض الألمانى الأستاذ « الفريد واجنر » أنه لو قربت القارات جميعا ، فسوف تتماسك ببعضها ، كما يحدث فى العاب الألغاز التى تسمى Jigsaw Puzzle . ويمكن مشاهدتها فى الأشكال الثلاثة ، التى تبين هذه النظرية « أنظر ص ١٣١ » .

وهناك شبه كبير يوجد على سواحل البحار المختلفة ، كأن نجد جبالا متماثلة عمرها الأرضى (واحد) ، وكأن نجد فيها دواب وأسماكا ونباتات متماثلة أيضا ! وهذا هو ما دفع عالم النباتات البروفيسور رونالدجود (Rand Good) فى كتابه : جغرافية نباتات الزهور (Geography of Flowering Plants) الى أن يقول :

« لقد اتفق علماء النباتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متماثلة فى مختلف قارات العالم الا اذا سلمنا بأن أجزاء الأرض هذه كانت متصلا بعضها ببعض فى وقت من الأوقات » .

وقد أصبحت هذه النظرية علمية تماما بعد تصديق «الجاذبية الحجرية» لها (Magnetism Fossil) ، فان العلماء اليوم — بعد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة — يستطيعون تحديد موقع أى بلد وجدت به هضبة تلك الحجارة فى الزمن القديم . وقد أكدت هذه الدراسة فى « الجاذبية الأرضية » أن أجزاء الأرض لم تكن موجودة فى القديم بالأمكنة التى توجد بها اليوم ، وانما كانت فى ذلك المكان الذى تحدده « نظرية تباعد القارات» وفى هذا الأمر يقول البروفيسور بلاكيت(١) :

« ان دراسة أحجار الهند تبين أنها كانت توجد فى جنوب خط الاستواء قبل سبعين مليون سنة ، وهكذا تثبت دراسة جبال جنوب افريقيا أن القارة الافريقية انشقت عن القطب الجنوبى قبل ثلاثمائة مليون سنة(٢) »

لقد ورد فى الآية المذكورة آنفا لفظة « الدحو » ، ومعناه تسوية الشىء ونشره ، كما يقال : « دحا المطر الحصى عن وجه الأرض » ، وهذا هو نفس مفهوم الكلمة الانجليزية : «Drift» التى استخدمت فى التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة .

لسنا نملك أمام هذا التوافق المدهش بين ما ورد فى الماضى البعيد ، وما اكتشف بالأمس القريب — الا أن نؤمن بأن هذا الكلام صادر عن موجود يحيط علمه بالماضى ، والحال ، والمستقبل ، على السواء .

ثالثا — علم الأغذية :

ان قائمة الأغذية التى يقررها لنا القرآن الكريم تحرم (الدم) ، وكان الانسان غافلا عن أهمية هذا التحريم ، ولكن التحليلات التى أجريت للدم

---

(١) P.M.S. Blacket ، أستاذ (الطبيعة فى الكلية الملكية بلندن — المعرب

(٢) أنظر للتفصيل : ريدرز دايجست ، عدد يونيه (حزيران) من عام ١٩٦١ .



الشكل الأول : يبيّن حالة الأرض في بداية أمرها ، قبل ثلاثمائة مليون سنة



الشكل الثاني : يبين حالة الأرض أثناء عملية انتشار وتباعد قاراتها .
وقد بدأت هذه العملية قبل خمسين مليون سنة



الشكل الثالث : يبين حالة الأرض بعد أن استقر أمرها ، قبل مليون سنة

قد أكدت أن هذا القانون كان مبنيا على أهمية خاصة بالنسبة الى الصحة فالتحليل يثبت أن (الدم) يحتوى كميـة كبـيـرة من « حمض البوليك » Uric Acid ، وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاء . وهذا هو السر فى الطريقة الخاصة التى أمر بها القرآن فى ذبح الحيوانات . والمراد من « الذبح » فى المصطلح الاسلامى هو الذبح بطريقة معينة حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان ، وهى أن نقطع الوريد الرئيسى . الذى يوجد فى العنق ، فقط . وأن نمتنع عن قطع الأوردة الأخرى ، حتى يمكن استمرار علاقة المخ بالقلب الى أن يموت الحيوان ، لكيلا يكون سبب الموت الصدمة العنيفة التى وجهت الى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية ، كالدماغ ، أو القلب ، أو الكبد ، والمقصود من هذا هو أن الدماء تتجمد فى العروق ، وتسرى الى أجزاء الجسم ، لو مات الحيوان فى الحال — على اثر صدمة عنيفة — وهكذا يتسمم اللحم كله ، نتيجة سريان «حمض البوليك » فى أنحائه .

ولقد حرم القرآن لحم (الخنزير) ، ولم يعرف الانسان فى الماضى شيئا عن أسرار هذا التحريم ، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب أمراضا كثيرة ، لأنه يحتوى أكبر كمية من « حمض البوليك » بين سائر الحيوانات على ظهر الأرض ، أما الحيوانات الأخرى ، غير الخنزير ، فهى تفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول . وجسم الانسان يفرز ٩٠٪ من هذه المادة بمساعدة (الكليتين) . ولكن الخنزير لا يتمكن من اخراج « حمض البوليك » الا بنسبة اثنين فى المائـة (٢٪) ، والكمية الباقية تصبح جزءا من لحمـه ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل ، والذين يأكلون لحمه ، هم الآخرون ، يشكون من آلام المفاصل ، والروماتيزم(١) ، وما الى ذلك من الأمراض المماثلة(٢) .

ان الباحث فى القرآن الكريم يجد أمثلة لا حصر لها من هذا القبيل الذى أشرنا الى بعضه فى الصفحات الماضية ، وهى دليل قطعى على أن القرآن صادر عن عقل غير انسانى . وتؤكد البحوث التى اضطلع بها العلماء فى العصر الحاضر بطريقة مدهشة صدق تكلم النبوءة ، التى وردت فى القرآن الكريم :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق(٣) » .

وسوف أختم هذا الباب بواقعة رواها العالم الهندى المغفور له الدكتور عناية الله المشرقى ، وهو يقول :

---

(١) ليكن مفهوما هنا أنه عند وصف تأثير أى غذاء ، لا يمكن الا بيان تأثيره الذاتى من المنافع والمضار ، وليس معناه أن تأثير ذلك الغذاء سوف يكون واحدا لدى كل انسان يأكله. والسبب فى ذلك أن الانسان لا يأكل بمفرده ، وانما يبتلعه مع مأكولات من أنواع عـديدة ، ولذلك قـد ينقص تأثير ذلك الغـذاء ، أو يزول فى بعـض الأحايين ، نتيجة ردود الفعـل والاغذية المضادة لتأثير ذلك الغذاء ، وعلى رغم ذلك كله فلا يمكننا وصف تأثير أى شىء الا بما عرف عنه بصفته الفردية .

(٢) لعل العلة الأخرى فى تحريم الخنزير أساسا أنه حيوان قذر ، يأكل النجاسات ، فالى جانب التحريم القطعى النصى له ، يمكن أن نلحظ فيه علة تحريم (الجـلالة) التى تأكـل النجاسة ، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكلها أو شرب ألبانها . انظر : بداية المجتهد لابن رشد — ٤٨١/٢ (**المراجع**) .

(٣) فصلت / ٥٣ .

« كان ذلك يوم أحد ، من أيام سنة ١٩٠٩ ، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتى لقضاء حاجة ما ، فاذا بى أرى الفلكى المشهور السير جيمس جينز — الأستاذ بجامعة كمبردج — ذاهبا الى الكنيسة ، والانجيل والشمسية تحت ابطه ، فدنوت منه ، وسلمت عليه ، فلم يرد على ، فسلمت عليه مرة أخرى ، فسألنى : « ماذا تريد منى ؟ » فقلت له : «امرين ، ياسيدى ! الأول هو : أن شمسيتك تحت ابطك رغم شدة المطر ! فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور . فقلت له : « وأما الأمر الآخر فهو : ما الذى يدفع رجلا ذائع الصيت فى العالم — مثلك — أن يتوجه الى الكنيسة ؟ » وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ، ثم قال : « عليك اليوم أن تأخذ شاى المساء عندى » . وعندما وصلت الى داره فى المساء ، خرجت « ليدى جيمس » فى تمام الساعة الرابعة ، بالضبط ، وأخبرتنى أن السير جيمس ينتظرنى . وعندما دخلت عليه فى غرفته ، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاى . وكان البروفيسور منهمكا فى أفكاره . وعندما شعر بوجودى ، سألنى : « ماذا كان سؤالك ؟ » ، ودون أن ينتظر ردى ، بدأ يلقى محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ، ونظامها المدهش ، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية ، وطرقها ، ومداراتها وجاذبيتها ، وطوفان أنوارها المذهلة ، حتى اننى شعرت بقلبى يهتز بهيبة الله وجلاله . وأما (السير جيمس) فوجدت شعر رأسه قائما ، والدموع تنهمر من عينيه ، ويداه ترتعدان من خشية الله ، وتوقف فجأة . ثم بدأ يقول « يا عناية الله ! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الالهى ، وعندما أركع أمام الله وأقول له : « انك لعظيم ! » أجد أن كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذا الدعاء ، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين . وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة ، أفهمت ، يا عناية الله خان ، لماذا أذهب الى الكنيسة ؟ » .

ويضيف العلامة عناية الله قائلا : لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانا فى عقلى ، وقلت له : « يا سيدى لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التى رويتموها لى ، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آى كتابى المقدس ، فلو سمحتم لى ، لقرأتها عليكم » فهز رأسه قائلا : « بكل سرور » ، فقرأت عليه الآية التالية :

« ومن الجبال جدد بيض وحمر ، مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . انما يخشى الله من عباده العلماء » (١) ..

فصرخ السير جيمس قائلا :

ماذا قلت ؟ — انما يخشى الله من عباده العلماء ؟ ! مدهش ! وغريب ، وعجيب جدا !! ان الأمر الذى كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة ، من أنبأ محمدا به ؟ هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك ، فاكتب شهادة منى أن القرآن كتاب موحى من عند الله .

---

(١) فاطر ٥٣ .

ويستطرد السير جيمس جينز قائلا :

لقد كان محمد أميا ، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ، ولكن « الله » هو الذى أخبره بهذا السر .. مدهش .. ! وغريب ، وعجيب جدا[1] !! » .

---

(1) مجلة « نقوش » الباكستانية ، العدد الخاص بالشخصيات العالمية ، شخصية (المرحوم — العلامة عناية الله المشرقى ص — ١٢٠٨ — ٩) .

— والعلامة « المشرقى » هذا من أعظم علماء الهند فى الطبيعة والرياضيات ويتمتع بشهرة كبيرة فى الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة ، وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية ، غير أنه ترك الميدان العلمى ، فخاض غمار السياسة نظرا لسوء حالة المسلمين فى الهند (كان ذلك قبل الاستقلال) فأسس « حزب الخدام الالهيين » Khaaksar Party وكان رجاله (المتطرفون) يؤمنون بوجوب اقامة الفرائض الدينية بالقوة ، واتخذوا من « المعول » شعارا لحركتهم . ومن أهم مؤلفات العلامة : « التكملة » (لرسالة الاسلام)!، وقد طلبت منه « لجنة جائزة نوبل » أن يترجم هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية لاعطائه جائزة العلم ، ولكن العلامة رفض الفكرة بشدة قائلا :

« لست فى حاجة الى جائزة لا تعترف لجنتها باللغة الأردية العظيمة ! » — **المعرب** .

الباب الثامن

الديـن ومشكلات الحضارة

التشريـــــع

السؤال الأساسى الذى يفرض نفسه عند البحث فى المشكلات الحضارية يكون دائما عن التشريع أو الدستور . فهـــذه المشكلات تنشأ عن علاقة الفرد بغيره ، والتشريع هو الذى يحدد هذه العلاقة على أساس من العدل والانصاف . ولكن من المذهل أن أقول : ان الانسان لم يفلح الى الآن فى الكشف عن دستور حياته ! صحيح أن جميع الدول فى العالم قائمة على أسس الدستور ، ولكن هذه الدساتير مخفقة تماما فى الوصول الى أهدافها، بل لا يوجد هناك ما يسوغ وجود هذه الدساتير سوى أنها تنفذ بالقوة والاجبار .

ومن الحقائق المعروفة لرجال القانون أن جميع الدساتير الرائجة فى هذا العصر تفقد أية أسس علمية أو نظرية تجيز بقاءها . ويرى الأستاذ « فولر » L.L. Fuller أن « القانون لم يكشف عن نفسه بعد ! » .. وفولر هذا هو الذى وضـــع كتابا أســـماه : « القانون يبحث عن نفسه «The Law in Quest of Itself».

* * *

وقد وضعت كتب لا حصر لها حول هذا الموضوع بالذات ، وبذلت عقول جبارة من علمائنا أوقاتها فى سبيل البحث عن مقومات القانون . وكما يرى محرر « موسوعة تشامبرز » « لقد أعطى القانون اهمية علم هام ، حتى رفع من شأنه الى أقصى الحدود » . ولكن كل هذه الجهود لم توفق فى الحصول على صورة متفق عليها من القانون . وقد تشعبت بهم السبل ، حتى قال خبير فى التشريع : « لو طلبت من عشرة خبراء أن يعرفوا القانون ، فعليك أن تستعد لسماع أحد عشر جوابا !! » .

وقد انقسم خبراء التشريع الى مدارس فكرية كثيرة ، ولكننا — رغم تعدد هذه المدارس — قد لا نجد لبعض كبار علماء القانون فيها مكانا ! يقول البروفيسور « باتون » G.W. Paton عن « جون آستين » : « انه لا يصلح لأى من الأقسام العريضة Broad Divisions للقانون(۱) » :

وأما السبب وراء هذا الاختلاف بين خبراء التشريع ، فهو عدم توصلهم الى أساس صحيح يمكن اقامة صرح التشريع عليه . انهم يجدون أن القيم

(۱) A Text Book of Jurisprudence, 1905, p. 5.

التى يحاولون جمعها فى هيكل الدستور يستحيل وضعها فى ميزان واحد . ومثل رجل القانون فى محاولته هذه كمثل الرجل الذى يزن مجموعة من الضفادع بمجموعة أخرى مماثلة ، فكلما وضع مجموعة فى كفة وجد أن ضفادع الكفة الثانية قد وثبت الى الماء مرة أخرى !!

ومن ثم باءت كل الجهود — التى استهدفت الحصول على الدستور المثالى — بالفشل الذريع .

ويعبر الأستاذ « و. فريدمان » عن هذه المشكلة قائلا :

« .. وانها لحقيقة : ان الحضارة الغربية لم تجد حلا لهذه المشكلة غير أن تنزلق من وقت لآخر ، من نهاية الى نهاية أخرى(١) ! » .

* * *

وقد لاحظ « جون آستين » أن الدستور — أى دستور — لا يصبح نافذ المفعول الا اذا كانت تسنده قوة من ورائه ، فعرف « القانون » فى كتابه ، الذى نشر لأول مرة عام ١٨٦١ ، على النحو التالى :

« القانون هو الحكم الذى أصدره « رجل رفيع المنزلة سياسيا لمن هو أدنى منه فى المرتبة السياسية (٢) » .

وقد أصبح التشريع بناء على هذا التعريف « مرسوما لصاحب السيادة(٣) » ! ولذلك شن المحدثون من العلماء حملة شديدة على هذه الفكرة ، وقالوا : انه لا يمكن منع انحرافات الحكام الا اذا كان « رضا الشعب العام » دعامة أساسية فى التشريع .. وأنكروا أى قانون أو دستور لا يحرز رضا الجماهير ، وترتب على ذلك أن ضوابط كثيرة ، يجمع على صحتها وافادتها جميع أهل العلم ومعلمى الأخلاق — لا يمكن تنفيذها ، لأن الشعب لا يوافق عليها . وعلى سبيل المثال لم يتمكن الأمريكيون من ادخال مشروع قرار يحرم الخمر ، لأن الشعب لم يرض عنه .. كما اضطر البريطانيون الى ادخال تعديلات هامة فى قانون عقوبة القتل ، واضطروا الى اباحة أنواع محرمة من العلاقات الجنسية ، على الرغم من ضجيج المثقفين ، واحتجاج علماء القانون !

* * *

وهناك مسألة أخرى اختلف حولها علماء القانون : هل القانون قابل للتغير أولا ؟

لقد لقيت نظرية « القانون الطبيعى » رواجا كبيرا فى القرون الوسطى ، وفى العصور التى تلتها ، ومؤداها أن الطبيعة البشرية هى المصدر الحقيقى للتشريع :

« فالطبيعة تطالب أن يكون حق السيطرة والحكومة لمطالبها الطبيعية ودعائمها الرائدة . وقد أعطت الطبيعة هذه الدعائم للانسان فى صورة « العقل » ، ولذلك لا بد من اقامة حكومة بقوة العقل(٤) » .

---

(١) W. Friedman, Legal Theory, p. 18.

(٢) A Text Book of Jurisprudence, p. 56.

(٣) المرجع السابق — ص — ٤ .

(٤) Boden Liener, Jurisprudence, p. 164.

وقد أعطت هذه النظرية أساسا كونيا للمشرعين ، فقيل : انه لا بد من دستور موحد صالح لكل العصور . وهذه هى نظرية علماء القرنين السابع والثامن عشر حول القانون . ثم جاءت مدرسة أخرى ادعت استحالة معرفة الأسس الكونية للدستور . ويقول (كوهلير) فى هذا :

« ليس هناك دستور أبدى ، وأى تشريع يصلح لعصر ما ليس — بالضرورة — صالحا لعصر آخر . وليس لنا الا أن نجهد أنفسنا فى البحث عن دستور يلائم كل حضارة ، على حدة . فقد يكون دستور ما خيرا لطائفة من الناس ، ثم يسبب هلاك طائفة أخرى(١) » .

وقد قضت أفكار هذه المدرسة الأخيرة على تحكم القانون واستقراره ، فهى تدعو الانسان الى فكرة التغيير العمياء ، والنسبية Relativism ، وهى لن تنتهى الى حد ما ، حيث انها تفتقر الى الأساس . وقد قلبت هذه الفكرة جميع القيم الانسانية رأسا على عقب .

***

وهناك مدرسة أخرى تدعو الى احراز أكبر قدر من مقومات العدل فى التشريع . ويكتب « اللورد رايت » Lord Wright معلقا على فكرة «دين راسكو باوند » :

« ان راسكو باوند يدعو الى فكرة — اطمأننت الى صدقها بعد جميع تجاربى ودراستى فى القانون — وهى أن الهدف الأساسى والابتدائى للتشريع هو « البحث عن العدل(٢) » .

فاذا سلمنا بهذه النظرية واجهنا سؤالا هاما هو : « ما العدل ؟ » ، « وكيف يمكن تعيينه ؟ » وهكذا مرة أخرى ، نرجع الى « جون آستين » !

ومرة أخرى نقف أمام ظاهرة أن الانسان لن يستطيع الكشف عن أساس واقعى للتشريع ، ورغم الجهود الجبارة التى بذلت فى هذا الحقل منذ مئات السنين ، ويزداد يوما بعد يوم شعور بالمرارة وخيبة الأمل بين رجال التشريع ، لأن الفلسفة الحديثة قد فشلت فى بحثها عن أهداف الدستور .

ويتساءل البروفيسور جورج وهتكروس باتون قائلا :

« ما (المصالح) التى لابد للدستور المثالى أن يحافظ عليها ؟ انه سؤال يتعلق « بالقيم » ، ويدخل فى دائرة فلسفة التشريع . وما أكثر ما نرجو من الفلسفة أن تساعدنا ، ولكن ما أقل ما هى مستعدة لبذله فى هذه السبيل . فقد فشلنا فى الكشف عن « ميزان للقيم » يمكن قبوله لدى جميع الأطراف .

والحقيقة أنه ليس هناك من أساس لشىء من النظم الا للدين ، ولكن الحقائق الدينية تصلح كعقيدة ووجدان ، ولا يمكن قبولها على أساس الاستدلال المنطقى(٣) » .

---

(١) Philosophy of Law, p. 5.

(٢) Interpretation of Modern Legal Philosophies, N.Y. 1947, p. 794.

(٣) A Text Book of Jurisprudence, p. 104.

وقد نقل البروفيسور « باتون » رأيا لبعض علماء التشريع — يقول : ان جميع محاولات الدراسة الفلسفية للبحث عن « الأهداف » فى فلسفة التشريع قد انتهت الى غير ما نتيجة(١) . ويتساءل « باتون » : أهناك حقا « قيم مثالية » تحدد الأسس عنـــد تطوير التشريعات ؟ ولم يتمكن المشرعون من التوصل الى هذه القيم حتى الآن ، غير أنها لابد منها » . ويستطرد قائلا :

« لقد استخرج أصحاب نظرية (القانون الطبيعى) القديمة أسسهم من الحقائق الالهامية فى الدين . ولكن اذا ما أردنا نحن أن نأتى بتشريع علمانى، فأين سنجد أساس القيم المتفق عليها(٢) ؟ » .

وهذه التجربة المريرة تدعو الانسان للعودة الى الجهة التى انحرف عنها منذ قرون . فقد كان الدين يسهم اسهاما فعالا فى وضع دساتير الزمن القديم .. ويرى خبير القانون المعروف السير هنرى مين : أنه « لا يوجد مثال واحد فى القوانين ، التى تم تسجيلها كتابة ، من قانون الصين الى بيرو ، الا وكان ذا علاقة بالطقوس الدينية والعبادات منذ بداية أمره(٣) »

لقد آن الأوان أن نعترف بالحقيقة القائلة : بأن البشر لا يستطيعون وضع دستور لهم بدون هدى الله . وبدلا من المضى فى الجهود التى لا تأتى بنتائج مثمرة ، علينا أن نعترف بالواقع الذى يدعونا اليه « الدكتور فريدومان » ، حين يقول :

« يتضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفة أنه لابد من هداية الدين لتقييم المعيار الحقيقى للعدل . والأساس الذى يحمله الدين لاعطاء العدل صورة عملية ينفرد هو به فى حقيقته وبساطته »(٤) .

اننا نجد فى الدين جميع الأسس اللازمة التى يبحث عنها المشرعون لصياغة دستور مثالى ، ولكى يتضح صدق ما نقوله ، نأتى بالدراسة الوجيزة التالية فى أهم مشكلات التشريع الانسانى :

اولا — مصدر التشريع

وأول الأسئلة وأهمها بالنسبة لأى تشريع هو البحث عن مصدر هـــذا التشريع : من الذى يضعه ! ومن ذا يعتمده حتى يصبح نافذ المفعول ؟

لم يصل خبراء التشريع الى اجابة عن هذا السؤال حتى الآن . ولو اننا خولنا هذا الامتياز للحاكم ، لمجرد كونه حاكما ، فليس هناك أساس نظرى وعلمى يجيز تمتعه — هو أو شركاؤه فى الحكم — بذلك الامتياز ، ثم ان هذا التخويل من ناحية أخرى لا يجدى نفعا ، فان اطلاق أيدى الحكام ليصدروا اى شىء لتنفيذه بوسيلة القوة — أمر لا تطيقه ولا تحتمله الجماهير .

ولو أننا خولنا سلطة التشريع لرجال المجتمع ، فهم اكثر جهالة وحمقا ، لأن المجتمع — اى مجتمع — اذا نظرنا اليه ككل ، لا يتمتع بالعلم والعقل

---

(١) المصدر السابق : ص — ١٠٦ .
(٢) المصدر السابق — ١٠٩ .
(٣) Sir Henry Maine, Early Law & Custom, p. 5
(٤) Lagal Theory, p. 450.

والتجربة ، وهى أمور لابد منها عند التشريع . فهذا العمل يتطلب مهارة فائقة وعلما وخبرة ، وهو مالا تستطيع العامة من الجماهير الحصول عليه ، كما أنها ، وان أرادت ، لن تجد الوقت الكافى لدراسة المشكلات القانونية وفهمها .

وللخروج من هذه المشكلة توصل رجال القانون الى حل وسط ، وهو أن يقوم (البالغون) من أفراد المجتمع بانتخاب ممثلين لهم ، وهؤلاء بدورهم يصدرون التشريعات باسم الشعب .

ومن الممكن أن ندرك حماقة هذا الحل الوسط ، حين نجد أن حزبا سياسيا لا يتمتع الا بأغلبية ٥١ ٪ من مقاعد البرلمان يحكم على حزب الأقلية ، الذى يمثل ٤٩ ٪ من أفراد المجتمع البالغين . والأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل ان هذا الحل يحتوى على فراغ كبير جدا تنفذ منه « أقلية » لتحكم على أغلبية السكان . وعلى سبيل المثال ، فان الحكومة التي تحكم الهند الآن ، قد وصلت الى مقاليد الحكم عن طريق الانتخابات العامة الخمسية الثالثة ، التى أجريت فى البلاد عام ١٩٦٢ . وقد فاز حزب « المؤتمر القومى » بنسبة ٧٠ ٪ من مقاعد البرلمان ، فى حين أن نواب هذا الحزب لم يحصلوا الا على ٤٠ ٪ من أصوات الشعب ، فى الانتخابات . وهذا هو ما حدث فى الانتخابات الخمسية الأولى والثانية ، التى أجريت قبل سنة ١٩٦٢(١) ، وحصل حزب المؤتمر فى كلتيهما على أقل من ٥٠ ٪ من مجموع الأصوات ! ولكنه رغم ذلك كان له الحق فى تشكيل الحكومة ، لأن أصوات الناخبين الأخرى كانت موزعة بين نواب الأحزاب (المعارضة) . ولم تكن بطولة حزب المؤتمر الا فى أنه أحرز أصواتا أكثر من أى حزب آخر « على حدة » !

ولا أستثنى من هذه القاعدة الا الانتخابات المزعومة ، التى تجرى فى الدول الشيوعية فيفوز زعماؤها بأرقام خيالية للاصوات !

وهكذا نقف مرة أخرى أمام ظاهرة البحث عن أساس القانون ومصدره .

والدين يستجيب لهذا التحدى الخطير ، الذى قد يدمر سعادة البشرية كلها .. انه يقول : ان مصدر « التشريع » هو « الله » وحده ، خالق الأرض

---

(١) أجريت الانتخابات العامة الأولى والثانية فى عامى ١٩٥١ ــ ٥٢ ، وعام ١٩٥٧ ، كما أن الانتخابات العامة الرابعة أجريت فى عام ١٩٦٧ ، أى بعد صدور هذا الكتاب ، وفى هذه الانتخابات « فقد المؤتمر ، لأول مرة فى تاريخه ثمانى ولايات : غلبت فيها احزاب او مجموعة نيابية ائتلافية . وقد سبق فى انتخابات سنة ١٩٦٢ (و ١٩٥٧) أن ألف الشيوعون حكومة ائتلافية بالاستعانة ببعض الاحزاب السياسية فى ولاية (كيرالا) . أما فى انتخابات ١٩٦٧ فقد انهزم حزب المؤتمر هزيمة فادحة فى ولايات : كيرالا ، ومدراس ، وأوريسة ، وبيهار ، كما لم يتمكن من احراز أكثرية مطلقة (تمكنه من تأليف الوزارة) فى ولايات : البنغال الغربية ، وأوتار براديش ، وراجستان وبنجاب . »

ومعناه : أن حزب المؤتمر فقد الحكم على نصف الولايات (البالغ عددها ست عشرة ولاية) ، ورغم ذلك تمكن هذا الحزب من تشكيل الحكومة الاتحادية (المركزية) ، لأن نوابه « الذين احرزوا هذه المرة أقل من نصف مقاعد البرلمان ! » يمثلون الأغلبية بالنسبة الى عشرات من الاحزاب الاخرى المتنازعة فيما بينها على المصالح والمناقشات الفقهية العقيمة! ولو اتفقت هذه الاحزاب فيما بينها فكونت جبهة نيابية ائتلافية (كما فعلته بعض الاحزاب فى الولايات الاقليمية) لاحتلت مقاعد الحكم ولاضطر نواب حزب المؤتمر الى الجلوس فى مقاعد « المعارضة » !

ويتضح من هذا جليا : « كيف تنفذ أقلية فى الفراغ الدستورى الموجود فى تشريعاتنا فتحكم على الأغلبية ! » ــ **المعرب** .

والكون ؛ فالذى أحكم قوانين الطبيعة هو وحده الذى يليق أن يضع دستور حضارة الانسان ومعيشته . وليس هناك من أحد غيره سبحانه ، يمكن تخويله هذا الحق .

ان هذا الجواب معقول وبسيط لدرجة أنه يصرخ قائلا ، لو استطعنا أن نسمع نداءه : هل هناك أحد غير الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يسوى هذه المشكلة المصيرية ؟

لقد وصلت بنا هذه الاجابة الى مكانها الحقيقى من التشريع والمشرع ، بعد أن استحال علينا المضى خطوة ما فى ظلام الضلالة عن الهدى الحقيقى .

انه لا يمكن قبول انسان حاكما ومشرعا للانسان ، ولا يتمتع بهذا الحق الا خالق الانسان ، وحاكمه الطبيعى : الله .

ثانيا — العناصر الأساسية للتشريع :

ومن أهم الأسئلة لدى علماء القانون تحديد عناصر التشريع .. هل هى كلها اضافية ، أو أن هناك عنصرا أو عناصر أساسية لا يمكن الاستغناء عنها فى أى دستور عند تعديله ، أو تجديده ، أو تغييره ؟ ..

لم يستطع خبراء التشريع الوصول الى اتفاق فى هذا الصدد ، رغم البحوث الطويلة التى أجريت فى هذا الباب . وهم يسلمون ، نظريا ، بأنه لابد من عنصر فى التشريع يتمتع بالدوام والأبدية ، مع عناصر أخرى تتصف بالمرونة ، فيمكن الاستغناء عنها عند الضرورة .

ويرون أيضا أن افتقار الدستور الى أحد العنصرين : « الأبدى والاضافى » سوف يكون مصدر شقاء دائم للبشرية . وقد عبر عن هذه الحالة أحد قضاة الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو القاضى كاردوزو Cardozo على النحو التالى :

« ومن أهم ما يحتاج اليه التشريع اليوم : أن نصوغ له فلسفة للتوفيق بين الرغبات المتحاربة حول ثبات عنصر ، وتغير عنصر آخر(١) » .

ويقول خبير آخر فى شئون القانون ، وهو البروفيسور « راسكو باوند » :

« لا بد من عنصر التحكم فى التشريع ، ولكن هذا لا يعنى أن يصبح التشريع جامدا . ولذلك بذل الفلاسفة قصارى جهودهم للتوفيق بين مقومات التحكم والتغيير فى هذا المجال(٢) .

والحق أنه لا يمكن التوصل الى أساس يميز بين عناصر القانون الذى وضعه الانسان ، بعضها وبعض ، فكل عنصر يدعى أنه صالح للدوام يلزمه أن يقدم دليلا على ذلك ، وهو عاجز تماما عن الاتيان بذلك الدليل ، فقد نرى اليوم عنصرا من الدستور صالحا للدوام ، ثم يأتى رجال الغد يعلنون الاستغناء عن ذلك العنصر من دستورهم ، ما دام الدستور يصاغ بناء على رغبات الشعب ، فقد لا يعجبهم ذلك ، أو يرونه قد فقد صلاحيته بمضى الزمن .

---

(١) The Growth of Law.

(٢) Interpretations of Legal History, p. 1.

أما الحل الوحيد لمشكلتنا فهو ((**الشرع الالهى**)) الذى يمنحنا جميع العناصر الأساسية الضرورية ، فهذا الشرع يضع جوانب أساسية جذرية ، ثم يترك الباقى مفتوحا للاجتهادات المختلفة ، بحسب الزمان والمكان .

انه يحدد العناصر الأساسية وغير الأساسية بالنسبة الى دستور ما . ثم هو الى جانب ذلك يتصف ويتمتع بدليل الترجيح والتفضيل لصالحه ، حيث أنه من عند الله سبحانه وتعالى ومن ثم لابد لنا أن نعتده الكلام الأخير فى الموضوع ، الذى لا كلام بعده . وتلك ميزة هامة فى التشريع الالهى ، لا يستطيع الانسان ان يأتى ببديل عنها .

ثالثا ــ تحديد مفهوم الجريمة

ومما لابد أن يتوفر لأى دستور أن يكون لديه دليل معقول يستند اليه . لاعتبار عمل ما « جريمة » . ويقول الدستور الذى وضعه الانسان . ان الجريمة هى : « كل عمل يضر بالأمن العام ، أو نظام الحكم القائم » ، والتشريع الانسانى لا يجد أساسا غير هذا لاعتبار عمل ما جريمة . وقد دفع هذا الأساس القانون الجديد الى اقرار أن جريمة « الزنا » ليست بجريمة ، الا اذا تمت جبرا أو اكراها لأحد الطرفين . فالقانون الجديد لا يعتبر « الزنا » جريمة ، وانما الجريمة الحقيقية عنده هى الجبر والاكراه الذى سبق « الزنا » .

ان الاستيلاء على أموال أحد المواطنين حرام ، وكذلك اهدار عصمتهم والنيل من عفتهم . ولكن أموال انسان من الناس تصبح مباحة لرجل آخر ، اذا تم ذلك برضاء (الطرف الأول) ــ صاحب المال ! وكذلك يرى القانون أن عصمة أحد الطرفين تباح للثانى ما دام راضيا ، فعند رضا الجانبين يصبح القانون حاميا لهما ، ومدافعا عنهما ، ولو حاول « طرف ثالث » التدخل فى الأمر ، فهو الذى سوف يعدمجرما ، وليس الطرفان الأولان !

ان جريمة « الزنا » تفشى فسادا كبيرا فى المجتمع ، فهى تخلق مشكلات أطفال الحرام (غير الشرعيين) ، وتضعف روابط الزواج ، وهى كذلك تصدر عن عقلية تفضل اللذات السطحية فى الحياة ، وتربى عقلا خائنا ، وتخلق السرقة واللصوص ، وتروج الاغتيالات والانتحار والخطف ، ومن ثم تفسد المجتمع كله ، ولكن القانون ــ رغم ذلك ــ لا يستطيع تحريمها ، فهو لا يجد أساسا لتحريم « الزنا » الذى تم بالرضا المتبادل !

* * *

ولم يستطع القانون الجديد أن يحرم « الخمر » ، لأنه يؤمن بأن الأكل والشرب حق من الحقوق الطبيعية للانسان ، وهو حر فى اقتناء كل ما يريد أن يأكله ويشربه ، وليس للقانون أن يتدخل فى حقوقه الطبيعية ، ومن ثم لم يكن شرب الخمر والسكر الذى يتبعه جريمة فى الواقع ، الا اذا اعتدى شارب الخمر على أحد المواطنين فى هذه الحالة من السكر ، أو خرج الى الشارع وهو سكران ، فالجريمة ليست هى حالة السكر ، بل الاعتداء على الآخرين فى تلك الحالة !

والخمر تضر بالصحة ، وتبدد أموال الناس ، وتؤدى بمدمنيها الى كوارث اقتصادية محققة ، وتضعف الشعور الأخلاقى ، حتى ان الانسان يتحول الى حيوان رويدا رويدا . والخمر خير مساعد للمجرمين ، فهى تشل الاحساسات

اللطيفة ، حتى يستطيع الانسان اقتراف أية جريمة من السرقة والقتل ، وهدر العصمة . ولكن القانون الانسانى رغم هذه المعايب الشنيعة — لم يتمكن من تحريم الخمر ، لأنه لا يجد جوابا يسوغ تدخله فى حق من حقوق الانسان الطبيعية !!

ولن نجد حلا لهذه المشكلة الا فى قانون الله ، ان قانونه يبين رضا حاكم الكون ، فان كون أى قانون قانون الله يحمل معه أولوية تنفيذه ، ولا يحتاج بعد ذلك دليلا آخر . وهكذا يسد القانون الالهى فجوة عميقة ، نتمكن بعدها من احالة أى عمل الى دائرة القانون .

* * *

رابعا — القانون والأخلاق

لا يستطيع القانون أن يستقل بذاته فى أى وقت من الأوقات ، بل لابد له أن يقترن بالأخلاق . ولتوضيح هذه النقطة نقول :

١ — لو طرحت قضية أمام القانون — على سبيل المثال — وتعمد الفريقان وشهودهما الكذب فلم يتبين الصدق أمام القاضى ، فسوف يقضى على العدل ، ولن يتمكن القاضى من الحصول عليه مهما حاول . ولذلك كان لابد من قانون آخر « وراء القانون » ، يحرك الناس ، ويحملهم على الادلاء بالبيانات الصادقة للوصول الى العدل . وقد اعترفت جميع محاكم العالم بهذا المبدأ ، حتى انها تلزم كل شاهد (أن يقسم بالله أن يقول الحق) قبل الادلاء بشهادته .. وهو دليل واضح يؤكد أهمية العقائد الدينية لصون حرمة القانون . بيد أن المجتمع الجديد قد قضى على أهمية المعتقدات الدينية ، حتى أصبحت أيمان المحاكم أضحوكة ، وتقليدا لا يأتى بنفع ، أى نفع !

٢ — ومما لابد منه أن يكون أى « عمل » يعاقب عليه القانون (جريمة) فى نظر المجتمع أيضا ، وأى بند من قانون مكتوب لا يمكنه أن يخلق نفسية فى المجتمع ، ترى فى عمل ما جريمة ، كما يراه القانون اذ لا بد من أن يشعر مرتكب الجريمة بأنه « مذنب » ويعتبره المجتمع مذنبا . ويقبض عليه رجال الشرطة بكل اقتناع ، ثم يصدر قاضى المحكمة — وهو فى غاية الاطمئنان — حكما ضد ذلك الرجل . ولذلك كان لابد أن تكون كل جريمة « ذنبا » أيضا . وهذا هو ما يراه أصحاب المدرسة التاريخية من رجال القانون :

« ان أى تشريع لن يصيب هدفه الا اذا كان مطابقا للاعتقادات السائدة عند المجتمع الذى وضع له ذلك القانون ، ولو لم يطابق التشريع اعتقادات المجتمع، فلا بد من فشله(١) » .

هذا الرأى الذى عبرت عنه « المدرسة التاريخية » لرجال القانون غير صائب فى مغزاه الحقيقى الذى يرمى اليه اطلاقا ، ولكنه ذو صدق خارجى .

٣ — ان خوف الشرطة والمحكمة لا يكفى لدرء الجرائم ، وانما لابد أن يكون هناك وازع فى المجتمع يمنع الناس من ارتكاب الجرائم ، لأن الرشاوى ، والمحسوبيات ، وخدمات المحامين البارعين ، وشهود الزور — كل هذه

---

(١) A Text Book of Jurisprudence, p. 16.

العوامل تكفى لحماية المجرم من أية شرطة أو محكمة انسانية ، والمجرم لا يرهب عقابا ، أى عقاب ، لو استطاع أن يفلت من أيدى القانون .

ان الشرع الالهى يستوفى كل هذه الأمور ، فعقيدة « الآخرة » ، التى يحملها الشرع الالهى ، هى خير وازع عن ارتكاب الجرائم ، وهى تكفى لتبقى احساسا بالجريمة واللوم يعتمل فى قرارة ضمير الانسان ، لو أدلى بشهادة كاذبة أمام القاضى .

لقد أقيم فى فناء محكمة « ويسترن سركيت » **نصب** من حجر ، **يذكر** الناس بشاهد أدلى بشهادة زور فى فناء الدار ، ثم قال : « وان كنت كاذبا ، **فليمتنى** الله ، هنا ، فى الحال ! ولم تكد هذه العبارة تخرج من فم الشـــاهد حتى سقط على ساحة الأرض ، ومات فى الحال(١) » !

وهناك وقائع أخرى من هذا النوع حدثت لشدة احساس أصحابها باللوم والذنب .

* * *

ان قرارات البرلمانات لن تخلق فى الجماهير شعورا بشناعة فعل ما ، الا اذا كانت معتمدة من القانون الالهى ، وراسخة فى معتقدات المجتمع .

والوازع الذى يمنع من ارتكاب الجرائم ليس هو الدين فى حد ذاته ، فانه لا يقدم لنا تشريعا فحسب ، وانما يخبرنا أن صاحب هذا التشريع يشاهد كل أعمالنا من خير وشر .. فنياتنا وأقوالنا وحركاتنا بأكملها تسجل بواسطة اجهزة هذا المشرع ، ولسوف نقف بعد الممات أمامه ، ولن نستطيع أن نفرض ستارا على أدنى أعمالنا .

ولو أننا استطعنا الهروب من عقاب محكمة الدنيا ، فلن نتمكن بالتأكيد — من أن نفلت من عقاب صاحب التشريع السماوى .

ولو أننا حاولنا تفادى عقاب الدنيا . فسوف نذوق عذابا مضاعفا يوم القيامة ، يفوق عقاب الأرض ملايين المرات ، قسوة وعنفا .

* * *

خامسا — القانون والفرد

ورد فى التاريخ الانجليزى أن الملك « **جيمس الأول** » أصدر مرسوما يقول بأنه (الملك) يستطيع أن يحكم البلاد مطلق العنان ، كما أن من حقه اصدار أحكام دون أن تخضع للمرافعة أو الاستئناف فى المحاكم .

وكان رئيس القضاة حينئذ هو القاضى الشهير « **اللورد كوك** » Coke وكان شديد التمسك بالدين حتى اعتاد أن يقضى ربع يومه فى الكنيسة وذهب اللورد كوك ليقول للملك « ليس من حقك أن تحكم فى أى شىء ولا بد لجميع القضايا أن تذهب الى المحكمة للنظر فيها » .

فقال له الملك : « اننى أرى — وهو ما سمعته — أن القوانين قد وضعت على أساس العقل ، فهل أنا أقل من قضاتك عقلا ؟ » .

فأجابه رئيس القضاة : « انه مما لا شك فيه أنكم تتمتعون بعلم وكفاءة

(١) Sir Alfred Denning, The Changing Law, p. 103, (1953).

مثاليين ، ولكن القانون يتطلب تجربة طويلة ودراسة عميقة . وفوق ذلك هو الميزان الذهبى الذى يزن حقوق الرعية ، وهو الذى يصون شخصيتكم » .

فغضب الملك بشدة وقال : « هل أنا أيضا أخضع للقانون ؟ ان هذا المقال بمثابة تمرد وخيانة » !

وكان جواب « اللورد كوك » أن ذكر الملك برأى « براكتون » Bracton الذى قال :

« ان الملك لا يخضع لأحد من الناس ، ولكنه خاضع لله وللقانون(١) » .

وهنا ــ لو جردنا القانون من « الله » ، فلن نجد أساسا معقولا للقول بأن : « الملك خاضع للقانون » ــ لأن الذين صاغوا القانون ، وأصدروه بارادتهم ، يستطيعون ــ فى الوقت نفسه ــ تعديله وتغييره اذا ما أرادوا ذلك ، فكيف ــ اذن ــ سيخضعون لذلك القانون (٢) ؟ . .

ان الانسان اذا كان هو المشرع ، فهل يحل محل القانون والاله معا ، وحينئذ يستحيل احتواؤه داخل دائرة القانون ، بأى صورة من الصور .

وقد أدى هذا العيب فى القوانين الحديثة الى أنه ــ على الرغم من أن كل الجمهوريات تقر مبدأ المساواة المدنية ــ فان هذه المساواة لا تنفذ فعلا فى أية دولة ، فلو أنك كنت تريد أن تحاكم رئيس جمهورية الهند ، أو أحد حكام الولايات ، فلن تستطيع ذلك ، كما تستطيع أن تحاكم المدنيين العاديين ، اذ كان لابد لك من الحصول على موافقة الدولة . قبل الذهاب الى المحكمة ، فقد أضفى الدستور الهندى (فى المادة ٣٦١) على رئيس الجمهورية ونائبه

---

(١) المرجع السابق : ص ١١٧ ــ ١٨ .

(٢) ومن أمثلته ما حدث فى الهند عقب الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧ ، بعد أن أفلحت مجموعات نيابية ائتلافية فى الحصول على مقاليد الحكم فى كثير من الولايات الاقليمية ، فحينئذ أجرت الحكومة المركزية (التى يحكمها حزب المؤتمر) تعديلات هامة فى كثير من المجالات ، لتقييد حركة الحكومات (المعارضة) ، ومنها ــ على سبيل الذكر ــ منع تقديم الهبات والمعونات المالية الى الأحزاب السياسية . وكانت هذه المعونات المقدمة الى الاحزاب السياسية معفاة من الضرائب ، فضلا عن أن أصحابها كانوا يتمتعون بتسهيلات عديدة عند دفع الضرائب . وكان حزب المؤتمر ، كحزب حاكم يحصل على هذه الهبات بأكثر من ثمانين فى المائة ، بينما كانت الاحزاب الاخرى لا تتمتع الا بنسب ضئيلة جدا من هذه المعونات ، ولكن بعد نجاح الاحزاب الاخرى فى الوصول الى مقاعد الحكم فى كثير من الولايات تحولت مصالح الرأسماليين الى الحكام الجدد فأغدقوا على أحزابهم المعونات ، مما آل بأضرار بالغة بالنسبة لحزب المؤتمر ، فمنعت الحكومة المركزية التسهيلات التى كانت تقدم الى أصحاب الهبات ، وبالتالى حرمت الأحزاب الاخرى من جنى فوائد كبرى ! لقد أصبح نفس الشىء الذى كان مباحا فى الماضى ــ محظورا فى الحال ، لأن مصالح واضعى الدستور (الذين يتمتعون بأغلبية ضئيلة تمكنهم من فرض آرائهم على الأقلية الكبيرة) لم يعد لها وجود ، بسبب تصاريف الزمن !

ومنها كذلك أن « الجمعية التشريعية » فى ولاية (أوريسه) الهندية أصدرت قانونا يحرم على المواطنين تغيير الديانة ، وهذا ــ كما هو واضح بكل جلاء ــ لمنع الهندوس ، وخصوصا المنبوذين ، من قبول الاسلام !! وهذا البند المستحدث يتعارض تعارضا كليا ، بل يصادم الدستور الهندى الذى يعطى للمواطنين الحرية الكاملة فى الشئون المماثلة .ولكن هذا التشريع الجديد جاء ليرضى الرجعيين الهنادك . وهؤلاء يشجعون ، علانية ، مثل هذه الحركات الشنيعة ، لمنع الأهالى من قبول الدعوة الاسلامية ، وهؤلاء الرجعيون هم المسئولون عن الاضطرابات الطائفية التى يذهب ضحيتها الكثيرون من المسلمين المسالمين ، ثم لا يقدم مثيرو الشغب والفساد الى المحاكمة ــ اطلاقا ــ لتمتعهم بعطف ووصاية الرجعيين (**المعرب**) .

وحكام الولايات هالة وامتيازا ، بحيث لا يمكن محاكمتهم الا بعد موافقة البرلمان المركزى . وكذلك لا بد من الحصول على موافقة الحكومة ، لمحاكمة الوزراء !

والأمر لا يقف بنا عند هذا الحد ، بل تنص المادة ١٩٧ ، من (لوائح العقوبات الهندية) على : « أن قاضيا ، أو وكيلا للنيابة العامة ، أو احد الموظفين الحكوميين (من الذين لا يجوز فصلهم من الخدمة الا بعد موافقة الحكومة المركزية) لو اتهم أحدهم بارتكاب جريمة ما ، فليس من شأن المحاكم النظر فى قضية أحدهم ، الا بعد الحصول على موافقة الحكومة المركزية أو المحلية . التى تتعلق بها وظيفة المتهم المطلوب محاكمته » !

وبكلمة أخرى : لو أردت أن تحاكم سياسيا كبيرا ، أو أحد أعضاء السلطة التنفيذية العليا — فعليك أن تسأل هؤلاء أنفسهم : « هل تبيحون لنا محاكمتكم ؟ » !

وليس هذا عيب الدستور الهندى بالمرة ، بل هو عيب القانون البشرى بعامة ، وهو عيب موجود ، حيث يوجد هذا النوع من الدساتير الوضعية .

ليس من الممكن أن يتحقق العدل الكامل الا فى ظل **القانون الالهى** ، حيث يكون كل انسان مساويا للاخرين أمام الدستور . وحيث يمكن مقاضاة أية سلطة سياسية وتنفيذية ، كما **يحاكم** ابن الشعب ، لأن الحاكم فى هذا القانون هو **((الله))** سبحانه وحده ، والمحكومون هم سائر أفراد المجتمع دون أدنى تمييز(١) . .

* * *

سادسا — القانون والعدل :

ان اهم واكبر اساس فى هيكل القانون هو « العدل » ، الذى يبحث عنه خبراء القانون من قرون طويلة ، وهو موجود فى القانون الالهى فى أتم الصور واكملها . والقول بأن : عدم اهتداء الانسان الى اساس العدل يرجع الى أن بحوثنا لازالت ناقصة ، وتتطلب المزيد من البحث — قول باطل . فهذا الكلام يثبت أنه ليس فى مستطاع الانسان أن يحصل على هذا الأساس أبدا .

لقد قطعنا شوطا كبيرا فى مضمار البحوث الطبيعية بنتائج باهرة فى كل مجال ، ولكنا ، رغم جهودنا المضاعفة فى البحث عن القوانين المدنية ، لم نحرز نجاحا ، ولو بنسبة واحد فى المائة من الدرجة المطلوبة . وهذه الخيبة تؤكد أن اخفاقنا لا يرجع الى نقص الجهود ، وانما سببه الحقيقى أن هذا الأمر خارج — على الاطلاق — عن نطاق بحث الانسان .

---

(١) لذلك أمثلة رائعة فى العصور الأولى لخلافتنا الاسلامية ، حين كان العاديون من أفراد الشعب يحتكمون الى القضاة ضد الخلفاء وعمال الأقاليم وكبار رجال الدولة . بل وهناك أمثلة فى العهود القريبة جدا ، ومنها ، على سبيل المثال وليس الحصر ، أن افراد الشعب العاديين احتكموا الى المحاكم — عدة مرات ضد الامبراطور المسلم المغولى « جهانكير » — ابن الامبراطور « أكبر » — الذى حكم الهند فى القرن السابع عشر — (**المعرب**) .

اقول : أليس هذا أثرا من آثار المبادىء المحمدية السامية ، وانعكاسا لقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدوية فى سمع الزمان : « أتشفعون فى حد من حدود الله ؟ والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ؟ ... — **(المراجع)**

لقد صور الانسان أول صورة فوتوغرافية فى عام ١٨٢٦ م . وقد بذل العالم الفرنسى ، الذى اخترع الجهاز ، ثمانى ساعات متواصلة لتصوير شرفة المنزل .. والآن تستطيع آلات تسجيل الأفلام أن تصور أكثر من ألفى صورة فى الثانية الواحدة ، ومعنى ذلك أننا نستطيع اليوم أن نصور أكثر من ستين مليون صورة ، فى نفس الوقت الذى استغرقته عملية التصوير الأولى ، أى أن سرعتنا قد زادت ستين مليون مرة ، فى ١٤٠ سنة فقط !

وعند بدء هذا القرن العشرين لم يكن يوجد فى شوارع الولايات المتحدة غير أربع سيارات ، على حين تمرق الآن على شوارعها الفسيحة عشرة ملايين سيارة .

ويمضى الاعجاز العلمى بالانسان الى أن يقسم الزمن الى $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠}$ جزء من أجزاء الثانية ! وتستطيع المراصد العلمية أن تكشف عن أدنى فارق فى حركة دوران الأرض — حتى ولو بلغ فى مدته $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠}$.

لقد اخترعنا آلات حساسة يمكنها الكشف عن فارق الوزن الذى يطرأ على كتابة (حرفين) بالحبر ، على ورقة من أوراق موسوعة من ثلاثين مجلدا !

هذه هى حال الانسان فى حقل البحث العلمى ، على حين لم يتمكن من احراز أى تقدم — ولو بمقدار (بوصة) — فى مجال القوانين المدنية .

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة من مختلف مجالات الحياة ، لنتبين مدى صدق القول : بأن الدستور الالهى هو وحده الأساس الحقيقى ، الذى يصلح لأن يكون مصدرا لقوانين الحياة الانسانية .

* * *

المرأة والمجتمع :

ان الاسلام لا ينظر الى المرأة والرجل نظرة واحدة ، فهو يحرم العلاقات الحرة بينهما . وقد أخذ العلماء عند بدء العصر العلمى يسخرون من هذه القوانين ، وأطلقوا عليها : « مخلفات العصر الجاهلى » .

وقالوا بشدة : ان الرجل والمرأة متساويان ، ويرثان النسل الانسانى بطريقة متساوية ، ولسوف تكون جريمة كبرى لو أقمنا العقبات فى طريق علاقاتهما الحرة .

وقد أنتجت هذه الفكرة مجتمعا جديدا فى الغرب . بيد أن التجارب الطويلة المريرة التى مرت بها الانسانية بعد هذه الاباحة الجنسية هى أقسى ما عاناه البشر ، فقد ثبت بعد هذه التجارب أن المرأة والرجل لا يتساويان فطريا ، ولا طبيعيا ، وأى مجتمع يقوم على أساس مساواتهما سوف يسبب خرابا ودمارا عظيمين للحضارة البشرية .

(أ) ان أول حقيقة فى هذا الأمر هى أن الرجل والمرأة يختلفان كل الاختلاف فى نوعية كفاءاتهما الطبيعية ، واعتبارهما متساويين انما هو مخالفة كبرى لقوانين الطبيعة فى حد ذاتها .

كتب الدكتور « ألكسيس كيريل » ، الحائز على جائزة نوبل للعلم — وهو يبين الفارق العضوى بين الرجل والمرأة — يقول :

ان الأمور التى تفرق بين الرجل والمرأة لا تتحدد فى الأشكال الخاصة بأعضائهما الجنسية والرحم والحمل ، وهى لا تتحدد أيضا فى اختلاف طرق تعليمهما ، بل ان هذه الفوارق هى ذات طبيعة أساسية ، من اختلاف نوع الأنسجة فى جسم كليهما ، كما أن (المرأة) تختلف عن (المرء) كليا ، فى المادة الكيماوية التى تفرز من مبيض الرحم داخل جسمها . والذين ينادون بمساواة الجنس اللطيف بالرجل يجهلون هذه الفوارق الأساسية ، فيدعون أنه لا بد أن يكون لهما نوع واحد من التعليم والمسئوليات والوظائف . ولكن المرأة فى الواقع تختلف عن الرجل كل الاختلاف ، فكل خلية من جسمها تحمل طابعا أنثويا ، وهكذا تكون أعضاؤها المختلفة بل وأكثر من ذلك هذه هى حال نظامها العصبى .

ان قوانين وظائف الأعضاء محدودة ومنضبطة كقوانين الفلك ، حيث لا يملك احداث أدنى تغيير فيهما بمجرد الأمنيات البشرية ، وعلينا أن نسلم بها ، كما هى ، دون أن نسعى الى ما هو غير طبيعى ، وعلى النساء أن يقمن بتنمية مواهبهن بناء على طبيعتهن الفطرية ، وأن يبتعدن عن تقليد الرجال » (١) .

ولقد صدقت التجارب العملية نتائج هذه الفوارق الطبيعية ، فقد فشلت المرأة فى أن تحرز أية مساواة مع الرجل فى أى ميدان .. حتى ان الرجل يتقدم المرأة فى الميادين التى كانت تعتبر حكرا على المرأة فى الماضى . ومن ذلك أن المرأة فشلت فى المساواة مع الرجل فى حقل السينما . وليس الرجل هو الذى يدير اليوم كل ما هو متعلق بالسينما ، ومع ذلك فهو يتقاضى أجرا أكثر من المرأة . فممثل كبير يتقاضى اليوم ستة ملايين روبية(٢) ، فى السنة ، على حين لا يزيد دخل أعظم ممثلة هندية على أربعة ملايين روبية !!

وليس هذا هو كل ما فى الأمر .. فاننا لو أنكرنا القوانين الطبيعية ، والضوابط الفلكية ، وبدأنا نعمل على عكسها فسوف نكسر رؤوسنا بأيدينا . وهكذا جلب النظام الذى صاغه الانسان — متجاهلا الحيثيات الفارقة بين الجنسين — صنوفا من الأمراض والجرائم الى داخل المجتمع . ان شباب هذا المجتمع الجديد يشكو أنواعا من الأمراض الجنسية والخلقية والنفسية ، فضلا عن العصمة التى أهدرها المجتمع ، نتيجة هذا الاختلاط المروع .

ومن الظواهر التى تتكرر مرارا أمام أطباء هذا المجتمع أن تدخل فتاة غرفة الطبيب ، وهى تشكو من الصداع وقلة النوم ، وتمضى بعد الوقت تتحدث عن الآلام .. ثم لا تلبث أن تتكلم عن شاب التقت به صدفة منذ مدة .. وحينئذ يشعر الطبيب أنها تتعثر وتتلعثم فى كلامها ، فيقول لها :

«Well, then he asked you to his flat, what did you say ?»

(١) Man the Unknown, p. 93.

(٢) عملة هندية كانت تساوى عشرة منها جنيها مصريا (عند صدور هذا الكتاب) ، وأما الآن فستة عشر (١٦) منها تساوى الجنيه المصرى الواحد ، بعد تخفيض العملة الهندية عام ١٩٦٦ ، وبالتالى قفزت دخول الممثلين الهنود الى أرقام خيالية ، فجاء فى احدى الاحصائيات الحديثة أن أكبر ممثل هندى (دليب كومار ، واسمه الحقيقى يوسف خان) يتقاضى ١٠,٦٠٠,٠٠٠ روبية للاشتراك فى فيلم واحد ، بينما أكبر ممثلة لا تتقاضى الا أقل من نصف هذا الأجر ! — **المعرب** .

حسنا ! ثم دعاك الى شقته ، فماذا قلت له ؟ »
وتقول الفتاة فى دهشة :
« كيف عرفت ذلك ، لقد كنت أريد أن اقول لك ذلك حالا ! » .

ومن الممكن قياس كل ما ستقول الفتاة للطبيب بعد هذا الحديث . وهذا هو الذى دفع علماء الغرب الى الشعور بخيبة الأمل ، فانتهوا الى أن الحفاظ على العفة والعصمة « كلام فارغ » فى ظل مجتمع العلاقات الحرة . وقد قال طبيب غربى :

« من الممكن أن يصل الرجل والمرأة الى نقطة ، يستحيل عندها التحكم فى الأعصاب ، والاحساس بالعواقب » .

وقد بدأت حملة شديدة ضد هذه الظواهر فى صورة المقالات والكتب . وبدأ بعض علماء الغرب يشعرون بالكارثة التى تهدد حضارتهم . ولكنهم ، رغم ذلك كله ، غير قادرين على فهم جذور الموقف .

ولقد نشرت الطبيبة المعروفة ((**ماريون هيليارد**)) مقالا عنيفا ضد الاختلاط الحر . فقالت : « اننى لا استطيع أن أسلم ، كطبيبة ، بأن العلاقات الطاهرة ممكنة بين رجل وامرأة ، يتفردان برضاهما وقتا طويلا » .

ولكن الدكتورة « هيليارد » تستطرد قائلة :

« ولست على هذه الدرجة من الغباء ، حتى أنصح الشبان والفتيات أن يمتنعوا عن التقبيل . ولكن أكثرية الأمهات لا تخبرن أولادهن أن القبلة لا تبرد العواطف ، وانما تلهبها »(۱) .

وتسلم الدكتورة « هيليارد » ، بهذا القول ، بالقانون الالهى الذى يحرم هذه‌الظواهر ، حتى لا يصل الانسان الى حافة الجرائم الجنسية القبيحة ، ولكن الطبيبة لا تعرف : كيف تحرم هذه الظاهرة التى تنتمى الى الأعمال الشيطانية لا محالة ؟ !

* * *

(ب) لقد أباح مشرع الاسلام « تعدد الزوجات » ، وأثيرت ضجة كبرى ضد هذا التشريع ، وأطلق عليه ـــ هو الآخر ـــ أنه « تذكار العصر الجاهلى » . ولكن جاءت التجارب العملية لتثبت أنه كان تشريعا مناسبا للطبيعة الانسانية ، لأن سد باب تعدد الزوجات انما هو فتح لعشرات الأبواب الفاجرة ، غير الشرعية .

وسوف أشير هنا الى النشرة الاحصائية التى نشرتها هيئة الأمم المتحدة فى عام ۱۹٥۹ . لقد أثبتت هذه النشرة بالأرقام والاحصائيات : أن العالم يواجه الآن مشكلة « الحرام أكثر من الحلال more out than in شأن المواليد ! وجاء فى هذه الاحصائية أن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت الى ستين فى المائة . واما فى بعض البلاد . وعلى سبيل المثال « بناما » فقد جاوزت هذه النسبة الخمسة والسبعين فى المائة ، اى أن ثلاثة عن طريق الحرام من كل أربعة مواليد ! وأرفع نسبة لهؤلاء الأطفال غير الشرعيين موجودة فى أمريكا اللاتينية .

---

(۱) مجلة « ريدرز دايجست » عدد ديسمبر عام ۱۹٥۷ .

وتثبت هذه النشرة أيضا أن نسبة الأطفال غير الشرعيين تصل الى « العدم » فى البلدان الاسلامية . وتقول النشرة : ان نسبة هؤلاء الأطفال أقل من واحد فى المائة فى جمهورية مصر العربية ، مع أنها أكثر البلاد الاسلامية تأثرا بالحضارة الغربية .

فما الأسباب التى تحمى الدول الاسلامية من هذه البلية ؟

يقول محررو هذه النشرة الاحصائية : ان البلدان الاسلامية محفوظة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام « تعدد الزوجات »(١) .

لقد استطاع هذا القانون الالهى الحكيم أن يحمى بلادنا الاسلامية من كارثة محققة فى هذا العصر .

فقد أكدت تجارب الانسانية أن القانون الالهى القديم هو الذى كان مبنيا على الحق ، والرحمة بالانسانية(٢) .

* * *

التمـــدن :

شرع الاسلام القصاص ممن **قتل** عمدا ، الا أن يرضى ورثة القتيل بالدية . ولقد تعرض هذا القانون لنقد شديد من جانب رجال القانون فى العصر الحاضر ، وأهم ما يستدلون به : أن معنى هذا التشريع أن تضيع نفس أخرى ، بعد أن ضاعت الأولى بالفعل ، ودفعهم هذا الى الغاء نظام (الاعدام شنقا) فى كثير من البلاد .

ان القانون الذى يقرره الاسلام له فائدتان هامتان :

أولاهما : أن تستأصل جذور هذه الجريمة ، لأن أحدا من الآخرين لن يندفع الى ارتكابها مرة أخرى نظرا للعاقبة الوخيمة التى لقيها أحد أفراد المجتمع(٣) .

وأما الثانية : فهى « الدية » وقد راعى المشرع النتائج مراعاة تامة ، فلو قتل الابن الوحيد لشيخ ، فعلى القاتل أن يدفع لوالد المقتول مبلغا من

---

(١) جريدة Hindustan Times ، عدد ١٢ سبتمبر سنة ١٩٦٠ .

(٢) لم يستطع محررو النشرة الاحصائية ان يشيدوا بالدين الاسلامى وروحه (وذلك راجع الى تعصبهم أو جهالتهم بالحقائق ، او الى الاثنين معا) ، فمن مزايا الاسلام أنه يحرم « الزنا » ، وتحريمه هذا هو الذى يحمى المسلمين ، سواء أكانوا من متعددى الزوجات أم من غيرهم ، وذلك لأن ظاهرة تعدد الزوجات آخذة فى الاختفاء من المجتمع الاسلامى ، بسبب الحملات السخيفة التى تعرضت لها من جانب علماء الغرب ، والمتفرنجين من أبناء الشرق المبهورين بالحضارة الغربية (والذين يطلق عليهم مؤلف هذا الكتاب كلمة « الانجليزالسود» المتحمسون للحضارة الغربية أكثر من أصحابها) . وترتبت على هذا الوضع مشكلاتخطيرة — من عائلية واجتماعية الى حضارية ، بسبب عدم اكتفاء الكثيرين من الأزواج بزوجة واحدة، وكثرة الفتيات والأرامل الطالبات للزواج ، وقلة الشبان ، وهذه مشكلات يعانى منها مسلمو الهند وباكستان بشدة أكثر من أخوانهم العرب — **المعرب** .

(٣) الدولة الوحيدة التى تطبق النظام الاسلامى فى هذا المجال هى المملكة العربية السعودية ، ومن المعروف لكل المهتمين بالشئون السعودية ان نسبة القتل بها أقل نسبة فى العالم كله ، فالمعدل السنوى لحوادث القتل بالمملكة السعودية لايزداد عن « بضع » حوادث ، وذلك راجع الى العقوبة التى يلقاها المجرمون ، وكذلك تنعدم حوادث السرقة بهذه المملكة ، للسبب نفسه — **المعرب** .

المال يرضيه ، فيعفو عن الجريمة لقاء المبلغ الذى تقاضاه . وقد جعل التشريع الاسلامى حقا للدولة أن تأمر برفع مبلغ الدية ، اخمادا لنار « الثأر » .

ان هذا التشريع حكيم لدرجة عظيمة ، وتجربته تؤكد أن غريزة القتل قد قضى عليها فى أى بلاد **طبقته** ، كما أكدت التجارب أيضا أن أى بلاد ألغت هذا التشريع قفزت فيها جرائم القتل الى **نسب** خيالية ، حتى ان نسبة الاغتيالات قد ارتفعت فى بعض هذه الدول الى اثنتى عشرة فى المائة .

وهناك أمثلة أخرى عديدة : بلاد ألغت عقوبة القصاص ، ولكنها عادت فأقرته مرة أخرى ، نظرا للعواقب . فقد أصدر البرلمان السيلانى قانونا سنة ١٩٥٦ يحرم القصاص فى حدود سيلان .. فارتفعت نسبة جرائم القتل ارتفاعا مخيفا بعد صدور القانون ، ولم يستيقظ السيلانيون من سباتهم الا يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٥٩ ، عندما تسلل رجل مسلح داخل منزل رئيس الوزراء السيد بندرانيكه ، وقتله بكل جرأة فى غرفته ، وكان أول ما فعله أعضاء البرلمان السيلانى بعد دفن جثمان رئيس الوزراء المأسوف عليه ، أن عقدوا جلسة طارئة استغرقت أربع ساعات ، وأعلنوا عند ختامها أن سيلان قررت الغاء القانون ، واصدار قانون جديد بتشريع القصاص .

المعيشة :

ان النظام الذى يقره الاسلام فى المعيشة يسلم بالملكية الفردية لوسائل الانتاج الزراعى ، وهيكل المعيشة فى الاسلام يقوم على أساس الملكية الفردية . وقد راج هذا النظام عصورا طويلة فى العالم(١) . ثم تعرض بعد الثورة الصناعية لنقد قاس ، حتى ان المثقفين رضوا بالغائه .

وقد راج فى أوربا ، فيما بين النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، شعور بأن الملكية الفردية أحد القوانين المجرمة التى تفشت فى عصر الجاهلية المظلم .. وأنهم قد استطاعوا الآن أن يكشفوا عن نظام « الملكية الجماعية » — التى هى أقوى أساس لتنظيم المعيشة .

ثم بدأت أول تجربة للنظرية الجديدة — الملكية الجماعية ، ونفذت على رقعة واسعة من الأرض ، وبدأت دعاية كبيرة فى شأنها ، وعقدت عليها آمال كبار ، ولكن التجربة الطويلة أثبتت أن هذا النظام ، رغم الجهود الضخمة التى بذلت فى سبيله ، لم يأت الا بانتاج أقل من الانتاج الذى يأتى به نظام الملكية الفردية .

هذا ، فضلا عن نقائصه الكثيرة التى تتلخص فى كونها غير طبيعية ، الى استخدام العنف لتنفيذها ، وأنها تمنع التقدم الانسانى ، وأنها أكثر من الأنظمة الرأسمالية تركيزا ، واستغلالا ، ودكتاتورية .

وسوف أضرب هنا مثالا لروسيا : لقد نفذت الحكومة الروسية نظام (الملكية الجماعية) فى جميع أنحاء البلاد ، والدولة تملك جميع الأراضى الزراعية ، فهى تقوم بزراعة أراضيها فى صورة « المزارع الجماعية » . وقد منح القانون الزراعى الذى أصدرته الدولة عام ١٩٣٥ الفلاح حقا

(١) نظام الملكية الفردية الذى راج فى العالم هو أثر من آثار الدين . ولذلك خالف « ماركس » وأتباعه الاديان بشدة ، حتى يتمكنوا من طرد فكرة الملكية الفردية من أذهان الافراد ،

بملكية الثلث أو نصف الفدان ، أو فدانين فى بعض الأحوال الاستثنائية ، وسمح له أن يربى بعض الأنواع من الحيوانات ، مثل الأبقار والأغنام والدجاج .

وتثبت الاحصائية الرسمية التى نشرت عام ١٩٦١ أن الأراضى الزراعية فى روسيا فى ذلك الوقت كانت ٢٠٤ مليون هيكتار ، منها أراض قدرها ستة ملايين هيكتار فى حوزة الملكية الفردية ، أى ثلاثة فى المائة من مجموع مساحة الأراضى الزراعية ، ولكن نسبة المحصول الزراعى للبطاطس عام ١٩٦١ كانت كما يلى :

	نسبة الأراضى المزروعة (بالفدان)	نسبة المحصول (بالطن)
المزارع الجماعية	٤,٣٥٢,٠٠٠	٣٠,٨٠٠,٠٠٠
الأراضى الفردية	٤,٥٢٦,٠٠٠	٥٣,٥٠٠,٠٠٠

وتؤكد هذه الاحصائية أن المحصول الزراعى كان أحد عشر طنا من البطاطس فى الأراضى الفردية ، مقابل سبعة أطنان فى الأراضى الحكومية . وهذه النسبة توجد كذلك فى المحاصيل الأخرى ، على حين أن الأراضى الفردية لا تتمتع بتسهيلات الآلات الزراعية ، والسماد ، والكفاءات التى تتمتع بها المزارع الجماعية الحكومية .

وأما الماشية فهى أسوأ حالا فى المؤسسات الحيوانية الحكومية ، فهى تموت بكثرة بسبب نقص الكلأ ، والاستهتار فى الرعاية ، وقد مات ١٧٠,٠٠٠ من الرءوس فى اقليم واحد ، فى مدة أحد عشر شهرا عام ١٩٦٢

وأما حيوانات الملكية الفردية فهى آخذة فى الازدياد والنمو يوما بعد يوم ، رغم العقبات العديدة ، وهى كذلك أكثر انتاجا من غيرها . فالمؤسسات الحكومية التى تملك سبعين فى المائة من الحيوانات والدجاج لم تقدم للسوق من اللحوم الا ما يزيد على عشرة فى المائة بالنسبة الى أصحاب الملكية الفردية ، الذين لا يملكون أكثر من ثلاثين فى المائة من الحيوانات والدجاج ، ويقدمون انتاجهم للحكومة ، وهو ما يتبقى لديهم بعد استهلاكهم الذاتى . وقد تخلفت المؤسسات الزراعية الحكومية كثيرا فى انتاج البيض . ويمكن استنتاج هذه الفوارق من احصائية رسمية لعام ١٩٦١ :

المحصول	النسبة الحكومية (بالطن)	النسبة الفردية (بالطن)
اللحم	٤,٨٠٠,٠٠٠	٣,٩٠٠,٠٠٠
اللبن	٣,٤٠٠,٠٠٠	٢٨,٥٠٠,٠٠٠
الصوف	٣٨٧,٠٠٠	٧٩,٠٠٠
البيض	٦,٣٠٠ (مليون بيضة)	٧٩,٠٠٠ (مليون بيضة)

انه لمن الطريف أن يقوم الأفراد بسد حاجات حكومة تملك ، بل تحتكر كل وسائل الانتاج ! ان الاحصائية تدلنـا على أن احدى الجمهوريات السوفيتية حصلت من الأفراد على ستة وعشرين فى المائة من البطاطس ، وأربعة وثلاثين فى المائة من البيض ، لسد احتياجاتها المحلية ، وهكذا اضطرت الى شراء أشياء أخرى مماثلة من الأفراد ، لاستهلاكها محليا(١) .

ومن العواقب الوخيمة لهذه الملكية الجماعية أن روسيا — التى كانت من بين الدول الكبرى المصدرة لانتاجها الزراعى فى عهد القيصرية — اضطرت الى شراء خمسة عشر مليونا من أطنان القمح ، من كل من : استراليا ، وكندا ، والولايات المتحدة الأمريكية . وهذه الحال مستمرة فى التدهور ، فقد اشترت روسيا ١٫٢٥٠٫٠٠٠ طنا من القمح من الولايات المتحدة ، فيما بين ١٩٤١ — ٥٦ .. وهذا هو الذى يجرى فى الصين الشيوعية(٢) .



وتؤكد هذه التجارب القاسية التى خاضتها البشرية أن **العقل الالهى** — الذى هو منبع القانون الحقيقى — هو أعرف بالطبيعة الانسانية ، وأكثر فهما لمسائلها ومشكلاتها .

ان فى الدين جوابا محددا لكل الأسئلة التى تؤرقنا فى كفاحنا الحضارى . انه يوجهنا الى المشرع الحقيقى الطبيعى ، وهو يضع لنا الأساس النظرى للقانون .. فهو يمنحنا أساسا صائبا لكل مسألة فى الحياة البشرية حتى يمكن لها الوصول الى أعلى درجات الازدهار والرقى ، وهو الصورة الوحيدة للمساواة الكاملة بين الحاكم والرعية . وهو يهيىء الأساس النفسى ، الذى يصبح القانون بدونه مشلولا بلا حراك ، وهو يخلق لنا ذلك المناخ المناسب الذى لابد منه لتطور أى مجتمع تطورا حيويا وفعالا .

وهكذا يعطينا الدين كل ما نحتاج اليه لبناء الحضارة ، فى حين لايتيح لنا الالحاد والكفر شيئا ما ، سوى الضياع والفاقة ، فهو عقيم لا يجدى نفعـا .

* * *

---

(١) Bulletin (Garmauy), Nov. 1963.

(٢) Ibid, Oct. 1963.

الباب التاسع

الحياة التى ننشدها

كتب « **فريدرك أنجلز** » :

« لابد للانسان أن يجد لباسا يستر به جسده ، وخبزا يشبع به بطنه ، حتى يستطيع الخوض فى الفلسفة والسياسة » .

والواقع أن الأسئلة الأولى التي يسعى الانسان الى معرفة جواب عنها فى حياته هى :

من أنا ؟

وما هذا الكون ؟

وكيف بدأت حياتى ؟

والى أين ستنتهى ؟

انها أسئلة الفطرة الأساسية . فالانسان يفتح عينيه فى عالم يحــوى كل شيء ، غير جواب هذه الأسئلة ، فالشمس توصل اليه الحرارة اللازمة ، ولكن الانسان غافل عن حقيقتها ، وعن أسباب قيامها بهذه العملية لخدمته ، والهواء يعطى الحياة للانسان ، ولكن الانسان غير قادر أن يؤثر فيه ليجيب عن السؤال : من أنت ؟ ولماذا تقوم بهذا العمل ؟

انه يمعن فى وجوده ، ولكنه لا يفهم من هو ؟ ولمـــاذا جاء الى هـــذه الدنيـــا ؟

والذهن الانسانى غير قادر على وضع اجابات هذه الأسئلة الأساسية فى حياة البشر ، ولكنه لن يتخلى عن بحثه ، ولن يمل هذا البحث عن جواب .

هذه الأسئلة ، وان وردت الفاظا على ألسنة الجماهير ، فانها تؤلم روحها ، وهى ترد أحيانا بطريقة يصاحبها الانفعال ، حتى يصبح الانســـان مجنــونا .

* * *

لقد عرفنا « أنجلز » مفكرا ملحدا ، ولكن الحادة أتى عن طريق المجتمع المصاب بالبلبلة وعدم الاستقرار . لقد كان شغوفا بالدين ، وكان يقضى وقتا طويلا فى الكنيسة ، ولكنه بعد ما كبر وتوسع نظره فى الدراسة أعرض عن الدين التقليدى . وهو يكتب أحوال هذه الفترة فى خطاب له الى أحــد أصدقائه ، قال :

« اننى أدعو كل يوم ، وأقضى اليوم كله داعيا أن تنكشف لى الحقيقة .

لقد أصبح الدعاء هوايتى ، منذ وجدت الشكوك طريقها الى قلبى ، اننى لا أستطيع أن اقبل عقائدكم . ان قلبى يفيض بالدموع الغزار وانا اكتب هذه السطور ، قلبى يبكى ، عينى تبكى ، ولكننى أشعر اننى لست بطريد من رحمة الله ، بل آمل أن أصل الى الله الذى أتمنى رؤيته بكل قلبى وروحى . وأقسم بحياتى أن عشقى وبحثى هذا لمحة من روح القدس . ولن أقلع عن عن تفكيرى هذا ، ولو كذبه الأنجيل المقدس عشرة آلاف مرة !! » .

لقد أقلقت غريزة البحث عن الحق روح « انجلز » الشاب ، ولكن الدين المسيحى التقليدى لم يمنحه السكينة التى كان ينشدها ، فانقلب متمردا عليه ، وانغمس فى الفلسفات السياسية ، والمادية الالحادية .

* * *

وجذور هذه الغريزة الانسانية هى احساس البشر بحاجتهم الى الرب الخالق ، ففكرة : « الله خالقى وأنا عبده » منقوشة فى اللاشعور الانسانى، وهى ميثاق سرى مأخوذ على الانسان منذ يومه الأول ، وهو يسرى فى كل خلية من خلايا جسمه ، وعندما يفتقد انسان ما هذا الشعور يحس بفراغ عظيم ، وتطالبه روحه من أعماقه أن يبحث عن الهه الذى لم يره قط ، والذى لو وجده لخر راكعا على ركبتيه ، ثم ينسى كل شىء .

وليس الاهتداء الى معرفة الله غير الوصول الى المنبع الحقيقى لهـذه الفطرة الانسانية ، والذين لا يهتدون الى المعرفة يقبلون على اشياء أخرى . فان كل قلب يبحث عمن يهدى اليه خير أمانيه .

* * *

وعندما رفرف العلم الوطنى لأول مرة على الأبنية الحكومية فى الهنـد بدلا من العلم البريطانى : « اليونيان جاك » ، فى صباح يوم ١٥ اغسطس عام ١٩٤٧ ــ أغرورقت عيون كثيرة بالدموع ، وهى ترى الصورة التى طالما حلمت بها . وكانت هذه الدموع مظهرا لعلاقة أصحابها « بالمعبودة : الحرية » ، التى ضحوا من أجل الحصول عليها بخير أيام حياتهم .

وهكذا عندما يذهب زعيم وطنى الى ضريح « أبى الوطن » ويضع عليه اكليل الزهور ، ثم يقف أمامه لحظة مطأطئا رأسه ، فهو حينئذ يباشر نفس العمل الذى يقوم به المؤمن أمام معبوده ، حين يركع ويسجد .

وحين يمر شيوعى أمام تمثال « لينين » ويرفع قبعته عن رأسه ، ويبطىء فى سيره ، يكون هو الآخر ، مثل رجل الدين ، يقدم أحسن تمنياته الى الهه . فكل انسان مجبور على أن يتخذ شيئا ما الها له ، ويقدم له قرابين أمانيـه الصـادقة .

ولكن الانسان اذا قدم هذه القرابين لغير الله ، فهو يشرك بمن يستحق وحده العبادة .. و « **ان الشرك لظلم عظيم** » (١) ، والظلم أن تضع الشىء فى غير موضعه ، فلو كنت تريد أن تتخذ من غطاء الوعاء قبعة فهو « ظلم » ، والانسان عندما يميل الى غير الله لملء فراغه النفسى ويتخذ من غير الله ملجأ له ، فهو ينحاز عن مكانه الصحيح ، ويتخذ من غريزته اسوأ أسباب الضـلال .

---

(١) لقمان : ١٣ .

ولمـــا كانت هذه الغريزة فطرية ، فانها تظهر دائما فى صورتها الطبيعية متجهة الى الله ، ولكن المجتمع ، وأحوال البيئة ، يعطيان هذه الغريزة اتجاها مغايرا ، فتبدأ الشكوك تساور الانسان فى أول الأمر ، ولكنه سرعان ما يتخلص من هذه الشكوك ، عمدا أو عفوا ، لأنه يتمتع بحرية أكثر فى الحياة الجديدة ، فيرضى بها ولو ظاهريا .

لقد كان « **برتراندرسل** » شديد العلاقة بالدين فى أول حياته ، وكان يواظب على حضور صلوات الكنيسة باهتمام ، وفى يوم من الأيام سأله جده : ما نكون دعواتك المفضلة يا « برتى » ؟

فأسرع الشاب برتراندرسل يقول : « لقد سئمت الحياة ، وأنا مدفون تحت وطأة ذنوبى ــ يا الهى ! » وعندما جاوز برتراند الثالثة عشرة من عمره بدأت خواطر التمرد تراود ذهنه ، بفعل البيئة التى أحاطت به ، الى أن تحول ذلك الطفل المواظب على صلوات الكنيسة فأصبح من بعـــد برتراندرسل الفيلسوف الملحد ، الذى لا يؤمن بالحقائق السماوية . وقـــد أجرت الاذاعة البريطانية حديثا معه عام ١٩٥٩ ، وعندما سأله « فريمان » ــ المعلق الســـياسي بالاذاعة ــ : « هل وجـــدت أن هواية الاشتغال بالرياضيات والفلسفة يمكن أن تحل محل المشاعر الدينية عند الانسان ؟ » ، أجاب « رسل » قائلا : « نعم ، لقد وصلت فى سن الأربعين الى الطمأنينة التى قال عنها « أفلاطون » : أنه يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات . انها عالم أبدى ، حر ، لا يقاس بزمان . ولقد حظيت فى هذا العالم بســـكينة تشبه تلك التى يحصلون عليها فى الدين » .

لقد أنكر هذا المفكر البريطانى حقيقة المعبود السماوى ، ولكنه لم يستطع الاستغناء عن ضرورتها القصوى ، بسبب الغريزة الفطرية التى ولد بهـــا الانسان ، فجاء بالرياضيات والفلسفة ، وأجلسهما فى المقعد المخصص لله وحده . بل اضطر أيضا أن يخلع على الرياضيات والفلسفة نفس الصفات التى ينفرد بها الله سبحانه ، وهى : الأبدية ، والتحرر من أبعاد الزمن ، والسر فى ذلك أنه لا يمكن الحصول بدونهما على الطمأنينة التى يبحث عنهـــا الانسان .

* * *

« **جواهر لال نهرو فى حالة الركوع !** » لو كانت الصحف قد نشرت هـــذا الخبر فى يوم من الأيام لمـــا صدقها الناس ! ولكن الصورة التى تحملهـــا الصفحة الأخيرة من جريدة « هندوستان تيمس » ، الصادرة فى دلهى يوم ٣ أكتوبر من عام ١٩٦٣ ، تصدق هذا الخبر . وقد ظهر فى تلك الصـــورة رئيس وزراء الهند الأسبق فى حالة ركوع ، واقفا أمام ضريح المهاتما غاندى فى ذكرى ميلاده ، وهو يقدم تمنياته الى « أبى القومية الهندية » !

ان مثل هذه الأحداث تقع كل يوم فى كل مكان من العالم ، وآلاف من الناس الذين ينكرون وجود الله يركعون أمام معبوداتهم ، تسكينا لغريزتهم التعبدية ، وذلك لأن « الاله » ضرورة فطرية للانسان . وهذه المظـــاهر كافية لتأييد هذه الغريزة على أنها طبيعية ، لأن الانسان يضطر الى الركوع أمام آخرين كثيرين ، اذا ما امتنع عن السجود أمام « الله الواحد » ، أى أن فطرته لن تتمكن من ملء الفراغ الذى يخلو عند انكار وجـــود الله ، والالحــــــاد .

وليست الحقيقة أن يتخذ الانسان آلهة آخرين عند الكفر بالله ، **فيسكن** غريزته ، بل سوف أقول : ان الذين يتخذون من غير الله الها محرومون من الاستقرار والطمأنينة الحقيقيين ، كالطفل اليتيم الذى يحاول أن يتخذ من مصنوعات البلاستيك ((**أما**)) له .

وكل ملحد ، مهما بدا له ، أو للآخرين ، أنه ناجح ، يتعرض فى حياته لمواجهة لمحات ، يضطر ازاءها أن يفكر فيما اذا كانت الحقيقة التى **قبلها** — مصطنعة وزائفة ؟

* * *

وعندما ختم « جواهر لال نهرو » سيرته الذاتية سنة ١٩٣٥ ، أى قبل اثنى عشر عاما من استقلال الهند ، كتب فى خاتمتها قائلا :

« اننى لأشعر أن فصلا من حياتى قد انتهى ، وأن فصلا آخر على وشك البدء ، ترى ماذا سيحوى هذا الفصل ؟ لا يستطيع أحـد أن يتنبأ به ، فان أوراق الحياة القادمة مختومة » .

وعندما ظهرت الأوراق الأخرى من حياة نهرو ، وجد **نفسه** رئيسا لوزارة ثالث كبريات دول العالم ، يحكم سدس المعمورة بدون شريك . ولـكن « نهرو » لم يقتنع بهذا ، بل ما زال يشعر ، وهو فى أوج بروزه السياسى ، أن هناك فصولا أخرى من كتاب حياته **لمـا تفتح** .

لقد كان يعتمل فى قرارة ذهنه **نفس** السؤال الذى يولد معه الانسان ، وقد قال نهرو ، وهو يخاطب مؤتمر المستشرقين الذى انعقـد فى دلهى فى يناير من عام ١٩٦٤ والذى اشترك فيه ألف ومائتان من الممثلين من جميع أرجاء العالم ، قال :

« اننى سياسى ، ولا أجد وقتا كثيرا للامعان والتفكير . ولكننى **أضطر** فى بعض الأحيان أن أفكر : ما حقيقة هذه الدنيا ؟ ومن نحن ؟ وماذا نقـوم به ؟ اننى على يقين كامل أن هناك قوى تصوغ أقدارنا » (١) .

وهذا هو الشعور بعدم الطمأنينة الذى يسيطر على أرواح الذين يكفرون بالله معبودا لهم ، ويخيل اليهم فى غمرة الملذات المؤقتة والأعمال الدنيوية الشاغلة — أنهم قد ظفروا بالاستقرار .. ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا مرة أخرى بأنهم محرومون من الطمأنينة والسعادة والاستقرار .

وهذه الحالة التى تنعدم فيها الطمأنينة والاستقرار لدى القلوب المحرومة من رحمـة الله ليست مسألة أيام هذه الحياة المؤقتة وسنيها . وانما هى أهم من ذلك بكثير .

أنها مسألة أزلية وأبدية ، تتمثل فيها آثار الحياة المعتمة الحالكة ، التى يقف على حافتها هؤلاء الأصحاب .

انها البادرة الأولى لحياة الخنق الأبدية ، التى سوف يواجهونها بعـد موتهم دون شك .

---

(١) جريدة National Herald عدد ٤ يناير عام ١٩٦٤ .

انها أجراس التنبيه الأولى فى حياتهم ، تنذرهم بالأحوال الرهيبة ، والظروف المروعة التى سوف تمر بها أرواحهم .

وهى دخان من الجحيم الذى لابد لهم أن يخلدوا فيه .

ولو أن النيران شبت فى منزل أحدهم ، فقد ينبهه الدخان الذى سيدخل فى انفه الى الخطر الوشيك ، وهو يستطيع أن ينقذ نفسه لو استيقظ فى الوقت المناسب ، ولكن حين تمسك ألسنة النيران بسريره فسيكون الأوان قد فات . ولات حين مناص ، بل هو الهلاك الذى يحيط به من كل جانب ، فقد قدر له أن يحترق فى النيران ، لبلادة حسه ، وجهالته من أمره .

ترى ، هل يستيقظ الناس فى ابان النجاة ؟ فان اليقظة النافعة هى التى تكون قبل فوات الأوان ، واليقظة عند الهلاك والدمار لا تمنح صاحبها غير القرار فى قاع البوار .

*   *   *

كتب البروفيسور « **مايكل بريتشر** » ترجمة لحياة جواهر لال نهرو — وقد سأل المؤلف نهرو فى لقاء له معه بنيودلهى فى ١٣ يونيه من عام ١٩٥٦ :

« ما المقومات اللازمة لبيئة صالحة — طبقـا لفلسفتكم الأساسية فى الحيـاة ؟ » .

وأجاب رئيس الوزراء الأسبق قائلا :

« اننى أومن ببعض المعايير ، قل : انها (المعايير الأخلاقية) ، ولابد لكل فرد وبيئة من التمسك بها ، وعند القضاء على هذه المعايير لا يمكنك الوصول الى نتائج مفيدة ، رغم احراز التقدم المادى الهائل ، وأما (سبل) اقامة هذه المعايير والاحتفاظ بها فى المجتمع ، فاننى لا أعرفها ، وهناك نظرة دينية لاقامة هذه المعايير ، ولكنها تبدو لى ضيقة جـدا مع كل طقوسها وطرقها ، فأنا أهتم اهتماما كبيرا بالقيم الأخلاقية الروحية ، بعيدا عن الدين ، ولكننى لا أعرف كيف يمكن الحفاظ على هذه القيم فى الحياة الجـديدة . انها لمشكلة (١) » .

وهذا السؤال وجوابه يبينان بوضوح الفراغ الذى يواجهه الانسان بشدة فى حياته ، فان اقامة القيم والمعايير الأخلاقية من أهم ضرورات كل مجتمع ، حتى يتاح له جو الاستقرار لمواصلة مسيرة الحضارة . ولكن الانسان ، بعد أن خذل الاله ، أخذ يخبط خبط عشواء بحثا عن هذه المعايير،وسبل اقامتها فى حياة أفراد المجتمع . ولا يزال الانسان ، رغم مئات السنين التى مضت ، فى أولى مراحل بحثه عن هذه المعايير المجردة عن الدين ...

انهم يحتفلون ، مثلا ، بأسبوع الكرم Courtes week لاذابة الحواجز بين الشعب والحكام ، ، ولكن العقلية البيروقراطية لا تذوب عند المسئولين ، رغم كل الجهود التى تبذل فى هذه المناسبات باسم « الأخلاق » .

ويعلقون على المحطات وداخل عربات القطارات لافتات كبيرة تقول : « ان السفر بدون تذكرة جريمة اجتماعية » — ولكن نسبة السفر بدون التذاكر

(١) Nehru — A Political Biography, pp. 607-8.

لا تقل ، بل تزداد يوما بعد يوم . وذلك يثبت أن عبارة « جريمة اجتماعية » غير كافية لتحريك ضمير الفرد ، والحفاظ على النظام (١) .

انهم يبذلون جهودا ضخمة للتنفير من الجرائم ، عن طريق الصحافة ، قائلين مثلا : « الجريمة لا تفيد » Crime does not pay . ولكن النسبة المرتفعة للجرائم ، يوما بعد آخر ، دليل على أن « عواقب الجريمة » فى الدنيا ليست رادعة ، حتى تمنع المجرمين من القيام بجرائمهم .

وكثيرا ما طبعوا على جدران المكاتب عبارات تقول : « ان تقديم الرشوة ، وقبولها ذنب » ، ولكن المرء ، عندما يشاهد أن جرائم الرشوة تمضى فى طريقها على قدم وساق ، بمشهد من هذه العبارات نفسها ، يضطر الى أن يعترف بأن الدعاية الحكومية لن تستطيع أن تمنع هذه الجريمة الاجتماعية القبيحة .

انهم يكتبون فى كل عربة من عربات القطار : « ان القطارات ملك للشعب ، والحاق أى ضرر بها جريمة ضد الشعب . » ، ولكن المسافرين فى نفس هذه العربات يسرقون لمباتها الكهربائية الرخيصة ، ويحطمون زجاجها ، وربما يثورون فيشعلون فيها النار وهو دليل على أن فائدة الشعب ليست بأقوى من فائدة الفرد .

ان كبار الزعماء والسياسيين يعلنون فى خطبهم : أن استغلال الوسائل الحكومية لصالح الأغراض الفردية خيانة فى حق الشعب والدولة » . ولكن المشروعات الكبرى تفشل فى تحقيق أهدافها ، لأن النسبة الكبرى من الميزانيات المقررة تأخذ طريقها الى جيوب المسئولين القائمين بأمر هذه المشروعات ، بدلا من انفاقها فى مكانها الصحيح . وهكذا اختفت المعايير والقيم من الحياة القومية ، رغم كل المجهود التى بذلت من جانبى المصلحين والزعماء ، وباءت كل الوسائل التى استخدموها بالفشل الذريع(٢) .

هذه الظواهر هى فى الواقع دلائل على أن الحضارة الالحادية قد انتهت بركب البشرية الى الوحل ، وقد ضللتها عن طريقها ، التى لم يكن منها بد لمواصلة المسيرة ، ولا حل لهذه الأزمة الا بالرجوع الى الله ، والتسليم بأهمية الدين للحياة ، فهو الأساس الوحيد الذى يساعد على النهوض بالحياة البشرية على خير وجه ، وليست هناك من أسس أخرى .

***

(١) كل ما يقدمه المؤلف من أمثلة للتدليل على افلاس الفلسفات المادية الالحادية ، غربية وشرقية ، موجود بوفرة فى بلاد شرقنا العربى ، وتوحى شواهد الواقع أن الامور تزداد كل يوم سوءا ، نتيجة سيطرة المنحلين والملاحدة على أجهزة التوجيه من جانب ، وقعود رجال الدين عن أداء رسالتهم من جانب آخر ، ولا حل للمشكلة الا بعودة الأمة الى الله مرة أخرى — **(المراجع)**.

(٢) ان الأمثلة التى ذكرها المؤلف هنا — من أسبوع الكرم الى التلاعب فى أموال الدولة — أمور عادية جدا فى الهند ، وهى تحدث على مسمع ومشهد من الجمهور والمسئولين، وترتب على ذلك أن الحالة الأخلاقية للشعب الهندى آخذة فى التدهور بشكل يخيف السياسيين من عواقبها على المدى البعيد ، وهؤلاء (الوثنيون منهم أو الملحدون) لايعرفون كيف يسدون هذا السيل الخطر ، فغالبيتهم العظمى تجرى وراء مصالحها الذاتية ، ولذلك قد تفشى الفساد وعمت الرشوة وسادت اعتبارات المحسوبية فى كل وسط ، من أدناه الى أرقاه — وهى حال تدمى قلوب الساسة الوطنيين المخلصين ، ولكنهم مغلوبون على أمرهم

كتب البروفيسور تشستر باولز(١) ، السفير الأمريكى الأسبق لدى الهند ، يقول :

« ان الدول النامية تواجه مشكلات من نوعين ، فى طريق نهضتها الصناعية . والنوعان معقدان غاية التعقيد . **فأما أولهما : فهو** مشكلات الحصول على رأس المال ، والمواد الخام ، والخبرة الفنية ، وطرق استخدامها أفضل استخدام . **وأما النوع الثانى** من هذه المشكلات فيتعلق بالشعب والادارة الحكومية . فعلينا قبل المضى فى ثورتنا الصناعية أن نتيقن من أن هذه الصناعة لن تغلق مشكلات أكثر مما تقضى عليه (من المشكلات) فعلا . ومن كلمات المهاتما غاندى : ان المعلومات العلمية والكشوف سوف تزيد من شراهة الانسان ، على حين أن الانسان هو الشىء الأهم من كل الأشياء »(٢) .

فالشعب مجتمع يخضع للبرامج التقدمية ، ولكن عناصر التقدم ، وهى رأس المال والخبرة الفنية ، لا تجدى نفعا فى مجتمع يسوده الفراغ السياسى والحضارى(٣) .

ما الطريق الى سد هذا الفراغ لبناء مجتمع يضطلع فيه الشعب والحكام . كل بواجبه ، لرفع شأن البلاد ؟

انه سؤال بدون جواب لدى المفكرين المحدثين ، والحق أن الانسان لن يستطيع الوصول الى جوابه فى ظل المجتمع الالحادى . فكل مشروع تقدمى يصاب بتناقض مثير ، يتجلى فى أن العقائد الشخصية لدى أفراده تخالف العقيدة الاجتماعية . فبرنامج التقدم الاجتماعى مثلا يهدف الى اقامة مجتمع رفاهى يتمتع بالأمن والسلام ، ثم يقول المفكرون : « ان هدف الانسان الأساسى هو الحصول على السعادة المادية ! » فهم بذلك ينكرون المبدأ الأول لبرنامجهم . لأنهم يحرضون الأفراد على عمل هو عكس ما يحتاج اليه المجتمع .

ويرجع هذا التناقض الى أن برنامجا من هذا النوع لم يحقق أهدافه الى يوم الناس هذا ، وفشلت جميع الفلسفات المادية للنهوض بالحياة الاجتماعية .

ان معنى الحصول على السعادة المادية هو أن يسعى الانسان بكل قواه الى تحقيق كل ما تصبو اليه أمانيه ، ولكن تحقيق الأهداف الشخصية ، فى هذا العالم المحدود ، لا طريق اليه دون التأثير على الآخرين . ولذلك ، فعندما يسعى الفرد الى تحقيق مطالبه يتحول الى رزء بالنسبة للاخرين .. فأمنية الفرد تدمر أمانى المجتمع . وحين يجد فرد ، يتقاضى مرتبا بسيطا ، أن موارده لا تكفى لتحقيق سعادته الشخصية فانه يسعى الى تحقيق ذلك بكل الصور الممكنة ، حتى **أيقدم** على السرقات . والرشاوى ، والغش ، والتزوير ، والاستيلاء على حقوق الغير بالقوة .. وعندئذ يبدأ المجتمع فى أن يعانى نفس المشكلات التى كان يعانى منها أحد أفراده .

(١) Chester Bowles. هو من أشهر الخبراء الاقتصاديين فى الولايات المتحدة الأمريكية . **المعرب** .

(٢) The Makings of a Just Society, Delhi 1963, pp. 68-69.

(٣) المرجع السابق : ص — ٣١ .

ان العالم الحديث يعانى من مشكلة ، لم يجربها الانسان طوال تاريخه هى مشكلة « **جرائم الأطفال** » ، التى أصبحت جزءا من المجتمع الحديث ! من أين يأتى هؤلاء المجرمون الصغار ؟ انهم ضحايا « السعادة المـــادية » .. فكثير من الفتيان والفتيات يسأمون حياة الزواج بعد وقت قليل ، وحينئـــذ يبدأون فى البحث عن وجوه وأجساد جديدة ، ويحصلون على الطلاق ، بيد أن المجتمع هو الذى يدفع ثمن الطلاق ، حين يلملم فى رحابه « أطفالا يتامى فى حياة آبائهم وأمهاتهم » ، وما دام المجتمع المنحل هو الآخر لا يستطيع أن يهيىء لهؤلاء الأطفال الطعام واللباس والمأوى ، فهم أحرار من كل قيـــد ، وهم ثائرون على المجتمع الذى انجبهم . وتبدأ هذه الحال بالصعلكة ، ثم تنتهى الى الجرائم القذرة التى كانوا ثمرتها .

ولقد صدق السير الفريد دييننج فى مقاله : « ان اكثرية المجرمين الأطفال غير البالغين تخرج من أنقاض « أسر محطمة »(١) .

هذا التناقض بين الفلسفة الاجتماعية وأهـــداف الأفراد هو أصل كل المشكلات الاجتماعية . فجميع الحوادث التى نسميها فى قواميسنا « جريمة وذنبا » هى محاولة قوم للحصول على أمانيهم الذاتية فى الحياة ، بعد أن أخفقوا فى تحقيقها لسبب أو آخر . وهذه الحوادث تظهر فى أغلب الأحيان فى صـــور : الاغتيال ، والخطف ، والتدليس ، والتزوير ، والقرصنة ، والحروب ، والزنا ، وما الى ذلك من الجرائم التى تعانى منها الانسانية .

وهذا التناقض يبين بجلاء أن هدف الحياة الأساسى هو الحصول على رضا الله فى الآخرة ، لا غير . انه هو الهدف الوحيد الذى يمكنه انقاذ المجتمع والفرد من التناقض الكبير ، والسير بهما فى طريق الرخاء والسعادة المتبادلة ، لأن الفرد فى هذا الهدف لا يصادم أمانى المجتمع ، بل يشترك فى كفاحه بطريقة ايجابية فعالة .

فميزة نظرية(الآخرة) تأكيدها على أنها هى الأساس الوحيد لنجـــاح المشروعات الاجتماعية فى حين تبين فى نفس الوقت ، أنها هى الهدف الوحيد للانسان الفرد أيضا ، لأن أى شىء لا علاقة له بالواقع لا يمكنه أن يصبح بهذا القدر العجيب منالأهمية ، والموافقة لأهداف البشرية .

***

لقد تقدم الطب الحديث والجراحة الى أقصى حدودهما فى هذا القرن ، وبدأ الأطباء يقولون : « ان العلم يستطيع القضاء على كل مرض ، غير الموت والشيخوخة » !! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب ، وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » التى هى نتائج أعراض التناقض الشديد الذى يمر به الفرد والمجتمع .

لقد حاول العلم الحديث أن يغذى كل الجوانب المادية فى الجسم الانسانى ، ولكنهفشل فى تغذية الشعور ، والأمانى ، والارادة ، وكانت حصيلة ذلك جسما طويل القامة ممتلىء النواحى ، ولكن الجانب الآخر من الجسم ، وهو أصل الانسان ، أصبح يعانى من أزمات لا حد لها .

---

(١) The Changing Law, p. 111.

لقد اكدت **احصـــائية** : أن ثمانين فى المـــائة من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضا ناتجة عن الأعصاب ، من ناحية أو أخرى . ويقول علماء النفس الحديث : ان من أهم جذور هذه الأمراض النفسية : الكراهية ، والحقد ، والجريمة ، والخوف ، والارهاق ، واليأس ، والترقب ، والشك ، والأثرة ، والانزعاج من البيئة . وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الايمان بالله .

ان هذا الايمان بالله يمنح الانسان يقينا جبارا ، حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب ، فهو يجاهد فى سبيل هدف سام أعلى ، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة .

ان الايمان بالله يعطى الانسان محركا هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ، ومصدر قوة العقيدة ، **العقيدة** التى عبر عنهـــا « السير وليـــام أوسلر » William Osler بقوله : « **انهـــا قوة محركة عظيمـــة ، لا توزن بأى ميزان ، ولا يمكن تجربتها فى المعامل** » .

ان هذه **العقيدة** هى سر مخزن الصحة النفسية الموفورة ، التى يتمتع بها أصحابها ، وأية نفسية محرومة من هذه **العقيدة** لن تنتهى الا بالأمراض ، أقساها وأعتاها .

ومن شقوة الانسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود فى الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جـــديدة ، ولكنهم فى نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول الى علاج هذه الأمراض . وهذه الظاهرة تثير شعورا كئيبا بأن هؤلاء العلماء قد اخفقوا فى الميدان الأخير ، ولذلك أكبوا على الميدان الثانى ، يسترون خيبتهم ، ويظهرون بطولتهم أمام العالم !

والى ذلك اشار أحـــد العلماء المسيحيين قائلا : « ان علماء الطب النفسى يبذلون كل جهودهم فى كشف أسرار القفل الدقيقة الذى سوف **يغلق** علينا كل أبواب الصحة ! » .

فالمجتمع الجديد يسير فى اتجاهين فى وقت واحد . فهو يحاول من جهة الحصول على جميع الكماليات المـــادية ، على حين يتسبب — لتركه الدين — فى خلق أحوال تجعل من الحياة جحيما . انه يعطيك دواء الشفاء من الفم . ويحقنك السم فى العضل !

وسوف أنقل هنا شهادة لهذه الظاهرة رواها الدكتور بول أرنست أدولف ، يقول :

« تعرفت أثناء دراستى بالكلية الطبية على التغييرات التى تطرأ على انسجة الجسم بعـــد الاصابة بالجراح ، وشاهدت أثناء التجارب بالمنظار المكبر أن أعراضا محددة تطرأ على هذه الأنسجة ، مما يؤدى الى اندماج الجروح وشفائها ، وعندما أصبحت طبيبا بعد اتمام دراستى كنت جـــد مقتنع بكفاءتى واننى أستطيع أن أحقق نتيجة موفقة بالتأكيد ، باستعمال الوسائل الطبيـــة اللازمة ، ولكن سرعان ما أصبت بصدمة كبيرة ، حيث فرضت على الظروف أن أشعر أننى أعرضت عن أهم عنصر فى علم الطب ، الا وهو : الله » .

« كانت بين المرضى الذين كنت مشرفا على علاجهم فى المستشفى ، عجوز فى السبعين من عمرها ، أصيب أعلى فخذها بصدام ، وأكدت صور الأشعة أن أنسجة جسمها تلتئم بسرعة ، فقدمت لها تهنئاتى لسرعة شفائها ، وأشار لى كبير الجراحين : أن أطلب منها العودة الى بيتها بعد أربع وعشرين ساعة ، لأنها استطاعت أن تمشى دون أن تستند الى شىء » .

« وكان ذلك يوم أحد ، حين جاءت ابنتها تزورها على عادتها الأسبوعية ، فقلت لها : ان والدتك تتمتع بصحة جيدة الآن ، وعليك أن تحضرى غـدا لترافقيها الى البيت . ولم تلفظ الفتاة بشىء أمامى ، بل توجهت الى أمها ، وقالت لها : انه تقرر بعد مشورة زوجها أنهما لن يستطيعا تدبير عودتها (الأم) الى بيتهما ، وخير لها الآن أن تنظم لها سكنى باحدى « دور العجزة »» .

وبعد بضع ساعات مررت بسرير العجوز ، فشاهدت أن انهيارا سريعا يطرأ على جسمها ، ولم تمض أربع وعشرون ساعة حتى ماتت العجوز ، **لا بسبب فخذ مكسور ، بل جراء قلب كسير .**

« وقد حاولت أن أقوم بجميع الاسعافات اللازمة لانقاذها ، ولكن حالتها لم تتحسن . كانت عظام فخذها المكسور ، قد تحسنت كثيرا ، ولكننى لم أجد علاجا لقلبها الكسير .. أعطيتها كل ما عندى من الفيتامينات ، والمعادن ، ووسائل التئام العظم المكسور ، ولكن العجوز لم تستطع أن تنهض مرة أخرى ، لقد انجبرت عظامها دون شك ، وكانت تملك فخذا قوية . ولكنها لم تقوى على الحياة ، لأن ألزم عنصر لحياتها لم يكن الفيتامينات ، والمعادن ، ولا انجبار العظم ، وانما كان (الأمل) ، الأمل فى أن تعيش على نحو معين ، فمتى ذهب الأمل فى الحياة ، ذهبت معه الصحة » .

« وكان لهذا الحادث تأثير عميق فى نفسى ، لاحساسى بأن هذا الحادث كان من المستحيل وقوعه ، لو كانت هذه العجوز تعرف « اله الأمل » ، الذى أؤمن به لكونى مسيحيا »(1) .

هذا المثال يعطينا صورة من التناقض الذى يعانى منه العالم فى كل جانب من جوانب حياته ، فالعالم يحـاول اليوم بكل قوة أن **تمحى** الأحاسيس والمشاعر الدينية من قلوب الناس ، وهو فى هذه المحاولة يسعى الى نهضة الانسان ، متجاهلا (الروح) ، عنصره الأصلى .

ومن نتائج هذه المحاولة أن الطب يستطيع ان يجبر عظام فخذ مكسورة ، ولكن حرمان الانسان من العقيدة الالهة يفضى به الى الموت ، رغم كون جسمه فى صحة جيدة .

لقد دمر هذا التناقض الانسانية تدميرا ، فالأجسام تحت الأثواب البراقة أحوج ما تكون الى الهدوء والسعادة الحقيقيين ، والأبنية الفخمة تسكنها قلوب محطمة ، والمدن المتلألئة ببريق الحضارة هى بؤر الجرائم ، ومصانع المصائب ، والحكومات الجبارة مصابة بالدسائس الداخلية وعدم الثقة ، والمشروعات الضخمة تبوء بالفشل نتيجة لخيانة القائمين بها .. لقد أصبحت الحياة غير مرغوب فيها رغم التقدم المـادى الهائل ، وكل هذا وذاك يرجع

(1) The Evidence of God, pp. 212-14.

الى حرمان الانسان من نعمة الايمان بالله ، لقــد حرمنا أنفسنا من المنبع والأساس الذى هيأه لنا خالقنا ومالكنا .

ان سبب الأمراض النفسية ، التى أشرت اليها ، حقيقة واضحة جلية اعترف بها علماء النفس ، وقــد لخص عالم النفس الشهير البروفيسور يانج C.G. Jung تجاربه عنها فى الكلمات التالية :

« طلب منى أناس كثيرون ، من جميع الدول المتحضرة ، مشورة لأمراضهم النفسية ، فى السنوات الثلاثين الأخيرة . ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى ــ الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم ، وهو ما بعد ٣٥ سنة ــ الا الحرمان من العقيدة الدينية . ويمكن أن يقال : ان مرضهم لم يكن الا أنهم فقدوا الشىء الذى تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها فى كل عصر ، ولم يشف أحد من هؤلاء المرضى الا عندما استرجع فكرته الدينية (١) .

وانها لكلمات جلية : « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »(٢) .

ولو أردنا المزيد من الايضاح ، فلسوف أقتبس عن الأستاذ (ا . كريسى موريسون « رئيس أكاديمية نيويورك (سابقا) ، قوله :

« ان الاحتشام ، والاحترام ، والسخاء ، وعظمة الأخــلاق ، والقيم والمشاعر السامية ، وكل ما يمكن اعتباره « نفحات الهية » ــ لا يمكن الحصول عليها من طريق الالحاد .

« فالالحاد نوع من الأنانية ، حيث يجلس الانسان على كرسى الله .

« لسوف تقضى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين .

« سوف يتحول النظام الى فوضى .

« سوف ينعدم التوازن ، وضبط النفس ، والتمسك .

« سوف يتفشى الشر فى كل مكان .

« انها لحاجة ملحة أن نقوى من صلتنا وعلاقتنا بالله »(٣) .

* * *

(١) Quoted by C.A. Coalson, Science & Christian Belief p. 110.

(٢) ق : ٣٧ .

(٣) Man Does not Stand Alone, p. 123.

الفهرس

صفحة

مقدمة الطبعة العربية بقلم الدكتور عبد الصبور شاهين ٧
تمهيد ١٨

الباب الأول

قضية معارضي الدين ٢٣

الأساس الأول — البيولوجيا ٢٥
الأساس الثانى — علم النفس ٢٥
الأساس الثالث — التاريخ ٢٦

الباب الثانى

نقد قضية المعارضين ٢٩

أولا : حقيقة الطبيعة ٢٩
ثانيا : اللاشعور ودليل علم النفس ٣١
ثالثا : الاستدلال بالتاريخ والاجتماع ٣٤

الباب الثالث

طريقة الاستدلال العلمى ٤١

نظرية التطور العضوى ٤٤
مشكلة تعيين حقائق الأمور ٤٥
حقيقة النظريات العلمية ٤٦

الباب الرابع

الطبيعة تشهد بوجود الله ٤٨

أولا : نظرية التشكيك فى الوجود ٤٨
الوجود والخلق ٤٩

صفحة

	الأزلى — الخالق أم المـــادة ؟	٤٩
ثانيـــا :	الكشوف الفلكية	٥١
	الأنظمـــة المعقــــدة	٥٣
	تقليد الطبيعة	٥٥
ثالثـــا :	روح الكون الغريبة	٥٦
	التوازن المدهش فى الأرض	٥٦
	قانون الضغط والتوازن	٦٠
	السنن الرياضية المحــكمة	٦٢
	نظام العناصر والدورية	٦٢
	خصائص حكيمة	٦٣
	صدفة أم عملية حكيمة	٦٥

الباب الخامس

دليـــل الآخــــرة	. . . .	٧٢
أولا :	امكان الآخرة	٧٢
	مسألة الموت	٧٢
	ظواهر وأمثلة طبيعية	٧٤
	الحياة بعد الموت	٧٦
ثانيـــا :	ضرورة الآخرة	٧٨
	مســـألة القـــول	٨٠
	مســـألة العمـــل	٨١
ثالثـــا :	الحاجة الى الآخرة	٨٢
	الجـــانب النفسى	٨٢
	الضرورة الأخلاقية	٨٦
	مشكلة الســـلوك	٨٨
	الضرورة الكونيـــة	٨٩
رابعـــا :	الشهادة التجريبية	٩١
خامسا :	البحث النفسى	٩٢
سادسا :	البحوث الروحيـــة	٩٣

الباب السادس

صفحة

اثبات الرسالة ٩٦

أولا : ضرورة الرسالة ٩٨
ثانيا : مقياس الرسالة ١٠٠

الباب السابع

القرآن ـ صوت الله ١٠٨

أولا : اعجاز القرآن ١٠٨
ثانيا : نبوءات القرآن ١١١
ثالثا : القرآن والكشوف الحديثة ١٢١

تقسيم لآيات القرآن ١٢٣

النوع الأول من الآيات ١٢٤
النوع الثانى من الآيات ١٢٦
أولا : علم الفلك ١٢٦
ثانيا : علم طبقات الأرض ١٢٨
ثالثا : علم الأغذية ١٣٠

الباب الثامن

الدين ومشكلات الحضارة ١٣٥

التشريع ١٣٥
أولا : مصدر التشريع ١٣٨
ثانيا : العناصر الأساسية للتشريع ١٤٠
ثالثا : تحديد مفهوم الجريمة ١٤١
رابعا : القانون والأخلاق ١٤٢
خامسا : القانون والفرد ١٤٣
سادسا : القانون والعدل ١٤٥
المراة والمجتمع ١٤٦
التمدن ١٤٩
المعيشة ١٥٠

الباب التاسع

الحياة التى ننشدها ١٥٣

مطابع الاهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٣/٢٤٩٩

تصميم الغلاف للفنان سليمان شلبى

الكتاب والدار

ما أندر الأقلام التى تنبض بالصدق وهى تكتب دفاعا عن مستقبل الحياة كما يتصوره الاسلام .. متحملة فى ذلك ضغط الفساد وسلطانه ، ومتحدية فى المجتمع مراكز استيراد الأفكار ، وعناصر اللامبالاة ..

صحيح أن هذه الأقلام قلة ، لكن أرض الله تعالى لا تخلو منهم ، يكتبون بكل لغة ، ويحاربون فى كل معركة ، ايمانا منهم بوحدة المقاتلين أمام الخطر الزاحف .

من هؤلاء القلة وحيد الدين خان .. المسلم الهندى العالم والمفكر الانسانى الحر .. وهو يقدم فى كتابه هذا ((الاسلام يتحدى)) عرضا لأحدث آراء المفكرين الأوربيين ويرد عليها ، وهو يمضى بأسلوبه المقنع الهادىء فينتقد قضية المعارضين للدين ، ويثبت أنها متهاوية ولا تقف على أرض صلبة .

وبين يدى القارىء الطبعة الرابعة بعد أن نفدت الطبعة الثالثة خلال أيام من صدورها ..

ولقد آثرت دار المختار الاسلامى أن يكون هذا الكتاب أول عمل تقدمه لقرائها ، واذا كانت الدار تدقق كثيرا فى اختيار ما تنشره ، فانما تهدف الى الدفاع عن الاسلام وبيان حقيقته من خلال أكثر الكتابات احتراما ووعيا ..

ذلك أن دار المختار الاسلامى تؤمن أن الاسلام فى جوهره هو السبيل الوحيد لانقاذ الانسانية .. غير أن أسلوب الاتصال بهذا الجوهر النقى هو الذى يحتاج الى طريقة عرض جديدة .. ويحتاج الى لغة معاصرة تجعله قريبا من العقل قريبا من القلب .

سمير عاشور

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ١٧٠٧ — القاهرة
هاتف ٩٣٦٤٩٦



مطابع الأهرام التجارية

ص ٥٠